

المركز القومي للترجمة



وول سوينكا

مذكرات سجين

ترجمة وتقديم

نسيم مجلي

2049

سلسلة الإبداع القصصي

مذكرات سجين

(روايـة)

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

سلسلة الإبداع القصصى

المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2049
- مذكرات سجين
- وول سوينكا
- نسيم مجلى
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة:

THE MAN DIED: Prison Notes of Wole Soyinka

By: Wole Soyinka

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

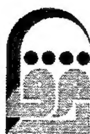
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

مذكرات سجين

(روايــة)

تــألــيــف : وول سوينكا

ترجمة وتقديم : نسيم مجلى



2013

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سوينكا، وول
مذكرات سجين (رواية)؛ تأليف: وول سوينكا؛
ترجمة وتقديم: نسيم مجلى
ط ١، القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٣
٤٦٠ ص، ٢٠ سم
١- الأدب الأفريقى
(أ) مجلى، نسيم (مترجم ومقدم)
(ب) العنوان
٨٩٢

رقم الإيداع ٢٠١٢/٩٤١٨
الترقيم الدولى (I.S.B.N. 978-977-216-103-4)
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات



تقديم المترجم

(وول سوينكا)
أول شاعر أفريقى يحصل على نوبل

كان فوز وول سوينكا بجائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٨٦ لحظة كاشفة فى تاريخ القارة السوداء، ألقت بأضوائها القوية على ثقافة هذه القارة وعلى كثير من أبنائها المبدعين. فلم ينقض عامان حتى حصل عليها كاتبنا الكبير نجيب محفوظ، ثم اكتملت الثلاثية بفوز نادين جورديمر كاتبة جنوب أفريقيا بهذه الجائزة عام ١٩٩١.

كانت الجائزة اعترافًا بنضج الأدب الأفريقى ووصوله إلى المستويات العالمية فنيًا وفكريًا، بعد مسيرة نصف قرن من الكفاح ضد الاستعمار والعنصرية، لعب الأدب فيها دورا مهما فى تنمية الوعى الوطنى وتعبئة الجماهير ضد الاحتلال الأجنبى والتخلف الاجتماعى والسياسى.

وخلال هذه المسيرة تعرف المثقفون فى العالم على أعمال متميزة من الشعر والمسرح والرواية مكتوبة بالإنجليزية أو الفرنسة والألمانية أو مترجمة

عن لغاتها المحلية، كما تعرفوا على أسماء مبدعين بارزين، مثل الشاعر ليوبولد سينجور رئيس جمهورية السنغال السابق، وإيمى سيزار شاعر جزر المارتينيك ممن يكتبون بالفرنسية، وعرف فى مجال القصة والرواية أموس تيوتولا، وتشيى أشيى (نيجيريا)، وجيمس نجوجى (كينيا)، وبيتر إبراهام (جنوب أفريقيا)، بالإضافة إلى الكاتب المسرحى المبدع والمثير للاهتمام أتول فيوجارد (جنوب أفريقيا) وهؤلاء يكتبون بالإنجليزية.

وفى قلب هذه البانوراما الأفريقية الزاخرة، يبدو سوينكا علما من أعلام الفكر والأدب فى العالم كله. فإن كان كل واحد من هؤلاء يتفوق فى جانب واحد من جوانب النشاط الإبداعى كالشعر أو الرواية أو المسرحية، فإن سوينكا يتفوق فى هذه المجالات جميعا. وقد وصفه أحد النقاد بأنه أحد عباقرة المسرح المعاصرين، فهو شاعر مسرح له خيال تصويرى رائع، وروائى بارز، وأستاذ للأدب المقارن ومترجم وناقد، أثار العديد من المعارك النقدية؛ ولعل أهمها مهاجمته الدعوة للزنوجة التى تبناها إيمى سيزار وليوبولد سنجور باعتبارها نقيضا لمحاولات الذوبان فى الثقافة الفرنسية.

حياة سوينكا وأعماله:

ولد سوينكا فى ١٣ يوليو ١٩٣٤ فى "إيبوكاتا" بالإقليم الغربى لنيجيريا لأبوين من قبائل (اليوروبا)، حيث ينتسب الأب إلى "الإيجيو" وتنتسب الأم إلى "الإيجبا". تلقى تعليمه الابتدائى بمدرسة "سان بيتر"

بين عامى ١٩٣٨-١٩٤٣، وتلقى تعليمه الثانوى بأحد المعاهد التابعة للحكومة فى "إبادان". وأثناء الدراسة كتب عدداً من القصص القصيرة قدمتها إذاعة نيجيريا. وفى عام ١٩٥٢ التحق بجامعة "إبادان" واستمر بها حتى عام ١٩٥٤، حين رحل إلى بريطانيا حيث التحق بجامعة ليدز التى تخرج فيها ١٩٥٨ بمرتبة الشرف فى الأدب الإنجليزى.

وفى إنجلترا اضطر سوينكا لأن يعمل جرسونا فى حانة، ثم مدرسا بعقد مؤقت وفى النهاية عين قارئ نصوص بالمسرح الملكى بلندن. وخلال هذه الفترة كتب مسرحيتى "سكان المستنقع" و"الأسد والجوهرة" وقُدمت هاتان المسرحيتان فى عرض واحد فى "إبادان" عام ١٩٥٩.

عاد سوينكا بعد تخرجه إلى نيجيريا؛ حيث عمل باحثا بجامعة "إبادان" ثم محررا بمجلة "أورفيوس الأسود" وهى أشهر المجلات الأدبية فى نيجيريا، وفى أثناء ذلك توثقت علاقته بالمسرح كاتبا ومخرجاً وممثلاً؛ إذ شرع فى إنتاج المسرحيات وإنشاء المسارح.

كتب سوينكا روايتين ومجلدين من الشعر، وحوالى خمس عشرة مسرحية، بالإضافة إلى ترجمته لرواية "غابة الألف شيطان" لفنجوا Fagunwa من لغة اليوروبا إلى الإنجليزية. وقد لقيت روايته "المفسرون" The Interpreters تقديرا عالميا. فهى رواية واقعية تتناول أزمة المثقفين فى نيجيريا. وقد شبه أحد النقاد الإنجليز (د. أ. ب جونز) "المفسرون" برواية "يوليسيس" لجيمس جويس.

فضلا عن ذلك فإن وول سوينكا شاعر كبير، وقصائده ـ رغم ما تحويه من فكاهة وسخرية ـ فإنها تنقل انعكاسا حزينا وجادا بالحياة. وهذا واضح جدا فى قصائد هاتين المجموعتين:

- إيدانر وقصائد أخرى ١٩٦٧ "Idanre and other Poems".
- قصائد من السجن ١٩٦٩ "Poems from prison".

(لقد سجن سوينكا من ١٩٦٧ حتى ١٩٦٩ بسبب معارضته للحرب ضد بيافرا، وكان رافضا للانفصال وللحرب على السواء، وفى ديسمبر ١٩٦٨، فاز ـ وهو فى السجن ـ بجائزة "جوك كامبل" للآداب فى الكومنولث التى تنظمها جريدة "نيوستيتسمان").

سوينكا والمسرح:

وسوينكا هو رجل مسرح من الدرجة الأولى. إنه أحد العباقرة الكبار فى المسرح المعاصر وإنتاجه غزير ومتنوع، يضم الفارس والتراجيديا والحكايات الرومانسية، جنبا إلى جنب مع المسرحيات الواقعية. وهذه الأعمال موضوعة فى نطاق خلفية اجتماعية وسياسية موصوفة وصفا حيا: هذه الخلفية هى نيجيريا حديثة الاستقلال؛ حيث الفساد السياسى والأخلاقى فى المدينة، وفى الريف حياة متخلفة فقيرة مليئة بالخرافات.

بوصفه كاتبًا مسرحيًا، تأثر سوينكا تأثرًا عميقًا بتقاليد مسرح اليوروبا الشعبى ومسرحياته الفلكورية، كما فى مسرحية "الطريق" The Road و"حصاد كونجى" "Kongi's Harvest" وكذلك "الموت وفارس الملك" Death and the King's Horeseman، إذ يظهر التأثير واضحا تماما فى استخدامه للغة الشعرية المليئة بالصور والإشارات الطقسية والعادات.

وهذا التأثير يعكس عقائد وطقوسا وتجارب، ويثير فى المتفرج تخيلات وعواطف قوية ويفتح أمامه جو الفنتازيا على مصاريعه، كذلك يظهر هذا التأثير فى استخدام الموسيقى والرقصات الشهيرة جدا فى أوبرات اليوروبا الشعبية فى مسرحياته، وخاصة فى مسرحية "رقصة الغابات" التى مثلت لأول مرة فى أكتوبر ١٩٦٠ فى احتفالات نيجيريا بعيد الاستقلال.

لقد وجد سوينكا نفسه منذ اللحظة الأولى فى مواجهة قوى الديكتاتورية العسكرية وأعوان الاستعمار والتخلف العقلى، لكنه لم يتراجع أو يتوان، فقد وقف فى وجه الأصوات الداعية لحرب بيافرا وحاول منع هذه الحرب، فقبض عليه ووضع فى السجن لمدة عامين محروما من الكتب، ومن جميع وسائل الكتابة ومحروما من الأصدقاء، بل ووضعوه فى حبس انفرادى لمدة عام، أى جربوا معه كما يقول كل الوسائل من أجل تدميره عقليًا.

فقد ترك نيجيريا سنة ١٩٩٤ فى أعقاب الانتخابات التى جرت فى ١٩٩٣ لوضع نهاية للحكم العسكرى، ونجح فيها زعيم المعارضة

مسعود أبيولا، إلا أن الديكتاتور سانى أباتشا رفض تسليم السلطة للمدنيين وقبض على مسعود أبيولا ووضعه فى السجن - رغم مرضه - حتى مات، وفى الوقت نفسه صادر جواز سفر سوينكا، وأخذ ينكل بالمعارضين من كل الفئات، ونجا سوينكا بمعجزة من مصير زميله الشاعر والمناضل كين سيراويوا، الذى أعدمه النظام العسكرى مع ثمانية من رفاقه.

- عاد سوينكا قبيل الانتخابات بأيام فى أكتوبر ١٩٩٨ بعد أربع سنوات قضاها فى المنفى. وتذكر الصحف أنه استقبل استقبالا حافلا، ورأى الشعب فى عودته أملا فى إعادة الحكم المدنى. وقد علق رئيس اتحاد كتّاب نيجيريا على عودة سوينكا بقوله "نحن فى حاجة ماسة إلى وضوح فكره. إنه أحد الرجال القلائل الذين يستطيعون حفز همة المجتمع على السير فى الطريق الصحيح".

وتحدثت الصحف أن كثيرين من أنصار الديمقراطية قد غضوا الطرف عما حدث فى الانتخابات من غش وفساد، خوفا من حدوث أى اضطرابات تحول دون عودة الحكم المدنى، إلا أن سوينكا رفض هذا الهراء وتحدث فى أبوجا عاصمة نيجيريا، فوصف الانتخابات بأنها كانت بمثابة مزاد "نجح فيه من يملكون سيولة مالية قوية، والمسنودون من العسكر، ومن لديه ميول طبيعية لممارسة الدعارة السياسية. وأن الخاسر الوحيد هو الديمقراطية" (B.B News 16/10/1998).

إنه شخصية عجيبة لا تعرف المهادنة ولا تلوين الأقوال حتى فى أحرج اللحظات. فما سر هذه القوة والصلابة؟ هل هى مجرد عناد ورغبة فى المخالفة من أجل الظهور؟ أم هى نزعة انتحارية تغريه بالاندفاع فى وجه الزوابع والأعاصير؟ وإذا لم يكن كذلك فما المنابع الروحية والعقلية التى تجعله يقف إلى جانب الحق بهذه الدرجة من الثبات الذى لا يتزعزع؟

ربما نعثر على إجابة هذه الأسئلة أو بعضها لو رجعنا إلى حديثه المهم فى جامعة بيركلى، إذ سئل سوينكا عن العلاقة بين الحقيقة والسلطة فأجاب:

بأن "الحقيقة والسلطة نقيضان أو خصمان يصعب حل التناقض بينهما". وفى تعريفه لتاريخ المجتمع البشرى قال: "إن تطور المجتمع البشرى أشبه بمباراة بين السلطة وبين الحرية. وسواء سارت هذه المباراة فى مسارات أيديولوجية أو دينية، فما نجده فى الواقع هو أن الحقيقة فى تناقض مع السلطة. **Truth Versus Power**. الحقيقة بالنسبة إلىّ هى الحرية، هى وجهة ذاتية **Self - destination**. أما السلطة فهى هيمنة، وتحكم، ومن ثم فهى صورة انتقائية من صور الحقيقة أى أكذوبة. وإن الجمع بين هاتين الصورتين بالنسبة لى هو محور الكفاح الإنسانى من أجل خلق مجتمع أخلاقى، أى مشاركة أخلاقية".

هذا عن الجانب الفلسفى فى رؤيته السياسية، أما ارتباطه بالناس ونشاطه فى مجال الدفاع عن حقوق الإنسان؛ فربما نجد أسبابه فى هذه

الواقعة التى حكاها فى كتابه "الرجل مات – مذكرات سجين" وذكر فيها أن البوليس قد وضع فى زنزانته سيدة شابة بطريق الخطأ وتركوها معه، وحين سئل عن هذه الواقعة قال:

"نعم، حدث هذا قبل وضعى فى السجن رسميا. كنت لا أزال رهن التحقيق، لذلك وضعونى فى زنزانة ثم ألقوا بها فى هذه الزنزانة. فى البداية كانت متوجسة جدا، ربما ظنت أننى وُضعت لأتجسس عليها، فلم تكن تتوقع أن تجد أحدا فى الحجرة. لم تكن تعلم أننى مازلت رهن التحقيق. وفجأة نظرت إلى أسفل، فرأت أننى مقيد فى الأصفاد؛ لذلك تحركت لأول مرة ببطء لتنظر إلى وجهى، وتتعرف علىّ. كانت لحظة غامرة ومؤثرة، لأنها ارتمت عند قدمى وأخذت تبكى وتصرخ. ذكرتنى بإحدى الوقائع التى حدثت مع المسيح، المرأة التى غسلت قدميه بدموعها. كان الوضع مخيفا فى إحدى نواحيه. ثم صار مصدر قوة، لأننى مضطر الآن لمواساتها وتهدئة خاطرها وإعادة الثقة إليها. وتقوّيت أنا بدورى وأصبحت قويا جدا من أجلها، ومن أجل كل شخص يوضع فى مثل موقفها. ثم صرت أشد صلابة بقوتى الذاتية. إنها بذلك قد فعلت بى خيراً، إلى درجة لا يمكن أن تكون قد خطرت لها فى ذلك اليوم".

ثم سئل سوينكا عن استئناف دوره بوصفه محرضا سياسيا بعد فترة السجن، وعن تصاعد هذا الدور وهو ما يتضح فى كتابه الذى نشر مؤخرا بعنوان "قرح القارة الملتهب Th Open Sore OF a Continent" الذى يدور حول الطغيان السياسى فى نيجيريا، وعن الأسباب التى تبرر

سيطرة الجنرال أباتشا على الحكم، وما تأثير هذه السيطرة على فكرة نيجيريا المتحدة؟.

وأجاب سوينكا بأن هذا ليس صحيحا، وقال "الأصح أن الوضع فى نيجيريا قد تدهور بدرجة فرضت علىّ أن أُصعد نشاطى بدرجة موازية. لم يكن هناك أحب إلى نفسى بعد خروجى من السجن من أن أقول لنفسى، وأعتقد أننى قلت، إذا كان هذا ما يريده الشعب...، تذكر أنه كانت هناك ديكتاتورية عسكرية وقت خروجى من السجن، كانت نيجيريا تحت حكم الجنرال جوون. وهذه هى المرة الأولى التى أذهب فيها إلى المنفى باختيارى، لكى أبتعد بنفسى عن محيط البشر الذين عجزوا عن فهم واستيعاب مغزى الحرب الأهلية، ديمومتها وعواقبها فى المستقبل. بتعبير آخر، كل شخص كان لديه إحساس بالسعادة، فقد انتهت الحرب، وبقيت الدولة متحدة، صارت الوحدة فضيلة. أما المساوئ والتصرفات الشاذة والتناقضات التى أدت إلى الحرب الأهلية بالدرجة الأولى، فلم يعد لها وجود.

فى الوقت نفسه كان هناك رواج بترولى. لقد توقع الناس أن تصاب نيجيريا بالفقر نتيجة الحرب، ولكن حدث العكس، فالمال موجود. لقد رأيت المجتمع كله المحيط بى، وشعرت أن المشكلة ليست فى أن أكون صوتا صارخا فى البرية، بل إنه مجرد إحساس بالعزلة. لم أهتم حتى بالصراخ فى البرية. فقد عرفت فورا أن هناك شيئا ما خطأ ينخر فى الأعماق، إن القاعدة التى تقف عليها الأمة قد تآكلت وأوشكت على الانهيار.

ولذلك ذهبت إلى منفى اختيارى، لأننى رأيت أننى لو قلت شيئـًا، أو كتبت شيئًا فى ذلك الحين، لكان قد بدا شيئًا غريبًا، أوه، هذا الشخص الحاقد الخارج من السجن لا يريد أن يرى شيئا جميلا، لا يريد أن يرى الرخاء، يريد فقط أن يسىء إلى النظام. كان مستحيلا على أن أتكلم. وأحسست بنوع من الراحة "فهذا هو الحال الذى يريد المجتمع أن يكون عليه، أما أنا فذاهب لكى أكتب شيئًا ولكى أسترد عقلى".

لكننى لم أكن وحيداً، فقد وجدت، عندما ذهبت، أن هناك آخرين أحسوا الإحساس نفسه، وسوف نلتقى. سوف يأتون إلىّ ويبحثون عنى. وسوف نتكلم عن المستقبل. إنهم يعانون الإحباط واليأس بدرجة حادة مثلى. وبالطبع عندما انكشف الواقع، اتضح لنا أن هذا الديكتاتور (جوون) لا يريد أن يرحل، وأنه مشغول حقيقة بتحويل نفسه إلى رئيس مدى الحياة، وهو يقوم فعلا بتبديد موارد الدولة. عندئذ بدأت العودة تدريجيا، إلى أن عدت من المنفى وانشغلت بشئون الوطن. لم يستمر الطلاق أكثر من ستة أشهر. ثم سارت الأمور من سيئ إلى أسوأ حقيقة فى نيجيريا. وهكذا أصبحت بطبيعة الأمور مشاركا".

وعن موقف الدول الأجنبية وبالأخص أمريكا والسوق الأوروبية المشتركة من النظم الديكتاتورية فى أفريقيا. كان رده أن الدول الصناعية تفضل التعامل مع "الرجل القوى"، أى أنهم يريدون فردا واحدا يمكنه تنفيذ إرادتهم الاستعمارية فى كل أنحاء القارة. إن مكالمة مع موبوتو سيسى سيكو كانت كافية للحصول على عقد ببليونى دولار

دون الرجوع إلى لجان فحص أو موافقة. حدث هذا مع الغرب وكذلك مع الاتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية.

ورغم أنهم بدأوا يتفهمون أن أضمن سبيل هو التعامل مع حكومات مسئولة قائمة على المشاركة الديمقراطية، فإن هذا لا يزال على المستوى النظرى، ولم يتحول إلى أسلوب عمل بعد، وهم يفضلون جدا التعامل مع "الرجل القوى" محتجين بأن هذا أمر مؤقت ويقولون: "إننا نتحرك نحو الديمقراطية ولكن لا تدعنا نتحرك بسرعة أكبر".

وفى الوقت نفسه يستمر التعذيب الوحشى، وتجرى تصفية المئات فلا يبالون بذلك رغم وجود تقارير السفارات وجماعات حقوق الإنسان ووكالات الأمم المتحدة، ولذلك فإنهم يلعبون على الوجهين. وهذا الكلام يأخذنا إلى أحدث كتبه "عبء الذاكرة، إلهة الغفران" الذى يناقش فيه مسئولية الدول الاستعمارية عما تعانيه أفريقيا من مشاكل، فيطرح سؤالا مهما: هل الغرب مدين لأصحاب الأصول الأفريقية بتعويضات عن سوء المعاملة لعدة قرون؟

فى المقالة الأولى: "التعويضات، الحقيقة والمصالحة" يعرض القضية بجسارة. وبينما هو يتابع مرافعات لجنة (الحقيقة والمصالحة) بجنوب أفريقيا، لاحظ وجود مشكلة فى طريقة التحقيق تتيح للمدافعين أن يواجهوا الاستجواب وكأنهم غير مجرمين، ويستحقون العفو عن الجرائم الوحشية التى ارتكبوها بحق الأفريقيين السود.

ويعارض سوينكا بعناد قائلاً "إنه لا يمكن خدمة العدالة بإطلاق سراح المذنب دون دليل لتخفيف الذنب... أو التعبير عن الندم".

إن غضبه من غياب العنصر الأخلاقي في هذه العملية دفعه لأن يتكهن بغياب ملازم للعنصر المادى. ويبنى سوينكا قضيته فى طلب التعويضات على حجة أنه دون دفع تعويض مادى عن الجرائم التى ارتكبت ضد الشعب الأفريقى، فإن مشاعرالاستياء والكراهية التى غرستها الأفعال الأصلية، سوف تستمر فى الاشتعال. فالظلم الذى يتمثل فى الأعمال الوحشية التى تمس كرامة الإنسان لابد من التكفير عنه، حتى يتخلص الضحايا من أشباح الماضى.

فالتعويضات سوف تقدم نقدا مقنعا للتاريخ، كما تقدم قيدا فعالا يمنع تكرار هذه المظالم فى المستقبل. وسوينكا يصرح بأن هناك مشاكل تحيط بهذه المسألة عن قيمة المبالغ المطلوبة، ولم يتم الدفع. وقد خاطب المسئولين فى البنك الدولى، واقترح عليهم أن تقوم الدول التى استعبدت الأفريقيين بتمويل ديون الدول الأفريقية، وبهذا يمكن للشعب الأفريقى أن يطهر جروحه وينسى مظالم الماضى، لكن المسئولين لم يتحركوا وسرعان ما أدرك سوينكا الطبيعة غير العملية لاقتراحه. وهنا يقدم أدلة وشواهد حديثة لمسألة دفع التعويضات ويتساءل مندهشا:

"لماذا يُترك الأفريقيون فى" حمى هذا التفكير "دون تعويض؟"

من هذه الشواهد عملية إعادة تأهيل ضحايا اصطياد السحرة بمدينة ساليم ١٦٩٢، واعتذار اليابان وتخصيصها ميزانية تعويضات

للنساء الكوريات اللاتى أُرغمن على ممارسة الدعارة أثناء الحرب العالمية الثانية، واعتراف الحكومة الإسبانية بخطأ قرار طرد اليهود سنة ١٤٩٢. لكن يبدو هذا غير مقنع بالمقارنة بالمشكلة الضخمة والمعقدة الخاصة بكيفية تعويض قارة وأبنائها المشتتين فى الخارج. وفى النهاية يتضح لنا أن مهمة صياغة استراتيجية للتعويضات تقع خارج نطاق هذه المقالة المفردة.

"ليوبولد سيدار سنجور والزنوجة وآلهة العدل" مقالان يشغلان بقية الكتاب؛ حيث نجد سوينكا يستكشف الدافع الفلسفى الذى يدفع هؤلاء الأفريقيين إلى البحث عن نهاية سابقة لأوانها، عن طريق الغفران المجانى لمن اضطهدوهم واستغلوهم. ويجد سوينكا المعادل الموضوعى للجنة الحقيقة والمصالحة فى حياة وأعمال شاعر الزنوجة العظيم ليوبولد سنجور رئيس جمهورية السنغال الأسبق.

ومصطلح الزنوجة صاغه لأول مرة إيمى سيزار شاعر جزر المارتينيك؛ استجابة فرانكفونية لهؤلاء الشعراء الأمريكيين السود مثل لانجستون هوجز وكونتى كولين وجيمس ويلدين جونسون، وقد ادعت هذه الحركة أن الثقافة تتحدد بصفتها العنصرية، إن ثقافة الشعوب الأفريقية ليست شيئًا يدعو للخجل، بل هى ثقافة يحق الاحتفاء بها. وهذا لم يكن يعنى رفضا للثقافة الفرنسية، وأبعد من ذلك أن سنجور الذى أصبح أول أفريقى فى الأكاديمية الفرنسية، قد استبدل أخيرا حبه كله للزنوجة بتبعية عبر عنها بقوة لما يسميه هو Metissage؛ أى التهجين

أو التخصيب الثقافى وفيها أن الثقافة الفرنسية تمثل إلهة الحضارة الإنسانية.

هؤلاء الكتّاب الذين استوعبتهم الفرانكفونية يدهشون سوينكا، لأنه يرى فيهم أسلافا لهذه الرغبة التى تسعى لإسقاط عبء الذاكرة واحتضان آلهة الغفران. والتى تشوه وجه أفريقيا والأفريقيين فى نظره. يقول كارليك فيليب فى عرضه لهذا الكتاب:

"حين يحمل سوينكا ما هو أدبى إلى السياسة، ويستكشف الأسباب التى لم تسمح للزنوجة بأن تصمد فى عالم المتكلمين بالإنجليزية، نجده موحيا وأصيلا. فهو يتأمل الأسلوب الذى من خلاله كانت أفريقيا تتراءى لمن يعيشون فى الشتات، إما إنها "ماض مستمر" Past continus أو حنين جارف للماضى Nostalgic past "من حيث إن ذلك يعتمد على المكان الذى ينظر منه الإنسان إلى القارة أكان فى أمريكا أو فى الكاريبى".

ثم يعلق على الكتاب بقوله:

إن تحليل سوينكا لمشكلة القرن العشرين المتعلقة بالذاكرة والغفران فى عالم الأفريقيين، هو تحليل على درجة كبيرة من الأهمية، وقد جاء فى وقته؛ فأفريقيا لا تستطيع أن تتحمل تموين الغرب وإمداده بالمواد لقرن آخر من الزمان، وهى عاجزة فى الوقت نفسه عن تنظيم ما يسمى بقيادتها. ولا يمكنها أن تستغنى عن قرن آخر تنزلق فيه من "حقيقة" معترف بها إلى "مصالحة" مريحة، ودون أن تتبنى أسلوبا صارما لاختبار الذات وموقفا أشد قوة فى مواجهة سادتها من المستعمرين السابقين.

ثم يختتم الكاتب كلامه بأن تحليل سوينكا لهذه المشكلة هو مبادرة بإطلاق القذائف، وسوف يكون هذا بالتأكيد هو إحدى مناظرات القرن الحادى والعشرين.

هذه ليست المرة الأولى التى ينتقد فيها سوينكا دعوة الزنوجة، فقد هاجم الزنوجة فى مؤتمر كمبالا ١٩٦٢ للفنون الأفريقية وقال "إن النمر لا يقف فى الغابة؛ لكى يقول أنا نمر" وقد أوضح ذلك فيما بعد بقوله:

"التمييز الذى كنت أقصده فى ذلك المؤتمر كان تمييزاً أدبيًا خالصاً. كنت أحاول التمييز بين الدعاية والإبداع الشعرى الحقيقى. بتعبير آخر، كنت أقول، إن ما يتوقعه الإنسان من الشعر هو قيمة شعرية جوهرية، وليس مجرد تسمية". ثم عاد ينتقدها فى كتاب آخر. فما حقيقة الزنوجة؟ وما سر صدامه معها؟ وكيف تتعادل الزنوجة مع لجنة الحقيقة والغفران فى جنوب أفريقيا، التى تحاول تبرئة البيض من جرائم الحكم العنصرى؟

إن مصطلح الزنوجة تمت صياغته لأول مرة فى أوائل الثلاثينيات عن طريق إيمى سيزار شاعر المارتينيك، الذى يعتبر مصدر الإلهام الأكبر لهذه الحركة الشعرية بين الأفريقيين الناطقين بالفرنسية، ثم انضم إليه ليون داماس من غينيا الفرنسية، وليوبولد سنجور من السنغال.

وقد اقتنع دعاة هذه المدرسة بأن هناك فروقا فعلية بين البيض وبين السود فى القدرة على الإدراك، أى الفهم الأساسى للواقع، وأن

الأدب الجديد الذى سوف يعبر عنهم، سوف يجدون أصوله فيما يظنون أنه الحساسية الزنجية "الخاصة"؛ أى الإحساس بالإيقاع، والأسطورة، والطبيعة، والحياة الجنسية والعاطفية وتضامن الجماعة. فأخذوا يمجدون ماضى أفريقيا، ويحنون إلى صور الجمال والانسجام فى المجتمع الأفريقى التقليدى والتى تقوم فى رأيهم على العواطف السوداء وعلى المعرفة الفطرية **Intuition** بوصفها نقيضا للعقل والمنطق الهلينى.

وقد تعرض بعض السود لانتقاد هذه الدعوة على أساس أنها قائمة على اعتقاد غير أكيد بالنسبة لجوهر الثقافة السوداء، ولأن دعاة هذه المدرسة أغفلوا أمر الواقع السياسى المعاصر. وكان أهم هؤلاء النقاد هو المفكر السياسى فرانز فانون.

وظنى أن نقطة الصدام بين سوينكا وبين أصحاب هذه المدرسة، تكمن فى إيمانهم بأن ثمة فروقا طبيعية بين البيض والسود فى الفهم والإدراك، مثل قولهم: إن الثقافة الأفريقية تقوم على العواطف السوداء وعلى المعرفة الفطرية، أو على الحدس بوصفه نقيضا للعقل والمنطق الهلينى. هذه المقولة تتطابق تقريبا مع ما كان يردده العنصريون من أن البيض يملكون العقل التحليلى والمنطق الفلسفى، ولهم القدرة على التفوق فى العلوم وفى الفنون، وبهذا يبررون تسلطهم واستغلالهم للأفريقيين.

وهذه المقولة هى التى حاول سوينكا أن يدحضها فى محاضرته التى ألقاها بمناسبة حصوله على جائزة نوبل، إذ خصص المحاضرة كلها للحديث عن السياسة العنصرية الوحشية وقال: إن البيض لم

ينظروا قط للسود على أنهم بشر وعاملوهم على أساس أنهم حيوانات. ورفض مقولة إن الأفريقيين عاجزون عن التفكير والبناء. وقال إن نظام جنوب أفريقيا التعليمى لو تخلى عن العنصرية وسمح بتعليم الأفريقيين لبرز منهم مئات العلماء والمفكرين الذين يستحقون جائزة نوبل؛ أى أنه اتخذ من حصوله على الجائزة دليلا على قدرة الأفريقيين على التفوق فى مناحى الحياة، وطالب بإنهاء كل مظاهر هذه السياسة والعمل من أجل إقامة مجتمع ديمقراطى، لا تفرقة فيه بين البشر بسبب اللون أو الجنس أو الدين. وهذه مسألة ضرورية لخدمة التنمية والسلام العالمى.

كانت محاضراته مليئة بأدلة الإدانة للأوروبيين، من حوادث أو شهادات واعترافات لبعض المفكرين وزعماء الأحزاب، حتى الاشتراكيين منهم، وذلك عن احتقارهم للسو، وكأنه كان يصر على طلب الاعتذار ورد الاعتبار للأفريقيين. هذا هو مضمون محاضرته، مما يؤكد وعيه بمشاكل القارة وإصراره على المطالبة بحقوق هؤلاء المظلومين، ومن ثم كان موقفه المخاصم للزنوجة.

غير المعترف به

بين سطور كتاب "الدين البدائى" لمؤلفه بول راوين، وبين سطور قصيدتى "إدانر" شذرات من مسرحياتى ومن قصائدى وكذلك رواية، وأجزاء من مذكرات سجين، التى تشكل مادة هذا الكتاب. وهناك ستة كتب أخرى أخفيت وجه الكتابة فيها مع كتاباتى، خشية أن تقدم مفتاحا يقود إلى إعادة بناء الملابسات المحددة باتهام بعض الضباط الأبرياء. وأنا لا أستطيع حتى أن أذكر عناوين هذه الكتب، وأقل من ذلك لا أستطيع أن أشير إلى فترات سجنى التى هربت فيها هذه الكتب إلى داخل السجن. فبعد متعة القراءة التى لا توصف مضيت فى تغطية المسافات بين سطورها بكتاباتى.

لقد كانت هذه الكتب بين كثير أرسل إلى أثناء وجودى فى السجن من مصادر عديدة. فى البداية كانت الكتب ترد سريعًا . (اقرأ الخطاب المنشور فى الهامش) بعد ذلك كانت الكتب تترك فى مكاتب السجن بلاجوس وكادونا، ليتراكم عليها التراب والعنكبوت. لقد كانت الكتب، بل وكل أشكال الكتابة تمثل على الدوام هاجسًا مرعبًا

لهؤلاء الذين يسعون لطمس الحقيقة. لكن برغم اتخاذ أشد الإجراءات الأمنية التى اتخذت ضد أى سجين فى تاريخ السجون النيجيرية، وهى إجراءات تم اتخاذها بقصد احتواء عقلى وتدميره، رغم هذا كله، فإن الاتصالات لم تنقطع، بل استمرت. لكن بصرف النظر عن درجة مكر هذا السجين، وسعة حيلته - وتعريف طبيعة السجين بأن فيه مكر الحيوان، فإن فعل الشجاعة الإنسانية الذى قام به بعض الاستثناءات من حراس السجن، كان له الدور الرئيسى فى بقائه على قيد الحياة. لا يمكننى حتى الآن أن أرد هذا الدين باعتراف علنى، حتى فى فترة السنتين التى كنت فيها حر، لم أجرؤ على الاتصال بأحد من هؤلاء، لعلمى أن أكبر أجهزة الأمن المنتشرة فى كل أنحاء القارة لم تزل مهتمة اهتماماً شديداً بمعرفة كل اتصالاتى. فلكل هؤلاء جميعا أقول: صبراً... ففى استمرار الجهود لهزيمة هذا الشر وتدميره تدميراً كاملاً سوف تتم تسوية هذا الدين.

وول سوينكا

هـامش :

حضرة السيد...

بخصوص وول سوينكا: المعتقل مدنياً.

"لقد تم توجيهى لكى أشير إلى خطابكم المرسل فى ٢٤ يناير ١٩٦٨، وأن أخـبـركم مع الأسـف الشـديد أن المراسـلة مع الاسم المذكـور عـاليه ممنـوعة.

لذلك فـإنى أعـيد الخطاب ومـعـه كـتـاب بنجـوين "أربع حـقـائق إغـريقيـة".

توقيع

إ. أ. أجونى

إلى مدير السجن

الفصل الأول

خطاب إلى الوطنيين:

يدفعنى إلى الكتابة الآن موضوعان ماثلان أمامى على الطاولة: أحدهما العدد الأخير من مجلة ترانزيشان التى قدر لها أن تبعث ثانية فى مدينة أكرا، والثانى هو برقية جاءتنى من الوطن، تحمل رسالة غاية فى البساطة تقول: الرجل مات.

مع ذلك فإن الحافز الأول هو خطاب من أحد ضحايا الفاشية الإغريقية الحالية، الذى أحدث لى صدمة اعتراضية. هى دائما صدمة أن تقابل تجارب منسوخة نسخا من تجارب إنسان آخر، خصوصا تلك التجارب التى تنتج أحاسيس، وأفكارا، وردود أفعال، بل وتعبيرات متطابقة تقريبا عند الإنسان الآخر، لأن الأحاسيس التى نشعر بها شعورا حميما تكون مخيفة إلى حد ما. وهذا مانعرفه بالطبع. الواقع إنه اقتناع كلى لا يقبل التجزئة يؤكد بقاء المحنة، يتسلح باستمرار بمعرفة الأسلاف فى هذه الدائرة التى تحافظ على بقاء سجين فى أحلك لحظات حياته، وحين يستعيد حريته، يظل يلح عليه شعور بأن عليه عهدا وواجبا لكل ضحايا السلطة السادية فى داخل وطنه وخارجه.

كاتب هذا الخطاب أستاذ فى بلاد اليونان، هو جورج مانجاكيس، وهو الآن أسير الديكتاتورية الفاشية. (كان خارج السجن وقت الكتابة) وأنا أقتبس الآن بعض فقرات من خطابه لتدعيم بعض الحقائق البسيطة عن حياة السجين المزعزعة فى عزلة. يبدو لى أن مثل هذه الشهادات ينبغى أن تكون نوعا من سلسلة خطابات، تعلق دوما على ضمائر العالم الضبابى. فى سبيل هزيمة، واقتلاع أى مفاهيم أو ادعاءات بوجود قاعدة لتخفيف وطأة جرائم التعذيب التى تمارس على العقل الإنسانى، فلابد من الاستيعاب الكامل للمدى الذى بلغه هذا التنكيل غير الطبيعى. بعد هذا، لا يمكن تقديم التماسات ولا مجادلات. كل فرد سوف يقوم بإجراء بسيط فقط للاختيار - هل أقول نعم أم لا لهذا؟

كتب السجين اليونانى:

من بين أشياء كثيرة لوجودى فى السجن كان الشعور العميق بالرغبة فى التواصل مع إخوتنا فى الإنسانية. إنها حاجة تؤدى أحيانا إلى اختناق الإنسان. فالدفاع عن النفس، هو الحافز الذى يدفعنى للكتابة. ذلك هو الذى مكننى من الاحتفاظ بعقلى تحت السيطرة. فلو تركته طليقا، دون سند من إطار الفكرة المكتوبة، فإنه يتوحش، وقد يتخذ مسارات فرعية شريرة، وينتهى به الحال إلى أن يلد وحوشا.

.... نحن نحتاج إلى عقل شخص آخر، لكى نستمر فى العمل بالاتفاق مع عقلنا. كذلك فإننا نحتاج إلى لحظات خالية من التفكير.

إننى شاهد على المسارات الفرعية الشريرة والغريبة للعقل البشرى، الناتجة من احتجازه فى سجن انفرادى. شاهد على الوحوش الغريبة التى يلدها. من المؤكد أن كل السجانين وحراس السجون يعرفونها. إنهم يخلقون تلك الظروف خصوصا، من أجل تلك العقول التى يخشون وجودها. ثم ينتظرون خفية حتى يحدث الانفجار. من الضرورى أن نتذكر دائما أننا نعرف فقط الذين نجوا من هذا الممر المعادى للإنسان وبقوا على قيد الحياة.

لقد أخذ هذا الكتاب أشكالا كثيرة. منها مسألة ما الذى يجب أن يحتويه. وما الذى يجب تأجيله، ما الذى يجب أن نمحوه كليا، هذا كله كان خاضعا لمشاكل الملاءمة لقدرتى المستمرة على التأثير فى الأحداث داخل بلدى، وفى تحقيق التغييرات الثورية، التى أصبحت مكرسا لها أكثر من أى وقت مضى. وكذلك اعتبارات سلامتى الشخصية، وعدم الرغبة فى فك آخرالقيود، عن نظام يجبره إحساسه بالذنب على البقاء بالقوة فى سلطة فاقدة للمصداقية. كل ذلك أدى إلى تغيير الفورما، والعنوان، بل وفكرة هذا الكتاب اثنتى عشرة مرةعلى الأقل. ففى الأسبوع الماضى فقط شطرته إلى قسمين. ليبقى أحدهما مؤجلا، كسيف ديموكلين، منتظرا اللحظة الملائمة تماما للقصاص السياسى. وهذا الصباح كان العنوان لايزال" إعدام بطىء دون محاكمة" وفى وقت من هذا الصباح وصلنى العنوان الآخر فى برقية تحمل الكلمات البسيطة التالية: الرجل مات.

في البداية صدمتني صياغة الكلمات، أعطتني رنينا غريبا ثم رنينا مألوفا، وتكمن ألفتها في أنها نهاية حكاية أخلاقية، كلبية - "إنه ذلك الكلب الذي مات" نطق جذاب إنسانيا، عيون الجراح فوق الكمامة، أو مفاجأة شيطان التعذيب هو الذي أساء تقدير قوته. فقد سمعت هذه النغمة في أصوات من الماضي، وأصوات من المستقبل. ويبدو لي حقيقة أن هذا هو الشرط الاجتماعي للطغيان. الرجل مات. كلب مات. الموضوع مات.

يموت الإنسان داخل كل قلب يقف صاحبه صامتا في وجه الطغيان.

الكلب في هذه الميتة القريبة كان صحفيًا، اسمه "سيجن سويميمو". تم ضربه بوحشية، هو وزملاء آخرون، بواسطة بعض العسكر، وذلك بناء على أوامر الحاكم العسكري للغرب، والسبب؟ هفوة خيالية. لكنه كان محظوظا في البداية على الأقل، إذ حصل على مساعدة من الاتحاد الخاص بمهنته، وحين ساءت حالته الصحية، أجبر الحاكم على حساب الولاية، على حسابنا، أنت، وأنا، وليست نتيجة لتكليف هذا الحاكم بدفعها عقابا له. أجبر أن يرسله للعلاج في لندن. ولكن الغرغرينة بدأت تشتد في الساق المصابة وأدت إلى بترها.

لقد تابعت حالته باهتمام، وبحثت عن مستر سويميمو في لندن فوجدت أنه سافر عائدا إلى نيجيريا. بعثت كلمة إلى أحد الزملاء طالبا منه متابعة حالته وموافاتي بأخباره. وجاءت إجابته في البرقية الموجودة بجانبي في هذه اللحظة: الرجل مات.

فى هذا المساء فقط تعــرفت على العنــوان الوحيد لهذا الكتاب. لقد أدركت أيضا أننى تحركت منذ وقت طويل خارج نطاق المصالحة، حتى إن هذا الكتاب الآن، وكذلك تلك الأشياء التى يجب أن تحذف فقط، هى التى يمكن أن تعرض حياة أولئك الذين تعتمد عليهم الثورة الحقيقية فى داخل الوطن. حكمى أنا فقط على هذه الأمورهو المفيد، وخبرتى، التى يدهشنى جدا جدا أنها خبرة فريدة بين الخمسين مليون مواطن فى هذا البلد.

يجب على أن أستشهد بجورج منجاكيس مرة أخرى، وبهذا العمل، فإننى أعترف أنه يعطينا ليس فقط تعبيرًا معاصرًا عن مصيرنا الراهن، بل إنه يقدم فى الوقت نفسه علاجا صحيًا، لأنه ينقذ الكلمات من حالة الانحطاط التى كانت تستخدم فيها بواسطة السجانين، وهو انحطاط سوف يتبين فى هذا القسم من الكتاب، إنه كان يشكل أخطر التحديات أمام بقائى على قيد الحياة، فى أعقاب فنتازيا عن هروبى من السجن نسجها خيال أولئك الذين كانوا يتهيأون لاغتيالى. عندما بدأت الكتابة سرا فى السجن لاحظت كيف أن عقلى كان يدور ويلف، بحثا عن بدائل لإحدى الكلمات المخيفة، متبنيا أقصى طرق المراوغة فى تغيير فقرات كاملة، بل تسلسل كامل للأحداث تجنبا لمفهوم تلك العاطفة المسماة "إذلال". هذه الكلمة "إذلال" حقيقة العاطفة، تفعيلها فى هذه اللحظة مختزن ومعترفٌ به أخيرًا فى سياقه الصحيح، باعتباره الشعورالمبجل الوحيد بالنسبة لأولئك الذين لم يحقنوا قبل ولادتهم بهرمون الخنوع والاستسلام الذليل للعبودية.

لقد كتب جورج مانجاكس يقول:

"عندما تفرض الديكتاتورية على بلدك، فإن أول ماتشعربه، فى اليوم الأول – وهو شعور تلقائى ومباشر تماماً، بعيد عن كل تصورات العقل – هوالشعور بالإذلال. إذ يتم حرمانك من حق اعتبار نفسك جديراً بحمل المسئولية عن حياتك ومصيرك. وهذا الشعور بالإذلال ينمو يوما بعد يوم، بفضل جهود الطغاة التى لا تتوقف عن إجبار عقلك على القبول بكل أشكال السوقية والابتذال، التى تشكل عالم الديكتاتور العقلى، فتشعر أن عقلك ووضعك الإنسانى يتعرضان للإهانة الشديدة فى كل يوم. ثم تأتى محاولة أن يفرض عليك، عن طريق التخويف والترهيب، أمر قبول أفعالهم البربرية المختلفة التى نسمع عنها، والتى تراهم يرتكبونها فعلاً ضد إخوانك فى الإنسانية، فتبدأ تعيش يوميا فى إذلال الخوف، وتبدأ تكره نفسك. حينئذ تحس بجرح عميق فى ضميرك كمواطن؛ فتبدأ الإحساس بالتضامن مع الناس الذين تنتمى إليهم".

إننى أعيش تجربة التضامن مع هؤلاء الناس الذين يشاركوننى الإحساس بالإذلال الذى يمارسه الطغاة على حياتنا. إننى أستبعد تجاهل الآخرين جميعا. فمهما كانت العوامل التى تجعل من إحدى الديكتاتوريات قدراً محتوماً فى المقام الأول، فإن تلك العوامل لم يعد لها وجود الآن. فالديكتاتورية الراهنة هى استيلاء على السلطة يحط بكرامة الإنسان، فهى إذلال إضافى لأنها، فى حدود علمك وعلمى، هذه الديكتاتورية، قد تجاوزت فى غطرستها الوحشية كل الحدود، فى القمع، وفى الفساد المادى، وفى إحداث انقلاب منهجى لكل الأغراض الثورية الأصيلة بأسوأ أعمال

التطرف التى سبقت قيام حكومة المدنيين فى ١٩٦٦. إنه اعتراف مخجل لكنه الحقيقة. إننى أوجه هذا الكتاب إلى الناس الذين أنتمى إليهم، ليس إلى النخبة الجديدة، وليس إلى تلك الطبقة العريضة من العبيد المنتفعين بالامتيازات، الذين يمسحون بلاط القصور التى يسكنها الطغاة الآن. إننى أشهد بحكم خبرتى الشخصية، وبهذا فإننى أتهمهم بجريمة الانتفاع بمصائب الحرب. أنا لا أقصد الانتفاع بالمفاهيم المادية – فتلك الحقيقة معروفة جيداً، ومن السهل استيعابها فى نطاق صدمات المجتمع المادى. هناك، مع ذلك، شكل آخر للانتفاع، إذلال أعظم يبدو واهيا جدا، بحيث لا يقوى على تحدى إرادة شعب أنهكته الحرب، وهذه سلطة تنتفع بالكارثة العامة والتضحية المتبادلة فى الحرب. وأعظم إهانة توجه لذكاء شعب هى أنه، حسب المفارقة الكبرى، إذا كان المنتفعون بهذه السلطة، ليسوا أبرياء تماما من ارتكاب الأفعال الأساسية التى أدت إلى الحرب ذاتها. فإن شهادتى تقول إن درجة الذنب هى فقط التى تبقى موضوعا للجدال، أما حقيقة الذنب فهى واضحة بذاتها يعترف بها المنتفعون بالسلطة حالياً. إن إفراطهم الحالى والصفح المتبادل عن الجريمة فرض على هذا الكتاب أن تكون محتوياته رافضة للمصالحة، لأن أولى الخطوات لإسقاط الإرهاب هو فضح نفاقه الذاتى، فضح صورة البر الذاتى المجللة بالكذب والنفاق.

إنها فقط الخطوة الأولى، ففى حياة أى شعب يخضع بإرادته إلى "إذلال الخوف اليومى" يموت الإنسان. (١٤ ديسمبر ١٩٧١)

إبادان – لاجوس

الفصل الثانى

اعتقالى واحتوائى شيئان مختلفان. أحدهما عجلت به النشاطات التالية:

إدانتى للحرب فى الصحف النيجيرية وزيارتى للجزء الشرقى، ثم محاولتى تجنيد المثقفين داخل نيجيريا وخارجها، لتكوين جماعة من أجل منع توريد الأسلحة لكل أنحاء نيجيريا؛ لخلق قوة ثالثة تستثمر موقف الجمود العسكرى، لرفض وإنهاء انفصال بيافرا، وإيقاف الديكتاتورية العسكرية ومذابح الإبادة الجماعية والتى جعلت كلا من الانفصال والحرب قدراً محتوماً.

لقد تم تقييد نشاطى بوضعى فى السجن، وتم تجميده وأوشكت تصفيتى أن تتم بنجاح بسبب نشاطى داخل السجن. فقد كتبت خطابا شرحت فيه أحدث الأدلة على سياسة المذابح الجماعية لحكومة جوون وهربته من السجن. وكان ذلك كشفا للمذنبين؛ ففكروا فى تسوية خيانتهم بمؤامرة إجرامية.

أوضحت فى البداية أن اعتقالى وتجميدى كانا أمرين مختلفين؛ وهذا ليس صحيحاً. لقد كان صحيحاً فقط حتى وقت اعتقالى،

وحتى وقع ذلك الخطاب عن طريق الخيانة فى أيدى المتهمين. لم يفكر الذين وضعونى فى الحبس إلا قليلا فى مسألة إبقائى خارج دائرة التداول (الإعلامى). مع ذلك، فمن الناحية الجوهرية فإن فعلى العنف والاعتقال ينبعان من نفس المصدر وهو الفساد. الأهم من ذلك، أن الخطاب تم تهريبه من داخل السجن، وكان تصديقاً للموقف السياسى الذى أدى إلى اعتقالى. وأنا اليوم أدرك حقيقة هذا التحدى المباشر والفورى والمتواصل للتأكيد على فساد السلطة عند المنبع. الذى فرض على واجبا بعيد المدى لتوصيل أحدث برهان على الأساس الأخلاقى لموقفنا إلى رفاقى فى الحرية. لقد فرض علينا التزاما بكل الأعمال الملائمة التى تثبت موقفا أخلاقيا مطلقا حتى فى وسط ظروف الحرب. (لأننا الآن، بسبب الغزو الذى تم للقسم الأوسط الغربى أصبحنا نواجه حقيقة أن ذلك صار حربا أهلية أخرى سوف يستمرالقتال فيها إلى ما لا نهاية).

من أجل هذا؛ فمن الملائم أن يكون نص الخطاب مقدمة لهذا الكتاب، لأن موضوعه صناعة الانفصال والحرب، وساهم هذا المستوى الحالى فى تربية الغرائز الوحشية فى شعب تهرع جموعه بمئات الآلاف، نساء وأطفالا، شحاذين أو من أفراد النخبة الفارغة، إلى التنزه على أساس الاعتذارت العلنية للمجرمين الذين ثبت تورطهم والذين لم يثبت تورطهم. إن الموضوع الأعمق للخطاب هو - العدالة - وهو يلخص مناظرة تمت تغطيتها بغلالة رقيقة هى قشرة الدم. هذه القشرة كانت تتآكل يوميا وتزداد رقة نتيجة لأحذية الطغاة التى تدوس عليها باستمرار.

إنه يلخص الفشل الأخلاقى الأكبرفى الأمة. الفشل الذى أدى إلى الانفصال وإلى الحرب. حقيقته ببساطة هى أنه حدث حينذاك، كما يحدث الآن، إذلال للأمة، بسبب خيانة تطورت واستمرت وازدادت حدتها بواسطة قوى تفتقر إلى هدف أو أيديولوجيا مابعد البقاء الذاتى عن طريق الإرهاب المنظم. فكان الفشل فى أن:

"تكتسب وضوح الرؤية التاريخية غير العادية، وأن ترى بوضوح كامل أن الأمم المهانة والمستذلة تنقاد حتما إما إلى تحلل قاتل، أى ذبول أخلاقى وروحى، أو إلى رغبة عارمة فى الانتقام، ينتج عنها سفك الدماء والانقلابات".

لقد استشهدت بمنجاكيس لآخر مرة. الآتى هو نص الخطاب الذى لايزال مخبأ فى الدواليب السرية، عند الوطنيين من حماة هذا الوطن ومنقذيه حتى اليوم.

ديورانس فيل (سبتمبر١٩٦٧)

منذ بضع سنوات مضت، عندما تم إعادة ثلاث جثث لثلاثة من العاملين فى مجال الحقوق المدنية فى أعماق الجنوب الهمجى من أمريكا، أحدهم رجل أسود، نحن، مثل الملايين من الشعب الأسود عبر العالم كله شعرنا باعتقاد مقرف أن الآخرين من البيض (أغنياء)، فاستجمعنا الجهد الضخم لاكتشاف مصيرهم، واضطررنا للقيام بمحاولة عابثة لتقديم قتلتهم إلى العدالة.

لقد دارت العجلة دورة كاملة علينا، دعنى أذكرك بموضوع إمانويل أوجبونا، المصور الذى ينتمى إلى قبيلة الإيبو، الذى تم اختطافه من الاستديو بأودواونا، فى إبادان فى وقت ما من العام الماضى، وتم قتله وإلقاء جثته فى الأحراش على بعد أميال. وتم اتهام جنديين من الفرقة الثالثة هما، أمبروزى أوكبى وجانى بيبان بقتله، وسيق الرجلان إلى المحكمة فى إبادان. أحاول أن أتذكر البطء الغامض فى محاكمة هذين الرجلين والمعوقات المقنعة والمناورات، التى كان يمكن أن تفيد أى محكمة عشائرية حصينة فى جنوب ألاباما. تعجبنا برهة عندما أعلن المدعى العام فى النهاية أنه "بناء على التعليمات" فليس أمامه أى اختيار سوى سحب القضية. وقال إن السلطات العسكرية، قد قررت أن تتولى أمورها بنفسها. كانت هذه هى اللحظة التى يجب فيها أن نتكلم وننشط؛ وكالعادة استقر رأينا على هذا المرهم المسكن للضمائر الخائفة. "انتظر وشوف". بهذه الحادثة ليس فقط محاكم الجزء الغربى، ولكن مظهر القانون والعدالة فى الدولة الفيدرالية كلها تم تحريفه لعقيدة الإبادة الجماعية المبررة.

والآن استمع إلى عاقبة الأمر. فقد عشت لمدة ستة أسابيع فى صحبة حميمة مع ناتجين لما وصفته يوحنا أرنديت (إيخمان فى أورشليم) بتعبيرغريب – تفاهة الشر. وجدت نفسى (لعله القدر كما تسميه) محدد الإقامة هنا– من كل بلوكات الزنازين فى سجون نيجيريا – لأكون جارا ملاصقا لهؤلاء الجنود المتهمين، مجبرا على الاستماع، وعلى الملاحظة،

وأكدت بعيدا عن كل شك، حججى التى أصر عليها حول ماذا حدث للبشر وللأمة، عندما يعلن خفية أن أى جماعة فى هذه الأمة هى خارج حماية القانون، وتعد لعبة نزيهة لأى واحد من المتعصبين ممن لديه أى ضغينة ليقوم بعملية القتل. هذا ليس المكان المناسب لمزيد من الصراحة، خصوصا حول شعور التفاخر والاعتزازالذى يصحب الاعتراف بالذنب كما عبرعنه أحد هذين الرجلين. يكفى أن نقول إنه منذ ثلاثة أيام مضت – يحسن بنا أن نستمر فى تسميتهما متهمين – قد تم إطلاق سراحهما من محبسهما البديل فى حالة انتصار.

سوف يكون هناك وقت لتناول هذه الأمور وأمور أخرى كثيرة مما قد رأيناه يحدث فى هذه الأمة خلال السنوات الماضية، إذا عاد الهدوء يسود مرة أخرى. هناك بعض الأمور التى لاتحتاج، ولا يجب أن تنتظر لحظة أطول. إنه من الضرورى، حتى إذا تمت محاكمة هذه الحرب غير المقدسة، تبقى هناك بقعة تعلن عن نفسها بجسارة بأنها معارضة لعقيدة مذهبية خبيثة ومهلكة، التى يمكن بحكم طبيعة النضال الحالى أن تتدهورإلى حرب إبادة متوطنة. علاوة على ذلك، فإننا لولم نكن قصيرى النظر، ولا نعترف بأى اهتمام زائد بنوع المجتمع الذى يجب أن ينهض على رماد هذا المجتمع، فمن الواضح الآن أنه لابد من وضع الأسس فورا التى يمكنها أن تنقذ كفاحنا من الممارسة العامة للمذابح الوحشية. ومن الأصل وسبب اللعنة الانسانية، لابد من البدء فى مكان ما، لنقم بها نحن فى الغرب. لابد أن نتوقع سوء التفسير المتعمد من هؤلاء القتلة

والاتفاق داخل الإقليم الغربى، مع حلفائهم الملطخة أيديهم بالدماء فى أقاليم أخرى. عاجلا أو آجلا سوف يشعرون بالعار بسبب اتباعهم هذا المثل الواضح: وأنا أقترح:

أولاً: وقبل كل شىء، أن يعلن استقلال القضاء فى الغرب. لا أعرف ماذا يعنى هذا بالنسبة لعلاقتنا مع المحاكم الفيدرالية، ولا أهتم بذلك على وجه الخصوص. أنا أطلب فقط هذه الطريقة أو الأحرى، إن القضاء فى الغرب يضع نفسه فى هذا الموضع، حتى لا يمكن لأى سلطة من الداخل أو الخارج أن تتدخل ثانية فى عمليات التقاضى وتحوله، كما هو الحال اليوم، إلى مشارك بالخطأ فى عقيدة الإبادة الجماعية المبررة.

ثانيًا: ثمة قانون يجب أن يصدر فى الإقليم يعتبر قيام أى رجل بالتحرش، أو التدخل بأى طريقة فى شئون أى شخص آخر لأسباب قبلية، أو ممارسة أى شكل من أشكال التمييز على أساس قبلى، جريمة. (أضف الديانة إلخ، إلخ، إذا أردت أن تجعله قانوننا شاملاً).

دعنى أكرر: إن الذى حدث فى قضية إمانويل أوجبونا هو مثل واحد من ألف مثل لفظائع الإبادة الجماعية الرهيبة، التى وافق عليها قضاة الغرب، بتأييد من بعض القوى والسلطات التى يجب كشف أسمائها، وإدانتها وإجبارها على الوقوف أمام المحاكم فى أحد الأيام، هؤلاء الذين سممت فلسفتهم آمال هذا الوطن فى المستقبل، والتى تدين قطاعا كبيرا من شعبه وتعرضه للقتل والتشويه المدبر سلفا باسم الوحدة. كونوا أمناء واسألوا أنفسكم، ما فائدة "كود السلوك" إذا كان الجيش

يعج بسفاحين معترفين بجرائمهم – ولأن ضحاياهم كانوا من الإيبو – فإنهم يعاملون حتى فى فترة احتجازهم القصيرة كشخصيات مهمة جدا، ويتم السماح لهم بالخروج للتهوية بانتظام تحت قناع "التحقيقات"، حيث يعاملون معاملة محترمة ومتميزة حتى من جانب كبار المسئولين فى إدارة السجن.؟ إن" كود السلوك" ضد وجود الألف، بل العشرة آلاف من هذا النوع المغرور؟ وبين جنود أغلبهم من الأميين؟ أنا أسمى هذا نفاقاً.

ورغبة فى المقارنة، اخترت خبرا من جريدة "النيجيرى الجديد" فى ٣٠ يناير ١٩٦٧:

الحكم على رجل بالإعدام، وسجن ثمانية آخرين بسبب قتل شاب.

لقد حكم بالإعدام على رجل واحد، وعلى ثمانية آخرين من بينهم أحد رجال الشرطة الوطنية، بالسجن لفترات مختلفة تتراوح بين عشر وثلاث سنوات وذلك فى المحكمة العليا بسوكاتو، بسبب قتلهم شابا وتجمهرهم بطريقة غير قانونية فى سوكاتو خلال الاضطرابات. والرجال هم مايلايى (إعدام)، ليبا مامان، وعثمان سوكاتو، عشر سنوات لكل منهما، ألكالى تنجازا، دينيا مامانو وارنو، ألتين وزاجو تم الحكم على كل منهم بخمس سنوات وعلى بالاراب دوجن داجى بثلاث سنوات.

كان عثمان شاويشا فى قوة سكوتو المحلية. وطبقا للادعاء، ففى الفترة من ٢٩ سبتمبر حتى الأول من أكتوبر فى العام الماضى،

قام مايلايي وآخرون بالإغارة على منزل في حي جايا حيث يعيش أحد حراس السجن الحكومي، مستر جوزيف يوشي، من إيجالا.

وقال الادعاء أن ميلايي وعصابته، ظنوا أن يوشي من الإيبو. وعندما لم يجدوه، فإن أخاه الأصغر أوجيبي يوشي كان نائما فضربه مايلايي على رأسه، وقام مايكاوا وهو من حراس السجن بقطع رقبته بسكين. أما الشاويش عثمان، حسب قول المحكمة، لم يقم بأي دورلكن الاعتقاد السائد أنه كان موجودا في المشهد. القاضي مستر جستيس هولدن، أبلغ المحكوم عليهم أنه بإمكانهم أن يستأنفوا الحكم إذا رغبوا. لأن حكم المحكمة العليا غير نهائي.

إن وضع هذه العينة من الأحداث جنبا إلى جنب، حتى بدون التذكير بجو الرعب الواسع الانتشار، الذي أحاط بأكبرعملية همجية شاملة لشعب في ذاكرة القارة السوداء، كفيل بأن يحطم المنافقين المنكرين من أعضاء النظام. إنه يقرر حقيقة واحدة بسيطة. أنه في أقل القليل فإن جهاز العدالة موجود في كل مكان. وبعد مذابح الشمال وانعدام أو منع عملها هو قرار مدبر ومختار من جانب حكومة يعقوب جوون. سواء كان هذا القرار يمثل إرادة الشعب النيجيري أو طرفا آخر، فإن حكومة يعقوب جوون مذنبة بتهمة التآمر لهزيمة إرادة الشعب. أنا أنكرمسئولية الأول (الشعب). وهذا لايترك لي اختيارا غير اتهام يعقوب جوون وحكومته بالخيانة، وبتزييف إرادة الشعب النيجيري.

لكن ربما كان هذا موضوعًا منتهيًا. لعله لم يحدث. ربما خمسون ألفا من النيجيريين لم يذبحوا بوحشية، وأن مليونا ونصف مليون من السكان لم يهجروا من أماكنهم. ربما أن المجزرة لم تحدث، وربما لم يكن لها خطة موضوعة. ولكن للمرة الثانية، ولعل الحرب الأهلية لم تحدث فى أصلها جزئيا، بسبب التخريب المدبر لجهاز العدالة والمساواة، بفعل الانقلابات التاريخية التى استولت على السلطة. وربما وقائع الإبادة الجماعية ليس لها علاقة بانفصال قبيلة الإيبو.

أخيرًا، ربما لايمكن أن تحدث، ولا يمكن التفكير أبدا أنها سوف تحدث، مرة ثانية.

مع ذلك، فإننى أفضل أن أتابع ملاحظتى للنبضات الانسانية. دون أن تعمى عيناى عن الوقائع الفعلية للتاريخ، وهى تسحق بجدولها المتكرر الوحشى هذه الانسانية. إن الكلمات التى قالها دافيد أستور فى الاحتفال السنوى لانتفاضة الجيتو فى وارسو إنما تعبر ببساطة عن هذه الفكرة:

عمليات الإبادة الجماعية فى حد ذاتها ترتبط بعمليات القتل الصغرى... فإذا فهمت العمليات التى تنتج القتل العشوائى فمن المحتمل أكثر أن تفهم بدقة العمليات، التى ترتكز عليها عمليات انحراف الحس الأخلاقى. هذه الدراسة الواسعة يحتمل لها أن تساهم فى إعدادنا وإعداد أطفالنا للانتصار على أعراض هذا المرض فى المستقبل أيا كان الشكل الذى يظهر فيه...

يلزمنا أن نتعلم الكثير عن عمليات الفكر الرهيبة المدمرة التى تجعل الناس يحسون أن أعمالهم ليست فقط مبررة، بل إن لديهم واجبا يفرض عليهم تدمير الآخرين. نحن لانستطيع أن نتكلم عن العوامل التى يمكن أن تحرك هذه العملية الخاصة بسيكولوجية الجماعات. فالشكل التالى منها قد لا يكون عرقيا أو دينيا بل سياسى (كما حدث من قبل فى أوقات الثورة أو الحرب الأهلية...).

أندونيسيا.... أسابا... ماى لاى. باكستان... أسابا!

لكن هذا الكتاب ليس عن الإبادة الجماعية، إنه عن القتل العشوائى الأقل نسبيا فى الأهمية - إلا أنه يشبهه بقدر كبير فى اعتراف رئيس العصابة بالذنب - كل ما يحتاجون إلى قوله حول الموضوع متضمن فعليا فى هذا الجزء من الكتاب. أما باقى الكتاب عبارة عن محادثات مع عدد من الأفراد - من مجتمع إنتاج الضحايا ذاتيا الذين كانوا أو الذين سوف يجدون أنفسهم فى معركة، ليس فقط من أجل فكرة يعتنقونها، بل بطريقة حاسمة من أجل حياة مكتملة. (بقاء مكتمل). إنه ليس كتابا من أجل البقاء، بل السجل الفردى لحياة واحدة. وربما يسهم على الأقل فى إنعاش ضمير العالم عن الوجود الدائم لآلاف من الأرواح التى ترزح تحت حكم سلطة منحرفة يتطلب بقاؤها تشربا ذاتيا للأفعال غير الإنسانية.

الفصل الثالث

عودتى من مدينة إينوجو أعقبتها حملة مطاردة لاصطيادى دبرتها المباحث العسكرية والجيستابو فى لاجوس. أؤكد أننى لم أقع فى يد واحد منهما، لأستسلم أخيرا للاعتقال على يد رجل بوليس عادى لايرتدى الزى الرسمى عند بوابات جامعة (إفى)، بعد اعتقالى دبرت مسألة كبرى لتأجيل تحويلى إلى لاجوس فترة كافية لتنظيم بعض الاحتياطات الأولية. بدأت إحدى المشادات حول جسدى، تمت هندستها بسرعة أذهلت المسئولين فى لاجوس وأغضبتهم. فقد زج فيها باسم الحاكم العسكرى للغرب. تأخر الأمر أربعا وعشرين ساعة، كانت مكسبا ثمينا. لكن فى النهاية بعد كثير من المفاوضات والمكالمات التليفونية، تم الاتفاق على أن يتم ترحيلى إلى لاجوس فى حراسة ضابط بوليس ذى رتبة عالية جدا، لمقابلة جوون. لقد تم الاتفاق بين حاكم الجزء الغربى وبين جوون. سوف نذهب مباشرة إلى ثكنات دودان، وسوف يقوم جوون بتوجيه سؤال أو سؤالين حول نشاطى، وبعدها نعود إلى إبادان فى نفس اليوم.

لقد كنت فى فرع (إى) من قبل، المطاردة مستمرة لجواز سفرى التى خصص لها رجال الأمن ملحق حيازة منذ مناوشاتى الحميدة مع

الحكومات السابقة منذ سنة ١٩٦٢. واستطعنا من وقت إلى آخر من تطويرطريقة ثلاثية سلمية. بإعطاء تنبيه كاف عن نيتى للسفر، فكنت أتعرض، فى مقابل بيان نوايا إلى تفتيش فى المطار ذهابا وإيابا، تفتيش ينزل حتى صرتى، والسماح بهذا الأسلوب المذل فى المضايقة التى كنت أقاومها باستمراركحق أصيل من حقوقى. الحل المؤقت لايصمد دائما. شىء ما فى الزهو المقنع بالسلطة فى وجوه العاملين بفرع (إى) له طريقة فى تربية روح العدوان حتى فى أشد القرارات برودة. الحيل السيكولوجية كانت واضحة حتى فى داخل حجرات مفترض فيها الحياد، حيث كنت أنتظر فيها رؤية الضابط المسئول عن قضيتى. والضباط هناك دائما لا أسماء لهم. إنه دائما (س٧) أو (إى ٥)، لكن هذه الهوية الرقمية تبدو مغلفة بزى إنسانى ساحر، لتمثيل دور الجاهل، وهومعد تماما لإطلاق نتفة مضحكة من المعلومات، يتوقع هو أنك سوف تنكرها. مع ذلك فإنهم دائما جهلاء تماما فيما يختص بالسؤال، لماذا؟ وما الهدف الذى يخدمه هذا التحرش؟. إذا كان أى مخرب يعرف الكثير مما يفعله بدلا من أن يحمل وثائق تدينه فى المطار، يعرف ماهو أفضل من حمله مستندات تجعل دخوله وخروجه من المطار من المحرمات - ذلك أن بلدا شيوعيا ختم جواز سفره. وهو يعرف جيدا أن أكثر العناوين خارجيا التى يمكن تقديمها لفرع (إى) هى عناوين المملكة المتحدة القديمة. هذه كانت فقط مجرد استعدادات مفيدة. العقول المشلولة توزع العجز الذى يأتى من هذه المقابلات، فتعرف أن فردا من الناس تمكن من الاستيلاء على

السلطة لكى يحد من حركاتك. وكل شىء من حقه، دون الحاجة إلى تبرير افعاله لك أو للمجتمع الذى أنتما جزء منه. مثل هذه السلطة موجودة لتسفيه حياتك الخاصة، بمحاصرة حركاتك وتهديد حياتك بالخطر.

الحاجز الصامت فى فرع (إى) أغلق خلفى. وقادونى إلى أحد المكاتب لكى أنتظر. كانت هناك تحركات. أحسست بكهربة هذه الإدارة مباشرة منذ دخولى. ثم سمعت أصواتا. وظهر أن المفتش من إبادان يتلقى مكالمة توبيخ من شخص عرفته فيما بعد بصورة أفضل. كان المفتش يردد بيانات مهمته، ورجل لاجوس كان يخبره بأنه لا يأخذ أوامر من أحد فى إبادان، مهما كان علو مكانته. كان الصوت عنيفاً، مملوءاً إحساساً بقوته الشخصية. ثم انقطع الصوت عندما تم إغلاق الباب بعنف.

بعد ثوان قليلة أطل على فى المكتب الذى كنت أجلس فيه، جلف ضخم الجثة له شكل الغوريللا، نظر إلى من كل النواحى كما ينظر إنسان إلى حشرة قضى عليها بأن تغرس فى جسمها الدبابيس وتوضع فى غاز الفورمالين. ومازال منتفخا بنشوة السلطة لانتصاره على رجل إبادان. لم يكن لدى شك فى أن صوته هو صوت المستبد. لم ينطق بكلمة. ربما كان حقده من مقابلة إبادان لم يزل ينضح، وأنه يحتاج إلى هدف حتى يفيض فيضانه. ربما فكر فى أن يحرقنى بجذوة غضبه المحتضرة، أو لعله أراد حقا - بهذه السرعة فى دفع الباب ليفتحه فقط

ليراجع مسئوليته المباشرة بالتعلق فوق أكرة الباب. ربما كان ينوى القيام بحركة لإضعافى بهذه التكتيكات المعروفة. لإحداث الصدمة عن طريق دوامة من العنف المفاجىء: كل هذه الاحتمالات كانت متوفرة فى دخوله المفاجىء. الشبح مخيف فى المفاجأة، وكان هو فى الحقيقة أشبه بغوريللا هاربة منهكة - لقد تجسد هذا الشبح تجسيداً مادياً، وتعلق بفتحة الباب وحملق فىّ. كان رد فعلى التلقائى تحت السيطرة. لم يكن لدى اختيار آخر غير أن أحملق فيه مباشرة، مستفسراً أولاً - لاحاجة بى لاستعداء هذه القرود المتوحشة - لأننى لا أقابل إلا الحقد، مع تغيير مفاجىء، إلى نوع من التعبير الذى كنت أرجو أن يسجل كشىء مقبول مهما كان التحدى الذى جاء يستعرضه. لكنه اختفى فجأة بنفس الطريقة التى ظهر بها، يتأرجح بشعره الذى يغطى ذراعيه، فى اتجاه مروحة السقف. من المؤكد أن قوة ما شدته إلى طوايا النسيان أمام عينى، وكان من الصعب أن نتخيل أن سرعته كانت بغيرقوة دفع من آخرين.

عرفت فيما بعد أن اسمه - عيسى أديجو، وهو مفتش مساعد.

بعد ذلك جاء مفتش إبادان معتذرا، لم نكن ذاهبين إلى ثكنات دودان. يبدو أن الأمر خرج من يديه. ومضى يتكلم ويتكلم، لايكاد يتماسك من شدة الإنهاك العاطفى. أكدت له إننى خمنت ذلك من الأصوات. حينئذ دخل علينا شاب كوكى، واثق من نفسه، لقد استصغرته من أول نظرة، كواحد من تلك البدائل قليلة الخبرة التى شغلت الأماكن الخالية بعد خروج الإيبو من الوظائف المهنية. وهو خارج لإثبات وجوده، لاتسأل عن

ذلك، سلوكه تجاه المفتش الذى يعلوه بعدة رتب كان سلوكا متغطرسا ومتعمدا. سألت هذا المخلوق الجديد عن سبب وجودى فى فرع الأمن بدلا من ثكنات دودان. رفع حاجبه كأنه لم يسمع اللفظ من قبل. كررت له احتجاجى الرسمى فرد على بحدة!

"وماذا لديك لتقوله إلى رئيس الدولة؟ هل تظن أنه يمكنك أن تطلب مقابلة رئيس الدولة هكذا؟"

"عندى موعد معه، إنه ينتظرنى الآن".

"أنا لا أعرف شيئًا عن ذلك. لقد طلب منى أن أوجه لك بعض الأسئلة. أى شخص يمكنه أن يمشى إلى هنا ويقول إن لديه موعدا مع رئيس الدولة".

التفت أنا إلى المفتش. كان يهتز من الدوخة التى ما زالت تحيط به، فتمتم ببضع كلمات تؤكد طلبى. لم يفعل الضابط الشاب سوى أن يكرر:

"قلت إننى لا أعرف شيئًا عن ذلك، أى شخص يستطيع أن يدعى أن له موعدا مع الرئيس". أغضبتنى الآن عدم مبالاة الرجل فقلت: "آمل ألا تعنى أن رئيسك يكذب. لقد أخبرك توا أننى على موعد مع الرئيس".

نظر (د) إلى أعلى مستفسرًا، متصنعًا – من الواضح – أنه الجهل – حينئذ فقط قدم المفتش نفسه، وحكى القصة كلها فى أسلوب محرف، مما جعلنى أشعر بالتعب من المشهد. وبدون لياقة تمتم الضابط الشاب ببعض الكلمات كنوع من الاعتذار. لم يكن غريبا بالنسبة لهؤلاء فى فرع

(إى) ألا يعرفوا وجوه المفتشين الإقليميين معرفة مباشرة. لقد كان خارج القطر لبعض الوقت - كل هذا مع بعض التنازلات العابرة. لقد نظرت بإعياء إلى نائب المفتش هذا... أوه اذهب بعيداً يارجل، اذهب إلى زوجتك وأسرتك... وانصرف أخيراً، شاعراً بالذنب، وأخذ يعتذر لى عن تغيير البروجرام حتى آخر لحظة.

"تعامل مع الأمر ببرود من فضلك، افعل فقط ما تستطيع للتعاون. إننى متأكد أنك سوف تجد نفسك فى أيد أمينة". لقد شعرت بالأسى من أجله.

يبدو أن الضابط الشاب قد أخذ النصيحة لنفسه. لذا بدأ يتعامل مع الأمر ببرود شديد، حتى إنه اعتذر عن المشهد الغريب، وشرح لى أن الأوامر الرسمية تغطى بعضها على بعض أحيانا. لقد طلب الأمن من شرطة إبادان أن يصطادونى، وأن يحملونى إلى هنا لاستجوابى. من أجل ذلك، فإن موضوع تكنات دودان كان تطوراً لا أتوقع أن أحداً منهم يعلم عنه شيئاً. لقد قدم نفسه هكذا - على فكرة أنا (دى) - لقد وعدنى بأنه سوف يتصل بياور جوون ليعرف ما الذى يجرى هناك. لقد شاهدته يؤدى كوميديا هزلية وهو يتحدث فى التليفون. بالطبع الياور غير موجود. لكن تركت له رسالة بأن يرد على رسالة (دى) كأول شىء. "حظ حسن إننى أعرفه معرفة شخصية، فى الواقع إننى أتوقع حضوره هنا بعد الظهر".

الاعتذارات لم تصل إلى نهاية أبدا، (دى) يعتذر بأنه لم يقرأ كتبى رغم أنه سمع عنى كثيراً. "هذه وظيفة كريهة قلما تترك لنا وقت فراغ لممارسة أعمال من أجل المتعة الكاملة، كلها نصف ساعة طيبة. قبل النزول إلى العمل. تدخين سيجارة؟ لقد اخترت أن أدخن سجاير من النوع المصنوع محلياً ماركة" موراد، أشعل سيجارته وقدم لى النار لكى أشعل سيجارتى. ثم بالصدفة" بينما كنا ننتظر مكالمة الياور تكلمنا فى شىء أو شيئين؟"

– آخر مرة رأيت فيها أوجوكو؟

– منذ ثمانية أيام تقريباً.

السؤال يدخل فى أرق تكنيكات المفاجأة. الصمت، ثم اللعثمة التى أعقبت إجابتى يمكن أن تكون ناتجة عن الدهشة. من الواضح أنه كان يتوقع منى أن أنكر. أو على الأقل أحاول التملص. لقد أعطى نفسه وقتا لإعادة النظر فى مدخله، بالسماح للاستطراد فى الاستجواب أو الخروج به إلى قنوات غير منطقية. ثم عودة إلى الموضوع.

– "لماذا ذهبت لمقابلته؟"

– من الواضح أن الأمر ليس كذلك؟ لابد أنك قرات مقالتى فى الصحف".

– أوه نعم، "ثم فتح درجا فى مكتبه وأخرج ملفاً. مليئاً بقصاصات. نعم، قرأتها وقرات الردود أيضا. فما رأيك فى الردود التى نشرت على مقالتك؟

النغمـة ذات مذاق خـاص. كـانت النغـمـة تقـول: مـارأيك فى الإعـجـاب بنا؟، أليس هذا شىء جميل؟ وهو ما أعطاها معنى معينا فيما بعد. فأجبت.

– "يبدو أنها جاءت من آلة دعائية شديدة التعصب. معظم الأسماء الملحقة بهذه الخطابات مزورة، خمسة وسبعون فى المائة من الخطابات كتبتها نفس المجموعة من الصحفيين المأجورين".

– "ما الذى يجعلك متأكدا من ذلك إلى هذا الحد؟"

– "لقد أدهشنى تشابه الأسلوب، بل إننى عرفت الأسلوب".

– "أوه نعم طبعا، فأنت من رجال الأدب".

– "نعم، الأسلوب الأدبى أشـبـه بالبـصـمـة. أو أسلوب عـمـل لص بالنسبة لك. والحقيقة أن اليد التى قامت بتجميع المقالات كانت واضحة فى الخطابات التى كتبت ضد (طاى سولارين)(*) أيضا. هل أخبرك من الذى كتبها؟"

– "من؟"

– ذكرت المجموعة بالاسم. فابتسم وأزاح الملف جانبًا.

– "حسنا، لا أستطيع أن أقول شيئا عن ذلك. فليس له أية أهمية..."

لكن ذلك كـان يهـمـه. – لم يكن (مـعـلام د.) – عند هذه المرحلة – يملك سوى القليل من السيطرة على زمام نفسه – بحيث يمكنه أن يتحمل أصـغـر الصـدمـات عن وجـود أى خـرق فـى نظام الأمن. كـان ذلك كله

مطبوعًا على صفحة وجهه. – كيف عرفت أنا؟ ماهى المعلومات الأخرى التى أعرفهاعن أنشطة هذه المجموعة لحساب النظام العسكرى؟ لقد شعرت بأنه ينبغى علىّ أن أبقيه فى حالة عدم التوازن فترة أطول قليلاً – مجرد ميزة ضئيلة مؤقتة فى المناوشة، لكنها كانت لحظة لنخس ضعفات حقيقية أو وهمية، فى ضمير مذنب، أوفى طموح الخصم. كيف كان (معلام) مثلا يحس فى أعماق نفسه، إلى أى مدى ترتفع مكانته بالنسبة لنوايا الرجال الذين أمروا باعتقالى وبما هو أسوأ؟

سألته" أخبرنى، لماذا كانت لاجوس متلهفة على تصفيتى؟

– "ماذا تقصد؟"

– "الجنود الذين أرسلوا إلى إبادان لخطفى والتخلص منى. لقد أعطيت لهم الأوامر باصطيادى بأى ثمن".

– "ما الذى يجعلك تظن أن الجيش يريد قتلك؟"

– "كذبت وقلت" لقد قابلت صديقا لأحد الضباط الذين أرسلوا من لاجوس. وحذرنى".

– قال (د) بحماس"إنه يقول كلاما فارغا وما حدث هو أننا طلبنا من الجيش أن يعتقلك، هذا كل مافى الأمر".

– "هل تضطر إلى إرسال فرقة عسكرية خاصة من لاجوس؟".

– "ليس لدى أى فكرة عما إذا كانت هناك فرقة أرسلت من لاجوس أم لا. لقد طلبنا اعتقالك، ربما هذا ماسمعت عنه. لماذا يريد أحد أن يقتلك".

لقد محا الفكرة كشىء وقح ينافى الآداب بإيماءة مفاجئة وقوية". على أى حال أنت هنا معنا فى أمان".

قلت "أتعشم ذلك" وأخذت أراقبه وهو يتحسس زمام دوره، مصمماً على ألا يسمح بأى انحراف خطير للمسار المرسوم.

لكننى تمكنت من إطالة زمن هذه الحالة التى انقلبت فيها الأدوار: كانت الخطة جميلة التنسيق. لقد ابتدأت بتلك الردود "التلقائية" على مقالتى. منها خطابان يستخدمان بدقة نفس العبارات التى تتهمنى بأننى قلت إن الجيش فى الجزء الغربى هو جيش احتلال. أنا أعرف أن إدارتكم لديها دفتر كبير يحوى كل شىء مما كتبته أو اتهمت بقوله. فأخبرنى إذا كان قد حدث أننى استخدمت تلك العبارة؟"

"الناس يكتبون كل أنوا ع الكلام. أعنى أنه يجب عليك أن تعترف بأنك أغضبت كثيراً من الناس بمقالتك".

"إن دس هذه الأكذوبة فى داخل الخطابات كان عملاً متعمداً. لقد نجح فى إشعال كراهية الجنود والضباط. وعصبيتهم، حتى إنهم أظهروا إدانتى لعمليات الإبادة العرقية فى الشمال! ظننت أنه كان يسعدهم لو نسوها. – إلا أن الهدف المباشر كان أكثر أهمية".

فجأة ودون توقع اعترف د: "لم يكن هناك ثمة مؤامرة، لابد أنك رأيت بعض الأشياء الأخرى التى حُدد لها جدول للظهور. بعضها كانت أكثر ثورية. شىء رهيب. فقد ذهبت لجريدة المورننج بوست

بنفسى وقلت لهم إنه شىء زائد على الحد. كان قد سبق إعداده ولكننا أمرناهم بإلغائه.

هذا تطور لم أكن أعلمه. إن سيطرة الجيستابو تمتد حتى إلى باب "خطابات إلى المحرر" واستغربت عما إذا كان قد شعر بأن اعترافه هذا يوحى باعترافه أيضا بتلك الأكاذيب الأخرى. كانت عينا (د) تستدير أحيانا بسرعة، وينظر إليك من تحت جفون مغطاة، منزعجا من أى أفكار أخرى تبعده عن الأمور المباشرة. لم أستطع أن أقرر شيئًا حتى انفجر فجأة وكأنه يجاهد لإقناع نفسه بعدالة أى تكتيك يتبعه:

"لكن من أعطى الناس مثلك أنت وطاى سولارين الحق فى أن يظنوا معرفتهم بكل شىء؟ مالذى يجعلكم فى أبراجكم العاجية تظنون أنكم تملكون الحلول لمشاكل الوطن؟ وعندما تضع الحكومة خطة، ما الذى يجعلكم تظنون أنكم تعرفون خطة أفضل؟ أنتم مفكرون تعيشون فى عالم من الأحلام، مع ذلك تظنون أنكم تعرفون أكثر من الرجال الذين وازنوا بين كثير من العوامل ثم توصلوا إلى قرار".

"لا، إنه أنت الذى تسكن الدور السادس فى هذه القلعة ليس لديك أية معرفة بالواقع. المثلان اللذان تتهمهما، طاى وأنا وعدد من الناس الآخرين هم أقرب إلى الواقع الصعب من أى نظام أو منفذيه ممن يعيشون نصف أيامهم فى الخوف من التخريب أو الانقلابات".

"لكنك أيضا ضد مفكرين آخرين. آخرون يؤيدون موقف الحكومة".

"مثل من؟"

تردد. "حسنا، مثل لجنة العشرة. إنهم مفكرون مثلك تماماً".

"هل هم كذلك؟"

"لماذا لا؟"

"إنهم ليسوا مفكرين. ويفتقدون لأى نوع من المصداقية. أو الالتزام. غير لعب المباريات فى دهاليز السلطة. لماذ تأخذ هؤلاء الناس على محمل الجد؟"

"ما هو الخطأ الذى ارتكبوه؟"

"انحطوا بالقدر الضئيل الذى كانوا يملكونه من الفكر ليبدأوا به، هذا كل ما فى الأمر. من أيام أكينتولا العجوز. أتنسى الدور الذى كانوا يقومون به خلال تلك الفترة؟"

هذا تاريخ مضى. والكل يتضافر الآن معا لوضع مواهبهم رهن الإشارة لخدمة الوطن. أحد هؤلاء عضو فى مجلس الوزراء".

"نعم، لقد انتقيت أسوأ ما فى المجموعة، أليس كذلك؟"

"فيمى أوكونو؟ ما الذى تأخذه عليه؟"

"هل أنت جاد؟" لكنه تجاهل نغمة التحقير فى صوتى تماماً.

"بالطبع. نحن نريد أن نعرف أفكاركم، ليس فقط فيما يتعلق بالسياسات الرسمية بل أيضا بالناس الذين يشكلون تلك السياسات أو ينفذونها".

"هل هذا جزء من الاستجواب؟"

كان احتجاجه قويا "لا، لا، من الخطأ أن تظن أن ذلك استجواب. نريد أن نكون قادرين على فهم الناس من أمثالك. أريد أن نجرى مناقشة حقيقية. لماذا تكتب الأشياء التى تنشرها؟ لماذا تتخذ لك موقفاً؟ ما رأيك فى الطريق الذى يسير فيه البلد؟ وهكذا. أريد أن أعرف رأيك فى الشخصيات الوطنية كبير القضاة مثلا، أولو إنهارو، تاركان وحتى جوون". "أنا لم أقابل جوون أبداً".

"صحيح. وربما قريبًا جداً. فى الواقع إننى متأكد تمامًا أنه يريد أن يقابلك، يعتمد هذا أيضا على ما نخرج به من مناقشتنا".

"انسل بطريقة عادية جداً، لكن ليست عادية بحيث أن الفكرة التى كان يجب إغفالها، ليست قوية جداً بدرجة تتطلب مساومة".

"على أية حال أنت لم تقل لى حقيقة سبب عدائك للجنة العشرة".

هززت رأسى "دعنا نقول ببساطة إننى لا أوافق على دعارة السلطة".

أعرف. لذلك أسألك من هم المفكرون الذين ترضى عنهم؟ أشخاص مثل طاى سولارين، على ما أعتقد؟"

"طاى لايزعم أنه مفكر. إنه مصلح اجتماعى مخلص، وغير أنانى فكره أصيل، ولكنه أحيانا يختلط. يستطيع الوطن أن ينتفع بعدد كبير أكثر تخليطا لكنهم مفكرون أصلاء مثل طاى".

لكن ليس جماعة أوكونو؟ أنت تظن أن طاى سولارين يجب أن يكون قوميساراً بدلا من أوكونو".

تنهدت للمرة الثانية وسألته "أخبرنى، هل تعرف شيئا عن فيمى أوكونو؟هل تعرف أى شىء عن النمط الأوكونى من صغار البرجوازيين الانتهازيين.؟".

"لا، أخبرنى بما تعرفه عنهم".

هززت رأسى وقلت. "سوف تعرف ذلك فى الوقت المناسب".

"لا، أريد أن أعرف منك أنت. نحن نسأل عن آرائك".

"آسف لكننى لا أستطيع أن أتكلم عنه. إنه يترك مذاقًا مريراً فى الحلق".

ياله من مهرج! نكتة حتى فى أيام أكينتولا، عندما كان التهريج حكرًا خاصًا للسياسيين. نسخة مثيرة للأسى من فانى كايود الذى أعلن بنفسه أنه فاشى وجلاد (ن ن د ب الحزب الوطنى الديموقراطى النيجيرى) لقد ارتدى ملابس شديدة الشبه بملابس فانى - كايودا فى البهرجة وبنطلونات محزقة حتى الكاب الذى كان يضعه على رأسه بنفس الزاوية

التى يضعـهـا فـانى. يرتدى نفس النوع من النظارات السـميكة السـوداء ويشذب ذقنه حتى تبدو بالضبط كلحية الرجل الفاشستى القوى. يمشى على طريقة فـانى فى المشى، يسـتـعـرض نفـسـه فـى الحـفـلات، والنوادى الليليـة، تمثـيليـة إيمائيـة للمـشى، قـرد المـاريونيت لحـزب الـ(ن ن د ب) الرجل الثانى. بل إنه رقص مقلدا فـانى، أو مـحـاولا أن يقـلده. ثم سـقط ال (ن ن د ب) ضـرب فـانى - كـايودى على أم رأسـه وسـيق مـقـيـداً إلى السـجن. وسرعـان ما غير الانتـهـازى الترزى الذى كان يفـصل له أزيـاءه، واختـار قـمـيـصـا عـاديا غير مـزخـرف وبنطلونا. خلع النظارت السـوداء، وحلق لحيتـه وشـاربه. وأقصى قـرد فـانى المختـال بمـجد الـ(ن ن د ب) عن السلطة ونفى...

"لا" ، كررت الكلام "أنا لا أحب أن أتكلم عنه. دعنى فقط أقـول إنه عندما يختار هذا النمط ليكون عضوا فى فريق يقوم بصياغة السياسات القـومية، فـلا غـرابة أن تتوقـع وأن تطلب من طبقـة الانتليـجينسيا - أن تقول لك نعم كله تمام يا أفندم".

فجأة سـأل (د)، "ماذا تعرف عن القوة الثالثة؟"

من الواضح أنه لن يكون هنـاك كثير من الاعـتراضـات فى فـترة بعد الظهر.

الفصل الرابع

لقد أجلسوني في مكتب خالٍ - في الدور الذي يعلو مكتب التحقيقات. (معلام د) المحقق المختص بي يضج بعصبية: "الذي أحب أن تعمله من أجلي يامستر سوينكا هو ببساطة أن تسجل كل ما قلته لي، كل شيء عن نشاطك لإيقاف الحرب، كيف ابتدأ كله، وما مقدار مافعلت، الأشخاص الذين تكلمت معهم أو الذين مازلت تخطط للاتصال بهم... كما تعرف، كل التفاصيل وأي شيء آخر قد تكون أغفلته. أنا متأكد أن قضيتك لن تستغرق أي وقت حتى تتم تسويتها. فقط ساعدني بتدوين كل شيء وحينئذ قد يمكننا أن نتخذ خطوة أو خطوتين فيها...".

"هل يمكنني الحصول على آلة كاتبة؟ إن خطي رديء جدا... كانت أول ما خطر لي من أفكار عند هذه النقطة، لا شيء بخط يدي. ودون توقيع مني على أي شيء. ودون تشكيل احتمالات واضحة للخطر، فالمخاطر كلها يمكن تقليلها بأن نجعل كل شيء بطريقة آلية. خفّ سريعا جيئة وذهابا بين المكاتب وسرعان ما عاد معلام د. لا، لم يجد آلة كاتبة زائدة. قلت هذا لايهم، ظنا مني أنه مثل جهنم لا أهمية لها. الكم الكبير

من الكتابة بخط اليد يقدم كمية ضخمة من المادة التدريبية لمزور محترف. أنا لا أفكر من بعيد فى عمليات التزويرالتى تتم لاستهلاك الجماهير، لكن فى تلك الحيل البوليسية الرخيصة - "اعرض قطعة من" اعتراف "لشخص سيئ الحظ وحطم معنوياته بهذه الطريقة. هاهى، اقرأ بنفسك، لقد اتهمك فى بيانه. لماذا لاتقول أنت القصة من جانبك؟"

احذر. حتى التنفس لابد أن يتم بحرص متعمد. من الآن فصاعداً كل شىء محسوب. نظرة سريعة فى أركان الحجرة بحثًا عن ميكروفونات مخبأة، أو فتحات تجسس سرية. ميكروفونات ! لكنك وحيد يا رجل! هكذا؟ "حالك يدعو للشفقة" رفيق زنزانة سوف يضاف فيما بعد. حسنا، هناك وقت للبحث عن الميكروفونات عندما يحدث هذا. رتب أفكارك، اختر ماتريد أن تقوله وتكتبه. لا تمح شيئًا بعد كتابته، لأن هذا سوف يثير حولك الشكوك. ماذا محوت أو شطبت؟.

"لماذا؟ الجلسة الأولى مع معلام د تعرف بأنها- المناوشة الأولى - لا يوجد مثل هذا الشىء المسمى - المحقق "المستنير". الأساليب تختلف هذا كل مافى الأمر. فأى نظام يسمح للأجهزة السرية بأن تعمل ضد الفرد هو نظام جيستابو. فعقل الجيستابو يؤمن كثيراً بالقبض على الناس بالذنب أكثر من إطلاقهم بالعدل. هذا المبنى هو المركز الرئيسى للجيستابو، لايوجد تعريف آخر، ولا وجهة نظر أخرى للنجاة... إننى أبدأ الكتابة.

عامل التذكير موقوت. ففى الحال دخل الحجرة ثلاثة رجال. فى البداية ظننت أنهم ضلوا طريقهم لأنهم كانوا يحملون معهم أغلالا وسلاسل أشبه بما كنت أراه فى متاحف تجارة العبيد. كان يبدو عليهم أنهم سذج ومرتبكون، وتوقعت أنهم سوف يستديرون ويختفون معتذرين عن هذا الاقتحام. لكنهم توقفوا وأخذوا ينظرون إلىّ. أحدهم كح وتلعثم وهو يعلن الأخبار. إن لديهم تعليمات بتقييد سيقانى معا.

"هل أنتم متأكدون؟ لقد وضعت هنا لأكتب تقريرى" لا يوجد خطأ. هى خمس عشرة دقيقة منذ تركنى معلام د. لم يقل شيئا عن السلاسل. مددت ساقى، ربطت الأغلال، هبطت سيقانى تحت وطأة هذا الثقل المكتسب حديثا.

الجلوس ثانية لم يعد سهلا. الشعور بالسلاسل كان إحساسًا جديداً، لم أستطع التأقلم معه فى الحال. لقد نظرت إلى أسفل، إلى هذه الأشياء الشاذة بفضول حقيقى محايد، رفعت ساقى مرة ثانية لأتحسس ثقلها، حاولت المشى بها، ووقمت بمائة تجربة أخرى. المشى كان ممكنا أو جرجرة القدمين بطريقة محدودة. غمرتنى ثانية موجة من عالم بعيد عن الواقع. ، أظن أننى ضحكت بصوت مرتفع عند هذه الفكرة. انحنيت إلى أسفل، التقطت السلسلة المفكوكة وأمسكتها طولها قدم وست بوصات فى الغالب.

أحسست بتناقض قوى فى كل هذا، تناقض فى كينونتى، فى وعيى الإنسانى والتعريف الذاتى. الواقع أنه حتى هذه اللحظة لم يكن هذا

التعريف الذاتى أبدا بهذا الوضوح. كما حدث عندما نظرت إلى هذه القيود فى كاحل القدمين. كان التعريف سلبيًا . لقد عرفت نفسى بأننى كائن لم تخلق له القيود، باعتبار أننى انسان. وحسبما يمكن للبعض أن يقول إن الجوهر الإنسانى يمتلك قيمة حقيقية ملموسة، فإننى أستطيع القول بأننى تذوقت هذا الجوهر. وأحسست به فى تلك اللحظة المليئة بالتناقضات. لاجديد فى الأمر، سواء بالوكالة أو بفعل أيديولوجية الذاكرة العنصرية، هذا التناقض يمكن الشعور به، وقد شعرت به بقوة كافية لتحويل أكثر المدللين من البشر إلى ثوريين متحمسين. القيود الفكرية المجردة رفضت لمجرد أنها عاطفية. لكن فى تجربة الكائن العضوى فإن الفرد لا يقف وحده، وبالأخص الرجل الأسود. لقد شعرت بها، بدت لى، مئات السنين من قبل، كما أعتقد، إننى عشت تجربة انطلاق لحظة أعيد تجسيدها بدرجة مؤكدة، عندما كنت فى المدرسة وقابلت نقوشا محفورة لمسيرات العبيد فى كتب التاريخ. حتى عندما قابلت أول مجانين تحت رعاية المعالجين التقليديين، مربوطين فى سلاسل من كواحل أرجلهم لكبح درجة عنفهم، ففى رأيى أن درجة الرفض لهذا العلاج تصل غالبا إلى حدود الذاكرة العنصرية. بالتأكيد لايمكن أن تكون تجربة شخصية محدودة.

فكلما دار المفتاح فى قفل الباب تعود إلى تلك الذاكرة - أنا جالس على كرسى مستقيم الظهر، والرجلان منحنيان عند قدمى يثبتان أقفال القيود، الرجل الثالث واقف يراقب ذلك الحيوان الخطير إذا حاول الهجوم -

وقد خطر لى، ليس حينذاك، بل فقط الآن ومشهد السلاسل يمر أمام عينى، أننا جميعا سود، إن معلام د. رجل أسود آخرأعطى الأمر وهرب، وأننى لست" محكوما عليه" ضمن عصابة من جنوب ألاباما أوجوهانسبيرج. لكن هذا التناقض الإنسانى يجد تطبيقه فى مكتب حديث لناطحة سحاب حديثة فى عاصمة كوزموبوليتية هى لاجوس عام ١٩٦٧.

فقط فى حال كونه حقيقيًا، فقط إذا كانت حقائق أخرى مثل الذهاب للحمام أو مد ساقىّ أثناء النوم، أو هززتها تلقائيا فى جنح الليل نتيجة لعضة بعوضة، فقط فى هذه الحالة سوف تظهركل هذه الأخطار المهددة للحياة، وسوف تزيد حدة الإحساس بالقلائد المعلقة فى أقدامى، ابتدأت إضرابا عن الطعام دون مجادلة داخلية بينى وبين نفسى. من الواضح أن ذلك كان ترياقا مضاداً لسموم حالة مزاجية كانت ساخرة جزئيا، شغوفة جزئيا ثم استشاطت غضبا. أوجن، يا رفيقى، أشهد كيف أن معدنك تشوه! حسنا، (إن الجراحين القدامى كانوا يسيلون الدم للتخلص من الكلوريد – لقد تعلمت أن ألجم غضبى بتجويعه.

لقد نجحت. إن اتخاذ القرار بعدم تناول الطعام وضع تشنجات الغضب وارتجافاته تحت السيطرة فى الحال تقريبا. بدأ عقلى يعمل ثانية بدون انفعال. الهدف القريب. والهدف البعيد. والهدف الطارىء، ما هو التأثير الذى سوف يحدث فى عقلية الجستابو. بدأت العمل على التقرير. هناك حافز يهيمن علىّ الآن هو – توقع المحاكمة وانقلاب الأدوار على الطريقة الكلاسيكية. رؤى كاسترو "البراءة التاريخية!"

كانت هذه الجملة بمثابة تأكيد عميق لدورى فى تكوين لوبى أو جماعات ضغط لإيقاف إمداد الجانبين المتحاربين بالأسلحة. لقد كتبت بنزعة محسوبة لكى أدفعهم إلى محاكمتى، على أساس أن نشاطاتى معادية للحكومة، أكملت المقالة فى ساعتين أو ثلاث، وانتقلت إلى كرسى فوتيى، وألقيت نظرة على السلاسل فى أقدامى وحاولت النوم.

طرقة على الباب. الطباخ المتعاقد مع الجيستابولتقديم الطعام لمئات النزلاء الموضوعين رهن التحقيق يقوم بإحدى جولاته التفقدية. شكرا، لا. لقد ظن الحارس الواقف على الباب أننى أريد "غذاء" أوروبيا". وهذا أكبر تكريم يقدم لأى سجين أو معتقل من الشخصيات المهمة جدا فى السجن. قلت لا. ولا حتى علبة سردين؟ خبز؟ لبن؟ قلت، كما تعرفون، إنه من الخطر إطعام حيوان مربوط بالسلاسل. ربما أحصل على القوة وأخطم هذه الحيل الرخيصة.

ازدحم فرع المباحث "E" جدا فى المساء. كل المكاتب، والمكتبة، حتى بعض بسطات السلالم، كانت تستعمل كحجرات تحقيق. كانوا يُدخلون مئات من الإيبو والمتعاطفين معهم من المشكوك فيهم. الإنكار كان سهلا، والمسجلون القدامى كان يحجزون بمجرد همسة للبوليس. البعض، لم يكونوا من الإيبو جاءوا بهم إلى هنا فعلا واستولى عليهم الرعب والإنهاك الجسدى، يتوسلون من أجل فرصة للدفا ع. كل مساء أسمع أصواتا لرجال ونساء. كانت الكلمات رتيبة، الاحتجاجات ومواجهة الاتهامات:" أنا لم أقل هذا أبداً. هذا كذب. إن لم أقل (داتكنتنج).

كان يكفى أن يتهم إنسان بالتعاطف مع الإيبو، أو إدانة الجيش، أو قول الحقيقة عن تعذيب شخص أو جريمة قتل شاهدها . كان يكفى فقط أن تنظر نظرة عدم قبول لطرق الإرهاب.

الليل. لقاء غريب موحش. كنت قد غفوت. وفجأة انفتح الباب وألقى بامرأة إلى داخل الحجرة. "امكثى هناك ولا تتكلمى" لقد أعطى الضابط أوامره بحجز بعض الآخرين فى مكاتب مختلفة. عرفت من لهجة المرأة أنها من الإيبو. لم أشهد فى حياتى أبدا مثل هذا الرعب على وجه امرأة. مضى بعض الوقت قبل أن تدرك أن هناك كائنا آخر فى الحجرة. لقد اقتنعت فى البداية أنه لابد أن يكون أحد الضباط، ربما المعين لتعذيبها – الصدمة أخذتها إلى الركن المقابل من الحجرة حيث كانت تحملق بعيون كبيرة مرعوبة وصوت مبحوح مرتعش عاجز عن الصراخ. حينئذ نزلت عيناها إلى أسفل ورأت السلاسل. رأيت جسدها يسترخى ويتعاطف وتقدمت إلى الأمام، يدها تضرب الطاولة كأنها تريد أن تمسك بشىء صلب يؤكد لها وجود أشياء واقعية من حولها . راقبتها فى صمت. لم تكن محتاجة إلى ارتياح أكثر من جانبى. لقد تأثرت جدا بمنظر السلاسل بدرجة لايمكن أن تحققها الكلمات، وجعلتها تهدأ . لكن عندئذ رأيت تغيرا جديدا فى وجهها . فجأة وقفت هادئة، غير مصدقة. لحظة التعرف. رأيتها حتى قبل أن تتكلم. أليس أنت... أليس أنت وول سوينكا؟ أمأت برأسى موافقا . أخذت تحرك عينيها من وجهى إلى ساقى، رجوعا إلى وجهى. لحظة للتنفس، ثم انفجرت فى البكاء.

الحارس – لابد أنه ذهب لوقت قصير كى يساعد السيل الجديد المتدفق – لقد ألقى نظرة لمدة دقيقة وشهق. ماذا تفعل هذه هنا؟ صاح فى الممر مناديا على الضابط المسئول. ليس من المفروض أن يدخل الحجرة أحد مع هذا المتهم! عندما اندفعوا جميعا إلى داخل الحجرة توقفت هى عن البكاء. كان الضابط النوبتجى يحس إحساسًا شديداً بالأسف؛ لم يكن يعلم أن هناك شخصا ما فى الحجرة. اقتادوا المرأة بعيدا وهى أكثر هدوءا وأشد قوة. التفتت إلى الباب وهى تنظر إلىّ بطريقة كما لو كانت تريد أن تتأكد أننى أراها، حتى أعرف أنها لم تعد خانعة أو مستكينة، ولن يرعبها شىء بعد الآن. رددت على الإيماءة اعترافا منى. وتساءلت هل تدرى هذه المرأة مدى القوة التى أمدتنى بها نتيجة لهذا اللقاء.

عاد معلام د فى صباح اليوم التالى "لماذا تضرب عن الطعام؟"

"لست مضربا عن الطعام "نظر إلى فى حيرة" لا، لقد أخبرونى أنك لم تأكل بالأمس ولم تأكل فى هذا الصباح".

"أوه هذا، لقد أسىء تفسير موقفى. إنه ليس إضرابا عن الطعام".

اهتمامه المباشر كان مؤثرًا "ما الأمر؟ هل أنت مريض؟"

"لا، أنا فى صحة جيدة جدا، فقط بعض الإجراءات الاحتياطية، هذا كل ما هنالك".

استشاط غضبا "أنت تخشى من أن يضعوا لك السم".

"إذا سمحت لى بتوضيح الأمر، إنها هذه القيود. أنا لا أعنيها – إنها مريحة فى الجلوس. ولسوء الحظ أن الذهاب إلى دورة المياه شىء لا يستطيع الانسان أن يتجنب القيام به. أنا اتجنب ذلك كما ترى أو أقلل منه كما ترى بالانقطاع عن تناول الطعام".

"أنت لاتستطيع ذلك مطلقا بدون أكل".

أشرت إلى زجاجة الماء الموضوعة على الطاولة". زجاجة واحدة يوميا. تكفى تمامًا. غدا سأحتاج إلى التبول مرة واحدة فقط فى اليوم. بعد ذلك قد لا أحتاج للذهاب إلى دورة المياه نهائيا. هذا التقرير موجود على الطاولة.

أخذ ملاحظاتى وخرج. "سوف أرى ما يمكن عمله".

"لم يحدث شىء فى ذلك اليوم. بقيت الأغلال بطول الليلة الثانية". فى صباح اليوم الثالث جاء د. ليسال بعض الأسئلة – هكذا قال. جاء مبتسما".أتعشم أن تكون قد بدأت تأكل الآن".

"لا، الموقف لم يتغير "نظر إلى أسفل، رأى القيود أو تظاهر بأنه رآها لأول مرة. غضب، تصنع الغضب ونادى على الحارس وسأله لماذا لم يتم نزعها. أجاب الحارس أنه لم يتلق تعليمات بذلك.

"اذهب وهات المفاتيح وانزع هذه القيود فوراً".

"آسف لهذا يا وول" – نعم، لقد أصبح اسمك وول من هذا الصباح.
– لقد أعطيت تعليمات بهذا الليلة الماضية.. بمجرد نزع القيود وإعطائك شيئا تأكله أحب أن نتحدث ثانية. سوف أرسل لك أحد الأشخاص. "أزيلت السلاسل ولكنى كنت قد اجتزت تلك المرحلة الحرجة التى أود أن أشير إليها باعتبارها" معركة البيلى بوفز أو معركة الكروش الكبيرة" بمجرد انتهاء قرصة الإحساس بالجوع، يتحول الصيام إلى امتلاء. لقد ساعدنى التدريب على الاحتفاظ بتوازنى، وبرود الحس – قررت أن أستمر على الحد الأدنى، بأن أشرب علبة لبن مزودة بالماء كل يوم. كان الحارس يرسل أحد الأشخاص يوميا لإحضارها.

لم أتناول اللبن أبداً. بعد ساعة جاء د غاضبا يزمجر، كالعاصفة "كيف حدث أن الصحف الأجنبية تنشر أخبارا بأنه تم اعتقالك؟"

حملقت فيه بعدم اهتمام. وما شأنى أنا بذلك؟"

"كيف استطاعوا معرفة ذلك ولماذا كل هذا النشر العلنى؟ إنهم يلمحون بأنك تعامل معاملة سيئة. آمل أن تدرك أن كل هذا الإعلام لايساعد فى قضيتك قيد أنملة. إنهم يزيدون موقفك حرجا".

"أى قضية وأى موقف بالضبط؟ إذا كنت أنا بريئا من أى شىء تتهموننى به، فما هو الفرق سواء كان الإعلام من الصحف الأجنبية أو المحلية. أم أنك الآن تتكهن مسبقًا بأننى مذنب؟"

"نحن لانتكهن لك بشيء..".

"اسمع، أنا لست مجهولا. حتى اللصوص الذين لا يعرف الناس وجوههم تنشرالصحف حادثة القبض عليهم. فهل تطالب أنت بميزات خاصة للجيستابو النيجيرى؟"

"لا أحد يطالب بأى شيء".

سواء لم يسمع أو أنه قرر أن يتجاهل رمز الجيستابو. انضباط... انضباط... يبدو أيضا أنه يقدم لنفسه النصيحة ذاتها.

"انظر وول، نحن نعرف أنك شخصية معروفة على مستوى العالم، لكن هذه الصحف الأجنبية صحف خبيثة تنتهز أية مناسبة للافتراء على السلطة.

"شاب، متحمس، قلق ضحية لأزمات مركزه الوظيفى. استمر فى الكلام بدوافعه اللا معقولة. بعد كل ذلك اقتحم الحجرة بنغمة اتهام وإدانة. وتنفس جرعة من ريح الابتزاز.

فقلت شاكيا" إننى لاأعرف حقا ماذا تتوقع منى أن أفعل؟ أنا لا أستطيع أن أخرج لكى أتكلم معهم. بالطبع تستطيع أنت أن تنظم مؤتمراً صحفيًا وتقدمنى..".

بعد ساعة فقط أعطى أوامره بنقلى إلى سجن كيرى كيرى.

الفصل الخامس

فضول. حيرة. تعرف. عيون المساجين تتغذى على القادم الجديد. لقد قضيت وقتا من قبل فى زنازين البوليس، فى أماكن بديلة للمعتقلات، لم يطلق أبدا على هذا المجمع اسم السجن ممن هم داخله. التأقلم أصبح يتم لا شعورياً، لقد تباطأ إيقاع جسدى. وقد زدت من إبطائه كثيراً.

"إننى قلق بشأن إرسال نقود لأسرتى. هل يستطيع السجن أن يدبر لى شيكا؟"

"لا، أنت معتقل. لا يجب أن نفعل شيئًا دون موافقة البوليس. إنهم متشددون بهذا الخصوص".

"كتب؟"

"يمكنك أن تحصل على الكتب التى أحضرتها معك. هناك مكتبة فى مكتب الضابط المشرف.

"لا شىء أسهل من الإحالة إلى روتين السجن. إن استنساخ الحياة خارج السجن بكل جزئياتها يجعل القبول أيسر - بالنسبة للأسبوع أو الأسبوعين الأوائل، كانا أشبه بالذهاب إلى خلوة أو دير. بالنسبة

لأسبوع أو أسبوعين. وهناك التنوع الإنسانى. إننى لم أرحب بالصحبة. إننى فى حاجة شديدة للبقاء وحدى مع أفكارى. بشرط واحد فقط هو أن يدركوا هذا الاحتياج ويحترموه..

بلوك صغير، عشر أو اثنتا عشرة زنزانة، سكانه أكثر من ثلاثين. كان يعرف باسم "الزنزانة الخلفية" ، فى الحقيقة هو بلوك العقاب، لكن منذ أن ظهرت موضة الحبس بدون محاكمات وتضخم عدد سكان السجون، أصبحت زنازين العقاب فى كل أنحاء القطربلوكات خاصة للمحتجزين. السكان هنا يضمون جماعة من النشطاء "الصناديد" الذين تدربوا فى غانا. مع هذه السذاجة السياسية الشائعة لأمراض ضعف العقل التى أصابت الهيئة صاحبة القوة المعقولة فى القارة، فإن النظام الغانى الجديد أرسل صور هؤلاء ومعلوماتهم الشخصية لجهاز الأمن النيجيرى بعد سقوط نظام نيكروما. لقد حوصر هؤلاء فى نيجيريا وقضوا الآن أكثر من عام فى الحجز حتى أصيب أحدهم بالجنون، وأصبح يكلم نفسه طول الوقت وينطق بتهديدات رهيبة ضد أعداء غير مرئيين. وفى ذات يوم اندفع هائجًا كالمسعور.... .

كان هناك أحد المحكوم عليهم، أيضا، ضابطا سابقا فى مجموعة N.N.D.P حكم عليه بسبب اختلاسه أموالا كانت فى ذمته. هذا سجين من طبقة خاصة وهو حمامة صيد أى مدسوس من قبل الشرطة للتجسس على الآخرين. لقد اكتشفت ذلك قبل أن يجد الآخرون ضرورة لتحذيرى..

هناك تيجر بدرو، سجين بسبب الاعتداءات الجنسية وهو معترف بذلك، وأصر على أن يحكى لى قصته. يقول، إن عضو الذكورة عندى حساس، إنها ليست غلطتى، هكذا خلقنى الله إننى أعرف نقاط ضعفى....

باستثناء N.N.D.P الضابط المختلس، هناك نزيلان آخران من الطبقة الخاصة، كلاهما معتقل. إنهما جنديان كان أحدهما شاويشا، والثانى أومباشى. معتقلان فى هذا البلوك أثارا فضولا سريعا، لأنه أعطى لهما وضعا خاصا بحيث يعاملان باحترام من جانب ضباط السجن كشخصيات بالغة الأهمية. أما المعتقلون والمساجين الآخرون، فإننى كنت أنظر إليهم نظرة سوداء، لكن بحسد وببعض التزلف عندما يفتح الجنود الخطابات غيرالمراقبة، أنظر إليهم عائدين من "التحقيقات" التى كانت تستغرق اليوم بطوله. تعج منهم رائحة الخمور وهم ينظفون أسنانهم، عائدون وجيوبهم منتفخة بعلب السجائر، والكولا ومئات البضائع المهربة، وهم يلومون موظفى السجن ويشكون من عدم التنفيذ الكافى لمئات من الامتيازات الأخرى.

لقد سألت أحد حراس العنبر: إذا كانت هذه معاملة عادية لرجال الجيش المعتقلين، أجاب بلا، هناك رجال جيش محجوزون فى كيرى كيرى تحت إجراءات أمنية مشددة. باستثناء الضباط، لا أحد منهم يتمتع بهذه الامتيازات. لكن هذين الجنديين كان قد تم نقلهما من المحاكمة الجنائية فى إبادان بناء على أوامر سلطة عسكرية عليا.

وبعد ثلاثة أيام كان الجيستابو قد استعد لى للمرة الثانية.

الفصل السادس

معلام د الآن بات جائعا للأسماء، أسماء، أسماء، تلك السلعة الفاتحة للشهية جعلته فجأة يتضور جوعا." نعم، نعم، الملاحظات التى كتبتها لنا هامة جدا لكنك لست رهن الطلب بخصوص الأسماء، أليس كذلك مسترسوينكا؟"

"لقد قمت بعملية تصحيح بسيطة، وأشرت إلى بستة أسماء مذكورين فى مذكراتى".

"آه، لكن هؤلاء جميعا خارج القطر"

ليس جميعهم. لقد قلت أنت إن أمينو(*) قد وصل إلى أرض الوطن.

(*) أمينو عبدالله، من الشمال، هو واحد من النيجيريين الذين حاولت تجنيدهم فى لندن لحركة مضادة لدعوة الحرب. لقد أرسلته إحدى المنظمات إلى نيجيريا لمحاولة إطلاق سراحى. لقد عرض أن يذهب إلى أوجوكو أثناء مناقشتنا فى لندن، لكننا قررنا أن ذلك سوف يعرضه للخطر، لكونه شماليا وأن الحرب كانت قد بدأت، فذهبت أنا بدلا منه.

"نعم، لكن هذه مسألة أخرى. فكل الأسماء التى أعطيتها لنا هى أسماء ناس لم يفعل أصحابها شيئا، طبقا لأقوالك على الأقل. هم أناس جندتهم أنت أو حاولت تجنيدهم فى حركتك، ولكن طبقا لأقوالك لم يتحقق شىء فى الواقع. أتوحى بهذا أنه ليس فى لجنتك أحد من المقيمين فى نيجيريا.؟

"لو أعطى لهم وقت لجاءوا، لكنكم اعتقلتمونى قبل أن أشتغل بالعمل. لقد اشتعلت الحرب وأنا بالخارج".

"بالرغم من ذلك فقد تكلمت أنت مع أناس هنا".

"بالطبع. لقد عقدت مناقشات مع كل أصناف المواطنين".

"لم تذكر أسماءهم فى تقريرك".

"أنا لا أجد ضرورة لذلك. وأنا أشير إلى مناقشات عابرة".

"ليكن. أعطنا بعضا من أسمائهم".

"أنا لا أرى كيف أعطيك هذه الأسماء. أنا أناقش أشخاصا فى موضوعى. أنا أعبر عن نفسى بحرية مع هؤلاء الأشخاص – لقد قالوا لى إن هذا فى الحقيقة من أسباب متاعبى".

"لكنك لا تعبر عن نفسك بحرية معنا".

"لقد بدأت أفكر بحرية كبيرة جدا. إذ نبت فى تفكيرك إصرار على أن أجرم أبرياء".

"أنا لم أطلب منك أن تفعل ذلك".

"النتيجة واحدة، أليس كذلك؟ أعطيتك اسما واحدا فقط وأنت تفكر أنه يجب عليك اعتقالهم. فما الذى تناقشت فيه مع دبليو إس فى ذلك اليوم؟ لماذا؟"

"مستر سوينكا لقد عدنا للحديث عن مستر - أخشى ألا تكون متعاونا جدا".

"إننى أكثر من متعاون".

"أنت لا تتعاون. سوف أعطيك مثلا آخر. أنت تقول هنا إنك كونت لجنة من أجل عمل حملة دولية ضد استيراد الأسلحة إلى نيجيريا. أنت تدرك طبعا أن ذلك من أعمال عدم الولاء من جانبك.؟"

"أنا لا أقبل ذلك".

ألا تظن أن هذا يساعد المتمردين؟ وكيف يتم خوض الحرب دون سلاح؟"

"المتمردون سوف يستخدمون نفس الحجة مع العدالة ليثبتوا معاداتى لقضيتهم".

"نحن بصفة خاصة لسنا مهتمين بوجهة نظر المتمردين".

"أنا مهتم. لقد أعلنت من قبل أن هذه الحرب ليست مبررة أخلاقيا".

"هل أنت انهزامى؟"

"بالتأكيد لا".

"هل كنت تقبل حربا أخرى؟"

"هذا يعتمد. ودائما كالملجأ الأخير".

"أى نوع من الحروب سوف تؤيده مثلا؟".

"أى حرب دفاعا عن الحرية".

"ما رأيك فى أهالى النهر الذين نقلوا بالقوة إلى ما يسمى بيافرا؟ ألا تظن أننا ملتزمون بأن نعيد لهم حريتهم؟"

"أنا لا أؤيد انفصال بيافرا، لذلك فأنا بوضوح مؤيد لدولة تضم كل الأقليات".

"كيف تريد إذن أن نضع حدا للانفصال؟"

"ليس بهذه الحرب خاصة".

"كيف؟"

"كيف؟ هل لديك أية أفكار غير مجردة أنت لا تؤيد هذا، وأنت لا تؤيد ذاك؟

إذا لم أحصل على مقترحات ملموسة وعملية، لن أطلب لقاء جوون، وإلا فإنى سأذهب إلى هناك للحديث مع أوجوكو".

"حسنا دعنا نحصل على هذه المقترحات، فما هى هذه المقترحات بالضبط؟"

"سوف أقول لجوون عندما ألتقى به".

"أخشى ألا يكون هناك ضمان بذلك. فإذا تحدثت عنها الآن معنا، فمن الممكن أن أعيد عرض رسالتك ولست أشك فى أنه يريد أن يراك".

"قلت لك إننى أمثل مجموعة مستقلة. ورسالتى لجوون وأوجوكو. ليس معى تفويض بالتحدث مع البوليس حول الموضوع".

"ليكن مستر سوينكا، فهيا نعود إلى حملتك لحرمان الحكومة الشرعية من وسيلة إنهاء الانفصال الذى تقول إنك لا توافق عليه. هل تزعم أن لك الحق فى أن تأخذ على عاتقك مهمة شن حملة على المستوى الدبلوماسى عالميا؟"

"تجربتى كانت على المستوى الدولى".

"أعرف. هذا الرجل الذى ذكرته، الرجل الذى كان أول من وضع الفكرة فى رأسك – إنه اسم مضحك".

"إنه برازيلى".

"وأنت تقول إنه نيجيرى.؟"

"لقد ولد وتربى فى لاجوس".

"أقول لك إنه غير موجود".

"إنه موجود".

"لذلك فإن هذا الرجل يظن أنك فى نيويورك، وطلبك فى التليفون، هذا رجل غير معروف نهائيًا".

"لقد قابلته من قبل".

"آه نعم، هكذا تقر أنت هنا. رجل أعمال. ظننت أنك فنان. هل لديك علاقات كثيرة مع رجال الأعمال، خصوصا هذه النوعية الشريرة؟"

"شريرة؟ لقد كنت أظن أنك سوف تكون ممتنا له ولى. كان بإمكانه أن يعمل لحساب بيافرا لكنه لم يفعل".

"لو كانت قصته حقيقية".

"لقد قبلت كلمته. لماذا يتعب نفسه بالاتصال بى لو لم يكن".

"ربما يعرف أنك مناصر للمتمردين".

"وهل أنا مناصر للمتمردين؟"

"هذا ما سوف نراه. لقد جاءك هذا الرجل، وحكى لك قصة الديك والثورعن أهل بيافرا الذين يطلبون منه أن يساعدهم بالسلاح. ورغم أنه كان سيحصل على ربح كبير إلا أنه رفض، هل تظن أن هناك رجل أعمال أمريكيا يترك فرصة للربح تفلت من بين أصابعه؟"

"هذا الرجل ليس أمريكيا".

"تلقى تدريبا أمريكيا إذن. إن أعماله فى الولايات المتحدة".

"إننى أعرف وطنيين نيجيريين من أصحاب الصوت العالى يتمنون أن يبيعوا السلاح لبيافرا لو وجدوا الفرصة".

"ربما صديقك هذا واحد منهم إنه نيجيرى أيضا أليس كذلك؟"

"منذ لحظة قلت إنه أمريكى".

" أو برازيلى،. من يعلم. قل لى يا مستر سوينكا، هل اتصل هو بك أم أن المبادرة جاءت منك؟"

"لقد أخبرتك من قبل أن صورتى ظهرت فى جريدة" نيو يورك تايمز" نتيجة لمقابلة صحفية. كنت هناك مرتبطا بفيلم. فبحث عن الفندق الذى كنت مقيما فيه وكلمنى هاتفيا".

"لماذا؟

"قلت لك من قبل، لكى يرى صديقا قديما ولكى نناقش هذا اللقاء مع مندوبى بيافرا".

"كان يريد أن يعرف رأيك" .

"نعم وأعطيته إياه. وأخذه هو. واتفقنا كلانا على هذه النقطة الوحيدة، من كل مانحرص عليه هو أن هذه الحرب يمكن خوضها بالقوس والسهم. لقد اتصلت تليفونيا ببعض الأصدقاء فى الأمم المتحدة.

وشاركوا فى النقاش. شكلنا مجموعة ضغط لتقف ضد توريد السلاح للطرفين. الحقائق موجودة هناك فى التقرير".

"آه نعم، مستر سوينكا، هذان الاسمان ليسا كذلك؟ أترى ما أعنيه، ألا ترى مستر سوينكا؟ أنت غير متعاون. كل مرة نصل فيها إلى مسألة الأسماء تقدم لنا أسماء لا نستطيع الوصول إليها. وهم إما ليسوا من نيجيريا أو أنهم لايقيمون فى القطر".

"لكن لماذا تريد الوصول إليهم؟"

"لماذا؟ ألا ترى الناس الذين يؤيدون قضيتك؟"

"هل لى قضية؟ لكنك اتهمتنى بلا سبب. إذا كان التنظيم ضد الحرب جريمة فإننى قد اعترفت بها. فأى شىء هناك يحتاج للتأييد؟"

"أنت لا يمكن أن تكون جادا فى إنكارك أنه ليس لك شركاء نيجيريين؟"

"شركاء يا معلام د؟"

"أنت تعرف ماأعنيه – زميلك – المؤيدون لك".

"ليس لى مؤيدون هنا".

"أنت تزيد الأمور صعوبة بالنسبة لك. أنت لا تتعاون مطلقًا".

"دخل على الخط خصم قديم. هو يوجوى، المدعى السابق الذى كان يحاكمنى سنة ١٩٦٥ بسبب تمثيلية إذاعية.

يوجوى كان له صوت دامع. تنبع عاطفة الشفقة عنده من إيمان مسيحى أصيل، إلا أنه كان يمكن أن يكون عديم الرحمة، ويقسو استجابة لمتطلبات مهنته. لقد رأيته خارج وداخل عمله البوليسى، وظهر لى إنه لم يفقد روح التقوى الإنسانية تماما. إنه واحد من نوعية لم تمارس الظلم أبدا مع متهم. (أما د. فقد اعترف فى لحظة ارتباك وحيرة أنه كان أحيانا يمارس الظلم) لقد انحنى يوجوى على الباب وأنصت لبعض اللحظات إضافة إلى بضع دقائق قليلة فى استجواب وتفتيش شكلى. من الواضح أن دخوله كان محدد الوقت وأنه انتظر فقط بالمفتاح الصحيح لكى يساهم فى مهمته. فى البداية كان بسيطا بدرجة كبيرة، يتكلم بمشاعر فطرية هى مشاعر الصديق العاطفى تماما لحد البكاء. توسل وقتا طويلا من أجل" التعاون" وهو يذكرنى بعائلتى وأطفالى. أخيرا تحرك نحو الغرض الحقيقى من زيارته زاحفا بطريقة ناعمة على سطح احتمالات" المكافأة" بمقعد وزارى فى مجلس الوزراء(*).

لقد أسمعنى عظة دينية مثيرة للدموع، تفيض بمعانى التقوى، وبالإشارات إلى الأنشطة الغادرة التى قام بها أهل بيافرا حين اقتحموا أراضى إقليمه فى الجزء الأوسط الغربى، وقاموا بأعمال التخريب فيه. تركنى مع هذه الأفكار الرفيعة، ولاحظ أن معلام د شعر أيضا بأننى أحتاج إلى فترة راحة وأخذنى فى حراسة إلى زنزانتى.

لكى يضمنوا أننى لم أنس الموضوع الأساسى للتفكير، دخل حجرتى ثلاثة وجوه مألوفة لى. السلاسل.

"ما هذا ثانية؟ لقد ظننت أن مسألة السلاسل قد سويت".

"معنا تعليمات بتقييدك ياسيد".

"لقد وافق معلام د. على عدم تقييدى بالسلاسل مرة ثانية".

"أقول لك إن هذه هى أوامرنا".

"أوامر من؟"

"الضابط النوبتجى. قال إن هذه هى تعليمات معلام. د. يجب أن نضع القيود فى رجليك فى المساء".

"عندما نزعت القيود تركت حرا اليوم بكامله".

"هذه هى تعليماتنا".

القيود تطبق على كاحل قدمى بصوت مسموع. قبل وصول معلام د فى صباح اليوم التالى كان قد تم نزعها. سألته ما وراء كل ذلك فنظر إلى مندهشاً.

"هل حاولوا أن يقيدوك؟"

"نعم فى المساء".

"اوه لكن إرر.... ظننت أنك فهمت. القيود يجب وضعها فى المساء. متى وضعوها؟"

"الساعة الخامسة وخمس دقائق".

"هذا شيء سخيف. أنا رأى أن توضع فى وقت متأخر".

"أخبرنى فقط، لماذا تجد من الضرورى تقييدى بالسلاسل؟"

"وصلتنا معلومات أنه يمكنك أن تحاول الهرب".

"الهرب من الطابق الخامس فى هذه القلعة. ومن أى طريق؟ من أين حصلتم على هذه المعلومات؟"

"حسنا، هذه معلوماتنا"

"فى هذه الحال سوف أستأنف الصيام".

"كما تحب. أنا لاأنصحك. هذا لن يساعدك مطلقاً".

"الهرب! عند تلك المرحلة بدأوا يضعون المخطط الأساسى".

"استمر الاستجواب يومين آخرين، متصاعدا فى حدته. أسماء! أسماء! أسماء!!! الكتالوج المعد للأسماء مر فى تسلسل سريع. متى قابلت إكس آخر مرة؟ فى أى شيء تكلمتما؟ قلت من قبل إن آخر مقابلة لك كانت فى لندن. لا، لم أفعل. د. يراجع الجملة أو يتظاهر بأنه يراجعها، يقول إنه آسف، واعترف مرة أو مرتين أنه بدأ يرتبك. فقط نصف الحقيقة. النصف الآخر من الوقت كان مندمجا فى اصطياد المشكوك فيهم. تزييف متعمد، حتى الإصرار على نسخه، ثم الامتيازات. إن تكتيكات الارتباك التى تدرب عليها وعلى كل الحيل أو المناورات. التكنيك الذى يمكنه بالرغم من ذلك أن يثبت فاعليته حيث يكون الضحية نفسه

ممن يلعبون بأسلوب المراوغة والتخفى. أنا لم أتورط فى التخفى بل فى عكسه. مرارا وتكرارا يقع معلام د فى الفخاخ التى ينصبها، لقد بنى كثيرا من الممرات الكاذبة (الوهمية) حتى إنه لم يعد يعرف ماهو المسار الذى ادعيت أننى سرت فيه. لاحظت ارتباكه المتزايد وحذرت نفسى ضد خطر كنت أدرك وجوده فقط نظريا. التعاطف.

من أجل إزالة هذا الخطر لابد من نمو العطف المتبادل بين المحقق والضحية. لقد فحصت علاقتى مع معلام د. وأعترف بأننى شعرت نحوه بتضامن جيلنا الضعيف. إنه صغير السن يفتقر إلى الثقة بالنفس، وهو يحاول أن يعوض ذلك بانفجارات عاطفة سلطوية. وبسبب عجزه عن إجراء أى تحليل عميق للأمور، فإنه يتشبث بنوع من الدوجما المزدوجة؛ دوجما السلطة فى داخل جهاز البوليس السرى، ودوجما السلطة فى داخل الحكومة. لم أستطع أبدا أن أقرر أى "داخلية" منهما هى الأقوى. هى (نوسترا كوسا دوجماتيزم) الخاصة بالمباحث السرية أو مظهرية السلطة المتلكئة البطيئة، المعروفة بقيادتها المتعاقبة لحكومات الشمال التى تتعلق لسوء الحظ بكثير من الشباب من أقرانه فى العمر. (أمينو ربما كان الوحيد من جيلى الذى أعرف أنه كان متحررا كلية من انعكاس هذا الشىء عن السلطة الإلهية).

لقد تساءلت إذا كان التشوش السياسى قد زود معلام د بإمكانية لنوع من الحقد التخريبى عند مرحلة أعلى، متذكرًا كيف أنه ذات مرة وضع رأسه على كفه فجأة وقال: "أحيانا يا وول نعمل أعمالاً...

نعرف أنها مخطئة. سيئة حقا. لكن هذا هو النظام. أنت تعرف، أننى بدأت بدراسة علم الإدارة. لقد ذهبت فى بعثة لإنجلترا لدراسة الإدارة. ثم نقلت إلى البوليس. ربما عندما تنتهى الحرب أعود ثانية. هناك أشياء رأيتها هنا تجعلنى... أفقد الإيمان بهذا الشىء المسمى العدالة".

"الحرب ضد الطغيان فى أوائل الستينات كانت تجد العون الكبير من رجال بوليس وضباط من الذين كانوا يعبرون عن مثل هذه العواطف، أو يشعرون بها. بعضهم ممن كانت مواقعهم الوظيفية تجعلهم فى حرج من الكفاح لم يعانوا سوى وخز القلق. إن مهمة النقاش (أو التخريب من وجهة نظر المؤسسة) كان قد بدأ التركيز عليه بمنتهى القوة، إلى أن ظهرت الحاجة إلى حليف ثان، انفتحت ثغرة ثانية فى هيكل النظام. فى بعض الأحيان كان مثل هذا التجنيد يتم نهائيا من خلال المصلحة الذاتية؛ الأمل فى أن ينجح الكفاح فى خلق الحاجة فى أن نلعب بطريقة آمنة، بأن نساعد أحيانا جماعة معادية للحكومة، لكن نواة من الغيورين على تحقيق العدالة، ظلوا ومازالوا، ليس فقط فى صفوف البوليس، والجيش، والخدمة المدنية، وهم يكونون طبقة تحتية مستقلة وراسخة من الرجال الشجعان فى داخل الجسم الشهوانى للحكومات المتعاقبة. ففى الوقت الذى لاينشغلون فيه بإنقاذ حياة الأفراد بإصدار قرارهم حول تفاصيل الخطط المدبرة ببرود للإبادة، فإنهم يجمعون ملفات الجرائم، والأعمال الوحشية والفساد المادى، التى يقوم بها كبار رجال السلطة المختالون بالثقة فى أنفسهم. إن غالبيتهم تعمل فى استقلال، دون ذكر أسمائهم،

مدفوعين فقط بالاشمئزازمما قد عرفوه، وباعتقاد أن مهمتهم هى أفضل من أن تكون سلاحا للمافيا النيجيرية. إنهم يخطفون الأفراد المعروفين لهم فقط بالاسم، وهم على شفا المضايقات الدنيئة، والمؤامرات الشيطانية التى تحاك على أسس مخلخلة، وحتى الاغتيال المدبر. وحيث يفشلون، فإنهم يسجلون ذلك، منتظرين اليوم الذى يمكن فيه فتح هذه الملفات وعرضها علنا على الجماهير.

بإعطائى كل انتباه لسمات شخصية معلام د، أفكاره غير المدروسة، مثالياته غير المستقرة، وتوسيع اللمحات التى أمدنى بها إلى أعماقه الداخلية، معترفا بالمعوقات التى تعطل طموحاته. بدأت أفكر فى الانتقام الحلو الممكن، بتدمير رجل هذه المؤسسة بمجرد انتهاء الصراع واستئناف الثورة الداخلية. كانت فكرة ثرية وأن عملية إعادة التربية والتحول الفكرى، شغلتنى ليلة أوليلتين وأنا جالس فى القيود لا أتحرك. وقد أكدت لى الأحداث فيما بعد أنه ليس مبتدئا، معلام د سوف يمضى إلى الأبد هو الدعامة القوية للكوسا نوسترا كوسا نوسترا...

الفصل السابع

فى الصباح أحضر أحد الضباط متهما آخر، نسخة ذكورية من المرأة التى ألقى بها فى حجرتى أثناء المرة الأولى لتولى وظيفتى. كان مريضا، روحه المعنوية منهارة، يدخن بلا انقطاع، وأصابعه تهتز. ينفض رماد سيجارته على نفسه. كان ينظر إلى بحذر من وقت إلى آخر. فى الخارج، كانت الممرات ترتجف من تدفق الحركة.

إن رؤية إنسان آخر يعانى تخلق عبئا فوريا على قوتى الذاتية، تُميت فى اللحظة على الأقل قلق الإنسان من موقفه الخاص. قررت أن أتكلم معه وأبعد عنه مخاوفه.

"لماذا قبضوا عليك؟"

كان طبيبا فى المستشفى التعليمى بجامعة لاجوس. لم تمض ثلاثة أسابيع منذ عودته من موسكو. بعد حصوله على درجة الدكتوراه. لقد تعرض أولا لمتاعب ضخمة نتيجة أنه درس فى موسكو. بين الأشياء الأخرى، فإن المستشفى التعليمى بدلا من تعيينه طبيب امتياز، وضعته تحت إدارة رئيسة المرضات. لم يصبر على هذا. وساءت العلاقة بينه

وبين رئيسة المرضات. كان اسمه يتكون من مقطعين ولا أستطيع أن أتذكره. لكن لأن له رنينا يشبه لغة الإيبو، فقد ذكرته رئيسة المرضات فى أثناء صداماته الثورية بأن وضعه مزعزع جدا. وفى النهاية وقعت بينهما مشادة علنية كبيرة، وحسب كلامه فإنها ألغت تعليماته الخاصة بأحد المرضى وفى الليلة التالية أتى إليه البوليس. التهمة: تقرير بأنه قال إنه لن يعالج أى جندى لأنهم جميعا قتلة.

أقسم دكتور إكس أن رئيسة المرضات وشت به؛ ورفض البوليس طبعا أن يكشف على أساس أى كلام تم القبض عليه، كما رفض أن يجعله يواجه من اتهموه وجها لوجه. لقد تم إلقاؤه فى معتقل إكويى حيث أصابه المرض، وأصبح خانعا. بعد أسبوع سمح له بزيارة قام بها رئيس قسمه فى المستشفى. وسواء كان من خلاله أو عن طريق شخص آخر تم إرسال تعليمات إلى أسرته لنشر إعلان فى الصحف بأن يغير اسمه إلى اسم يقل فيه رنين اسماء الإيبو.

"نعم لقد نصحونى بأن هذا هو الشيء الوحيد الذى يجب عمله ويجب أن يظهر فى الصحف اليوم أو غدا".

لم أستطع إخفاء اشمئزازى". هل غيرت اسمك بسبب هؤلاء الخنازير؟ "أنت دكتور، أى رجل زكى".

"تحولت عيناه مباشرة إلى الباب". معذرة، أنا أفضل ألا استمر فى هذه المحادثة. يبدو أنك تفترض أننى ضد الحكومة".

قلت له "أنا لا يهمنى من تكون. أنا ضد أى حكومة تسمح تحت قناع حالة الطوارىء باضطهاد الرجال الأبرياء".

"حسنا، هذا أنت. أنا لم أقل شيئاً ولا أريد الاستمرار فى هذا الحديث".

فهمت مشكلته وضحكت". أوه، إننى أعرف، أنت تظن أن البوليس زرعنى لأسمع ما يمكن أن تقوله؟ أنا لست مخبرا للبوليس".

لم يقل شيئاً، واستمر فى التدخين بعصبية". ربما تكون قد مررت باسمى خلال الأيام القليلة الماضية". هكذا قدمت نفسى.

كان رد فعله متوقعًا". أوه... آسف. أنا لست رجلاً سياسيًا. لست مهتما بالسياسة. ولكننى أعرف اسمك".

"حسنا لا تغضب منى. ولا تهتم بأى شىء قلته. لقد قلت أسوأ منه لمن يضطهدوننى. لن يصدقونى إذا قلت أشياء مختلفة".

غاص فى صمت غاضب مرة أخرى، ثم انفجر "كنت مريضًا جدا. فى البداية لم يكن لديهم رغبة فى علاجى. لم أستطع تناول الطعام وأظن أننى أصبت بفيروس. كنت أتقيأ وحرارتى ترتفع. أحضرونى اليوم لاستجوابى. هناك رجل جديد. لقد رأى حالتى المرضية فقام باجراء الترتيبات لذهابى إلى المستشفى".

قلت له: "لا تغير اسمك".

"أوه لكننا رغبنا فى تغييره فى داخل عائلتنا. أنت ترى أننا لسنا فى الحقيقة من الإيبو. نحن ننتمى إلى عائلة.... ولكن ترى أن عائلتنا انتقلت وأقامت مع عشيرة ال..".

استمعت إلى تاريخ العشيرة كاملا، هجرتهم، وصراعاتهم حول الأرض، وتزاوجهم. تصدعت أذناى. "لا تغير اسمك، كررت كلامى". انتظر للحظة ملائمة أفضل. أنت ترى أن هؤلاء الناس يحتقرون المثقفين. فإذا غيرت اسمك امتدحت أنانيتهم الوحشية..".

دخل الحجرة أحد المفتشين.

"أرجوك استعد. سوف تعاد إلى السجن. ثم نظر إلى رفيقى". السيارة هنا. سوف نأخذك إلى المستشفى بعد إنزال مستر سوينكا فى سجن كيرى كيرى".

يبدو هذا شيئا أجمل من أن يتحقق، لكنه لم يكن جيدا بدرجة كافية تماما. فإذا استطعت أنا أيضا الذهاب إلى المستشفى فسوف أجد الفرصة للاتصال بالعالم الخارجى. قد أستطيع أن أتصل تليفونيا بعائلتى.

قلت "لكننى حجزت للمستشفى أيضا".

"لا، هذا الدكتور فقط. أما أنت فسوف نأخذك إلى سجن كيرى كيرى".

"لابد أن هناك خطأ. من الأفضل أن تسأل معلام د. إننى يجب أن أذهب إلى المستشفى ثم إلى كيرى كيرى".

قال أكبان "معلام د. ليس موجودا فى هذا الصباح".

"قال بالأمس إنى سأرى الدكتوراليوم. ألن تأخذ هذا الرجل إلى المستشفى التعليمى أليس كذلك؟"

"نعم"

"حسنا إذا ذهبت للمستشفى أولا أستطيع أن أرى طبيبا".

هز المفتش كتفيه "دعنا نذهب" تضرعت ألا يلتقط معلام هذه الفرصة ويدخل علينا" كنا على وشك أن نركب السيارة عندما رأيت الغوريلا ينزل من سيارته ويتحرك نحو الممر.

غصت فى السيارة وهبطت فى ركن الكرسى عندما قفز المفتش وزميله انتباه. وعندما أخذت السيارة تتحرك بعد هذه المراجعة القوية سألت:

"من هو الرئيس الأعلى؟"

رد على الضابط الأصغر: "من؟ هل تقصد كينج كونج؟"

"أهذا هو الاسم الذى تطلقونه عليه؟"

"أوه، نعم".

"لابد أنه ذو مكانة رفيعة جدا. من هو؟"

"المفتش المساعد عيسى أديجو" ثم أضاف" أتمنى ألا يكون مسئولا عن قضيتك.". "لا، لماذا؟"

"نحن نسميه مندوب التعذيب أو كينج كونج. فى الحقيقة إنه يحمل ألقابا أكثر من جوون نفسه. على أى حال فإنهم لن يضعوا رجلا مثل هذا لتولى قضيتك. إنه أمى جاهل".

رد عليه المفتش بحدة "اسكت، وتوقف عن كلامك السائب. سوف تتعرض للمتاعب فى يوم من هذه الأيام".

"أوه هيا تقدم يا أوجا. أنت تعرف أنك لن تقول كلمة صادقة عن حديثى اليوم. هو وذلك الرجل السخيف، جاءا من نفس الأم".

فى المستشفى رأيت الطبيب الذى يعالجنى، كوكوأداديفوه. بقى المفتش ملتصقا بنا. شكوت لكوكو أننى أحس بأعراض مرض قديم. إننى أعرف الروتين – سوف يأخذ عينة ويطلب منى أن أعود إليه ثانية. ذلك هو كل ما يهمنى – أن أنشىء صلات فى الخارج.

كما توقعت طلب منى أن أعود لعيادته بعد ثلاثة أيام. هذه المرة قامت إدارة السجن بترتيب الزيارة. وبعد عشر دقائق من وصولنا أطبق فرع الأمن على العيادة بتوقيت دقيق. عندما نظرت فى الممر رأيت معلام د، وضابط آخر والمفتش. نظرت إلى الخارج ورأيت هناك فى موقف

السيارات عربة واجون محملة بضباط الأمن. أحسست بالحزن عندما أصر رجال الأمن على أن يذهب كوكو معهم. لقد رأيته قبل ذلك فى صحبة الطبيب المذعورالقادم من موسكو. شعرت بعبء رهيب بالذنب لايمكن التسامح معه ملقى على كاهلى.

تكلموا أولا مع كوكو فى مكتبه بينما كنت أنتظر بلا حيلة خارج المكتب. ثم خرج الاثنان. ذهبا إلى الحمام فى الباب التالى بعد العيادة وفتشاه، نظروا فى الشبابيك حول المبنى، وعادوا ليلوموا ضابط السجن لأنه لم يمكث فعلا معى فى مكتب كوكو. رد عليهم بتحد بأنه يعرف عمله وليس من شأنهم أن يعرفوه كيف يؤديه. (شىء غريب، هذه مصادفات أخرى. كان هذا الضابط أخا لإحدى الممثلات فى فرقتى التمثيلية) تناقشت مع معلام د. حول التحرش بالطبيب ومجافاته للعدالة، ورجوتهم أن يتركوه لحال سبيله. سمح له أن يأتى بسيارته مع سائق. وانطلق الموكب إلى فرع المباحث (E).

بدافع هذا الشعور بالذنب الذى يجتاحنى تغير مزاجى إلى غضب. لم يعد الندم يجدى شيئا، على أننى تسببت فى توريط كوكو فى مشكلتى. كل شىء أصبح يتركز الآن على هذا العدوان الذى لايمكن التسامح معه على حياة رجل برىء. وقبل أن نغادر المستشفى اصطحبوا الدكتور أداديفو إلى مستشفى الجراحة الذى يعمل فيه وأخذوا معهم كل الملاحظات حول حالتى الصحية وعينات التحاليل والشرائح. أما تقارير المعمل فلم تكن قد أعدت بعد فأخذوه إلى المعمل، وطلبوا التقارير واستلموها، وأخذوا كل شىء إلى فرع المباحث (E).

فى اللحظة التى انفتح فيها باب المصعد لم نكد نضع أقدامنا على أرض الطابق الرابع، حتى واجهنا لجنة استقبال عنيفة فى شكل الغوريلا. وفى الحال بدأ فى إصدار أوامره بأعلى صوت. لقد امتلأ الرجل بالإحساس بالقوة وبممارستها. والرجال من ذوى الملابس البسيطة يندفعون فى مئات الاتجاهات لتنفيذ الأوامرالتى يعجزون عن معرفة عددها من كثرة المرات التى يصيح فيها ويشتم. وأبسط كلمة سباب هى: "لا تكن غبيا إلى حد اللعنة، ليس هناك". كانوا يسقطون بعضهم فوق بعض وهم يفتحون الأبواب ليغلقوها ثانية. وسقط معلام د. وزميله فى نوبة تهيج شديد، مشيرا إلى مائة اتجاه، ومتوقعا أن نسايره فى خطوات العشوائية غير المعقولة. ولو لم أر وجه عيسى أديجو المكرمش وتعبيرات الذعر والخنوع على وجوه رجاله، لاعتقدت أنه تدريب معد عمدا لدفع أحد المتهمين إلى الجنون. إنه مستشفى مجانين يديره أو يسىء إدارته هيكل بشرى مختل العقل. عند لحظة معينة دفعت بقوة أنا وضابط السجن إلى داخل الحجرة فقط ليفتح الباب مرة ثانية ويخرج أوكوتى المسكين مربوط الساقين واليدين ووجهه إلى الأرض ليأخذوه فى اتجاه آخر. لم تمر ثانيتان حتى فتح الباب ودخل حجرتى ضابط وقال لى: "أنت تعال معى الآن".

نهضت ببطء بقدر ما استطعت وسرت وراءه بخطواتى المعتادة. الباب التالى، كان المكتبة. لم يكد الباب يغلق بقوة حتى انفتح ثانية وزرع أحد الضباط داخل حجرتى ليمكث كمصيدة. لقد وجد لنفسه مقعداً أمام

النافذة وتمتم لنفسه كلاما غامضا. قبل أن يغلق الباب تماما سمعت صوت كينج كونج الذى لا يمكن تقليده، يستخدم نفس السجل الهيستيرى الذى استخدمه من قبل مع المفتش القادم من إبادان:

"أنت أخذت رشوة، أعرف أنك أخذت رشوة. لو أن معى بندقية الآن لقتلتك رميا بالرصاص دون أى اهتمام" كنت متأكدا أن ضحية هذا الوابل من الأسئلة كان هو المفتش الذى أخذنى فى أول زيارة للمستشفى".

تمتم الضابط الذى معى، "مسكين...". نهض من مكانه وذهب نحو الباب واستمر ينصت.

بعد خمس عشرة دقيقة تقريبا انفتح الباب وصوت الوحش بذاته يطل علينا ! لقد كرر تلك الحملقة الطويلة التى ظن أنها يمكن أن تبيدنى من أول مواجهة. ألقيت نظرة سريعة نحوه، ثم أدرت له ظهرى.

أغلق هو الباب بقوة اهتز لها المبنى كله.

لم تمر خمس دقائق حتى دخل معلام د الحجرة - "تعالى من فضلك". تنهدت وتبعته. أخذنا المصعد ونزلنا وخرجنا من الباب، ثم، واصلنا سيرنا، مما أدهشنى، خلال البوابة حتى العالم الخارجى. انتظر حتى تهدأ حركة المرور ثم عبرنا الشارع إلى المبنى المقابل لبوابة البوليس حيث المستشفى الخاص الذى يديره دكتور... الطبيب الذى اكتسب شهرة سيئة بعد أن تحول إلى شاهد حكومى ضد طاركا، وإناهورو،

وأولولو إلخ، فى محاكمة الخيانة سنة ١٩٦٣. فماعسى أن تكون هذه اللعبة الآن؟

كان ذلك الطبيب الطيب ينتظر وصولنا. خرج إلينا ويده ممدودة، معتذرا لأنه سوف يتركنا ننتظر لحظة أو اثنتين حتى ينتهى من المريض الذى معه. لم يحدث أن قابلته من قبل، وأدهشنى أنه يخاطبنى بألفة شديدة. نظرت إلى وجه الرجل، وجه ضفدع منافق. كان رفضى له مباشرا. بينما كنا ننتظر فى الخارج، لم أستطع مقاومة التفكير كيف أن كل من قابلناهم يواصلون اتصالاتهم معا فى عناد.

قبل اندلاع الحرب وجدت نفسى على نفس الطائرة مع أخيه، وهو معرفة قديمة جدا ورجل أعمال. فى رحلتنا دعانى للإقامة فى شقته فى ميدان دولفين. خلال حكم باليوا ساهمت بعض المصادفات فى أن تجعلنى أشك فى أنه يعمل كجاسوس لحساب قوى خارجية، أولحساب الأمن الداخلى. ذات مرة اقتنعت أن وجوده فى بلد معين فى الوقت الذى كنت فيه خاضعا لرقابة بوليسية مستمرة ليس محض صدفة. تحديته فى الطائرة حول وظيفته الحقيقية. فأكد لى أنه ليس جاسوسا وإنما رجل أعمال. تقبلت دعوته ومكثت فى شقته أياما قليلة بدافع الفضول. كل من اتصلوا به كانوا رجال أعمال يسعون لتأسيس شركات فى نيجيريا. لم نثبت شيئا ولم ننف شيئا. لكن إذا كان جاسوسا، فهو بالتأكيد رجل أعمال خطير. ورجل مضياف. لقد استمتعت بإقامتى القصيرة فى ميدان دولفين.

والآن أجد نفسى فى عيادة أخيه - منتظراً ماذا؟ لم أسأل معلام د. ولكنى انتظرت. خرج الدكتور... ودعانى للدخول.

"حسنا يا وول ماذا هنالك؟"

حملقت فيه. ماهذا "يا وول" أسلوب غير مهذب.

لم يتراجع، بل اتسعت ابتسامته أكثر، وصارت أكثر مداهنة، وبدا وجهه عبارة عن طية من الدهن. يلوح بيدين مسطحتين لا يبدو فيهما عصب أو شىء من العظم.

"كل هذا، لماذا يتحرش بك البوليس هذه المرة؟"

من الأفضل أن تسألهم هم، أليس كذلك؟

"ماذا فعلت؟"

"ألم يخبروك؟ انظر، فقط قل لى، ما هو المفروض أن أفعله فى عيادتك؟"

"أنا لا أعرف. فقط طلبوا منى أن أفحصك. هذا كل شىء".

"تفحصنى؟ لأى سبب؟ عندى طبيبى المختص".

أوه حسنا، أنت تعرف أننى أحيانا أقوم ببعض الفحوصات لهم..".

"هم. من هم؟"

"رجال البوليس".

"أنا أعرف، لحظة" وقفت وخرجت. لم يزل D واقفا بالباب". أريد أن أتحدث معك".

"هل انتهى؟"

"إنه لم يبدأ. هل يمكن أن تنزل معى قليلا؟" اصطحبنى، وهو يشعر بالحيرة".لا أريد أن يفحصنى هذا الرجل".

"ماذا جرى؟ هل تعرفه؟"

"لا أريد منه حتى أن يلمسنى. لا أريد أن يضع يده على جسدى مرة أخرى، هل تفهم ذلك".

تغير أسلوبه فى الحال، " أنا آسف، ولكن هذا هو الطبيب التابع لنا. أنت تقول أنك مريض ونحن مضطرون أن نجعله يفحصك".

"إذا كنت تخشى من أطبائنا خذنى إلى مستشفى حكومى حيث يتم فحصى".

حسنا، إنه ليس إر... مريحا. يجب أن يكون د..."ثم إنى لا أتعاون. اسمع يا د. لقد تعاونت حتى الآن. لقد كنت قابلا لوضع القيود فى رجلى ولكننى لن أقبل أن يفحصنى هذا الرجل". تحول معلام د إلى رجل غاية فى الوقاحة". هذا شىء سيئ جدا. إذا كنت لا توافق على الفحص فإنك تزيد الوضع حرجا".

ضحكت". حرجا لى؟ كيف تقترح على أداء ذلك؟"

"لقد كنت رقيقا معك بدرجة كبيرة. . لقد عاملتك فى الحقيقة معاملة حسنة. لكن إذا بدأت ترفض التعاون الآن فسوف تجعل الأمور حرجة جدا".

كررت له قولى "أنا لا أهتم بما تفعل. لن أُفحص على يديه". "ليست بالنسبة لك. بل سوف تجعل الأمور محرجة للجميع" التقت عينا د بعينى برهة ثم استدار بعيدا وهو يكرر" سوف تجعل الأمر صعبا بالنسبة للكل" معنى كلماته كان واضحا لا يخطئه أحد.، لكننى أردته أن يكون بلغة واضحة.

"هل تشير إلى طبيبى المختص؟"

"أنا فقط أكرر ما قلت. قلت أنت فى المستشفى إنك لاتريد أن تسبب متاعب لطبيبك. حسنا، فمن الأفضل أن تتعاون".

وكأن التوقيت كان مدبرا، فقد وصل أحد الضباط حينئذ وسلم معلام د. كارت العلاج الخاص بى فى المستشفى وتقارير المعمل. أخذها معلام د وانتظر قرارى. استدرت وسبقته إلى مكتب الطبيب، حيث كان الرجل الطيب ينتظرنى بتزلف سخيف متوقع.

"أخلع ملابسك لو سمحت".

خلعتها لكن عينى لم تفارقه، لم تفارق يديه والآلات التى يلتقطها. بينما كان يتحسس صدرى بسماعته كنت مستمرا فى مراقبة يده الأخرى وماذا تفعل. لقد قرر أن يأخذ عينة من دمى ومراقبته من أى

مكان التقط الدبوس لأخذ العينة. بعد العينة انتظرت لأى إحساس بالدوخة أو الدوران، وعينى على المشرط لكى أجز رقبته عند أول بادرة خيانة. إن إحضارى إلى هذا الطبيب، والابتزاز الذى مارسوه على طبيبى الخاص كان ينمى فى نفسى جنون الاضطهاد. لكن الفحص انتهى بدون أى حوادث.

"ارتد ملابسك" ثم "والآن أخبرنى، هل تريد أى شىء؟" أنت تعرف أننى طبيبهم، إذا صدر عنى أمر فإنهم سوف ينفذونه. هل هناك نظام غذائى خاص تحب أن أوصى به.؟ أى شىء، أنا هنا لكى أساعدك على أن تعرف".

تطلعت إليه، شاعرا أننى أود أن أبصق على وجهه. لكننى ابتسمت فى النهاية". أنا لا أحتاج إلى الطعام. إننى أصوم نصف الوقت. أنا محتاج للابس. ليس لدى سوى هذه الملابس وأنا أشعر بالبرد الشديد فى بعض الأمسيات".

وكأننى منحته بركة فتمتم "حسنا، حسنا، حسنا، ثم ابتدأ يكتب بعصبية". أى شىء آخر؟ أمتأكد أنك لاتريد طعاما خاصا؟"

نهضت وخرجت إلى الشارع. توقفت ونظرت إلى د. أريدك أن تعرف أننى خضعت إلى ذلك على كره منى. بالنسبة لى فهذا أكثر التجارب إذلالا. كنت مشمئزًا إذ أضطر للخضوع للكشف بواسطة هذا الرجل وأنا أحتج على هذا الإذلال".

"إذلال؟ لماذا تسميه إذلالا؟ إنه طبيب كفء أليس كذلك؟" إن الذى يهمنى فى هذه اللحظة هو مصير طبيب المختص. هل ستطلق سراحه أم لا؟"

"لا تقلق بشأنه؟ سوف يكون بخير؟"

"هل ستطلق سراحه الآن؟ الآن؟

"نعم".

"فى بعض المواقف بدرجة أكثر حتى كثيراً من المعدل المعتاد، أن تصير اللمسة شيئًا شخصيًا، حميميًا، نفسيًا، عاطفيًا، سياسيًا، وفكريا. أن يلمسك مخبر بوليسى يحتمى بعلم الخدمة الطبية، وكذلك تحت حماية عينة من تلك النوعية من المرضى النفسيين، أن يلمسك، أو يخدش جسدك، أو يفتشك مثل هذا الكائن فهذا تدريب فى الانحطاط.

أن رد فعلى القوى ضد لمسه لجسمى لابد أن يلقى تعبيراً قوياً مساويا للكلمات التى التصقت بذهن معلام د. أو فى ذهن رؤسائه الذين لابد أنه قدم لهم تقريراً. لم يكن من قبيل الصدفة تلك الصياغة الدقيقة والقريبة جدا من التى استخدمت فى حكاية الهروب الشهيرة.

يمكن التكهن بأن البوليس و(الحكومة) قد أصيبا بالذعر بعد الحادثة العلنية فى المستشفى. فاندفعوا فى اليوم التالى يذيعون فى الصحف خبراً يقول "إنه ينام جيداً، ويأكل جيداً، ومسموح له بزيارة طبيبه".

الفصل الثامن

مكثت فى رتابة سجن كيرى كيرى التى استقرت على روتين اقرأ – تنزه – اقرأ – كل – اقرأ – نام. ليس هناك مزيد من استجوابات – هذا الكثير الذى تعلمته. الكتب؟ أساساً روايات رخيصة على رف صغير فى مكتب المراقب. لا توجد مكتبة بالمعنى الصحيح. لقد سألت إذا كان فى الإمكان الحصول على الكتب من المكتبة الرئيسية فى المدينة لكن حادثة المستشفى تسببت أخيرا فى تضييق القيود على المعتقلين فى سجننا. لقد صدرت تعليمات بدائية متخلفة غير إنسانية باسم الأمن، عن طريق الجيستابو لحبس المعتقلين فى حجز أشد ضيقا، ليقللوا اتصالهم بالعالم الخارجى إلى مستوى الصفر. وهذا يشمل المعتقلين القدامى، أولئك، يشبهون "الصناديد" تم القبض عليهم من عهد أيرونسى. والمراقب، بعد موقفه الشجاع بخصوص خطفى من المستشفى يلعب سرًا، متذكرا حقيقة أنه ينتمى إلى قبيلة متهمة. الاستثناء الوحيد كان هو الجنديان اللذان قتلا المصور من قبيلة الإيبو. هما وحدهما كانا يستقبلان خطابات، وصحفا، وزوارا بصورة مستمرة، كما كان مسموحا لهما بمغادرة السجن فى الصباح والعودة إليه فى المساء فى أى وقت يوفر فيه

الضباط عربات تحملهم بعيداً "للاستجواب". كان تصرفًا منتظمًا أن تراهما يقفزان، يختطفان بعض الملابس ويندفعان إلى الخارج نصف عرايا، وهما يصيحان "أكيد، أكيد" لطلبات معتقلين من السجائر والبضائع المهربة الأخرى.

وهكذا حتى حدث فى أحد الأيام، بطريقة حتمية، أن صدر الأمر بإطلاق سراحهما. أما المعتقلون الآخرون فقد قفزوا ليصفقوا لهما على ظهورهما ويصيحون "تهانينا". ثم لزم السجناء الصمت دون أى تعبير. أحد المعتقلين سأل الشاويش، "أراهن على أنك حصلت على ترقية". وتوقف جاك بالانس عن عملية التنظيف وأضاف بقوة: "أكيد، يجب أن يرقوه. تخيلوا كل هذا الوقت الذى قضاه هنا". بقيت مذهولا فى زنزانتى فحين كانت صيحات التهانى تدور من حولى، لم أستطع أن أصدق أن ما أسمعه كلاما صحيحا. أما بقية السجناء الذين يسكنون الزنزانة الخلفية بسبب مخالفات متنوعة جلسوا وأخذوا يحملقون. عندما سكنت الضجة وأغلقت الأبواب خلفهما، خرجت لألقى نظرة على وجوه صانعى الفرح، كنت متلهفا على معرفة مستوى الأمانة. هل يمكن أن يكون إطلاق سراح شخص مصدرا ليبعث فى صدورهم أمل الخروج للحرية بصفة نهائية؟. لقد وجدتهم جالسين فى الفناء بوجوه ساهمة خالية من أى دلالة على الفهم. لقد انطفأت العاطفة بنفس الطريقة المصطنعة التى أثيرت بها. لقد همس أحدهم "خنازير قتلة"، ثم عاد إلى زنزانته. البعض الآخر هز رأسه، كما لو كانوا غير قادرين على تصديق ما حدث.

إذن لماذا؟ لماذا القبول الكاذب؟ إنه يعنى شيئا واحدا. إن هذين القاتلين قد استعرضا هذه القوة بصورة ظاهرة داخل المعتقل، وإن إطلاق سراحهما غير الطبيعى، وبالطرق المنحرفة والظالمة، قد أضفى عليهما هذه السلطة، حتى إن كل معتقل فى داخل هذا البلوك أحس إحساسا غريزيا، أنهما وقد خرجا إلى الحرية، فبإمكانهما أن يقولا كلمة لصالحهم. إنهم بإطلاق صيحة التهنئة والقبول بتسريحهما من السجن، إنما كانوا يعلنون لهذين القاتلين من أدوات الإبادة الجماعية الحكومية، أنهما مواطنان طيبان، ومخلصان للحكومة.

بعد ثلاثة أيام، لم أعد قادرا على قبول الانتظار بين جدران السجن، فبدأت فى كتابة الخطاب لزملائى السياسيين. إننى أستعمل هذا المصطلح مفضله على مصطلح "رفاقى السياسيين"، لتمييز مدخلنا إلى مواقف الصراع. ولتمييز أولئك الذين يؤمنون من ناحية أن السجن - مستشهدا بهذا للوضع الحالى - هو نوع من الأرض المقدسة، الذى يجب على النزيل فيه ليس فقط أن يطيع قوانين السجن، بل أن يمتنع عن التورط فى الكفاح الذى وضعه هناك. وأن يسلك بنفسه دائما تلك الطريقة التى يمكن أن تؤدى إلى إطلاق سراحه فى وقت مبكر. على الناحية الأخرى، كرفاق، هؤلاء الذين يعترفون أن السجن هو فقط مرحلة جديدة، لابد من إطلاق شرارة الكفاح عندها.. ذلك السجن، بالأخص السجن السياسى، هو مبنى مصطنع فى كثير من المعانى، أكثر من كونه شيئًا يجب تذكر خداعه وإظهار عجزه. ليس فقط الظلم داخل السجن هو

ما يجب أن نتناوله، ليس فقط استمرار السلطة الفاشية الخارجية التى تمارس نفوذها داخل السجن هى التى يجب هزيمتها، وإن كان هذا يؤدى بالطبع إلى تشكيل تقييم قدر النزيل فى النضال. فحيث تفرض الضرورة، وحيث يدعوه ضميره الاجتماعى، فإن الالتزام بمبادىء مطلقة لا يمكن أن يعطيه عذرا يبرر عدم تحركه، وإدارة ظهره للقتال من أجل إقامة مجتمع عادل.

بينما كان زملائى يرتعدون من مطالب هذه الدعوة المتجددة للعدالة، وصلت أنباء عن العثور على الخطاب إلى واحد من مئات العملاء الحكوميين، من بين هيئة التدريس الأكاديمية فى إبادان. فحاول الحصول على الخطاب، أعد منه نسخة (فوتستات) وسلمها بإخلاص شديد لرؤسائه العسكريين.

قبل الخطاب، كان هناك قرار قد اتخذ بشأن إطلاق سراحي. فى أعقاب تقرير معلام D. وشينكافى، لم يكد التقرير يعد - لم أكن معتقلا رسميا بعد- حتى تسربت المعلومات عن طريق مكتب الإعلام بإدارة الشرطة. وحملت الخبر عمليا إحدى الصحف:

مأساة الموظفين الشباب المتحمسين فى الجهاز مثل معلام D، هى أنهم يتخيلون أنهم على دراية كاملة بالدوافع المختلفة للسلطة، لأنهم يرون فى أنفسهم جزءا من هذه السلطة. عندما يسمحون لأنفسهم أن يُستخدموا لأهداف دنيئة، يظنون أن أفعالهم فى حقيقتها هى أعمال

للدفـاع عن النفس، لأن الضـحيـة وجـه نشـاطه ضـد وجودهـم فى داخل السلطة. يظنون باختصار أنهم فى داخل أعماق السلطة، السرية، حيث إنهم يعرفون كل شىء. إن قرارى بالإشارة إلى الحرف الأول من اسمه. يرجع فقط إلى شبابه وسذاجته، وإمكـانية أن الأفـراد مثله يمكن رغم ذلك إنقـاذهم.

أما البقية الباقية من أمثال، عيسى أديجو، كيم ساليم، فيمى أوكونو، ريمى إلورى الطبيب، إلخ، فـهى نوعية لاخلاص لها، لايختلفـون إلا فى درجة الوحشية أو الانتهازية.

بالكشف عن أسـرار الخطاب إلى أحـد أعـضـاء المجلس العسكرى الأعلى دخلت مشكلتى مرحلة جديدة تختلف تماماً، عن أى وقت مضى، أصـبـحـت مـسـألة حـيـاة أو مـوت. كـانت كل المعلومـات التى ترسل إلى البوليس عن نشاطى تنقل إلىّ حتى داخل السـجن؛ كانت متاحة بسـهولة لأنه من بين الأسباب الأخرى، أنها لابد أن تطبخ أولا، ثم تناقش، وتغربل لكى تقوم أجهزة الدعاية والمخابرات بتقييمها. فالإحساس بالسلطة، عن طريق المشاركة فى أحداث تاريخية فتح أفواها كثيرة بدرجة لا تكاد تصدق. لقد ذهبت هذه الوثيقة القاتلة مباشرة إلى أيدى المسئولين فى قمة الهرم العليـا. فـجـأة أصـبـحـت أجـهزة البـوليس والأمن على علم بـأن هناك قوى أخرى غيرهم تعمل. رجل واحد فقط من الجيستابو سمح له بحضـور اللجنة الداخلية التى اجتمعت للتآمر على حياتى. كان هذا وحش بيلسين، عيسى أديجو. واختيررجل واحد فقط من المدنيين من مجلس المفوضين هو فيمى أوكونو، نائبا فى الحكومة عن لجنة العشرة.

الباقون مثل معلام د. وتونى إنهارو كانوا مجرد أدوات جاهلة، مغلوبة، وبما أنهم اليوم كما كانوا، فسوف يكونون دائما فى أيدى سلطة لا ضمير لها.

فى صباح أحد الأيام وصل ضباط الأمن إلى السجن. أخذونى إلى أحد المكاتب، ولدهشتى، أخذوا بصمتى. سيطر على الغباء لحظة، فداعبنى الأمل فعلا بأننى على وشك أن توجه إلىّ تهمة بشكل رسمى، ويتم إعداد بعض الأوراق استعدادا لمحاكمة قادمة. لكنهم حزموا دواية الحبر مع بصماتى فقط. ورحلوا. فى وقت متأخر من ذلك المساء استقبلت زائرا هو زوجتى. تحدثنا معا حوالى ساعة، ليس حديثًا خاصًا بل كان فى حضور معلام د. وثلاثة من موظفى السجن...... .

تم الاجتماع فى مكتب المراقب العام. وفى اليوم التالى صدر تصريح صحفى أعلنه طونى إنا هورو.

نشرت جريدة الصنداى بوست فى ٢٩ أكتوبر ١٩٦٧.

"أن مستر وول سوينكا، الكاتب المسرحى الشهير، ورئيس قسم الدراما وأستاذ للغة الانجليزية بجامعة لاجوس، تم اعتقاله ضمن الإجراءات المنظمة لحالة الطوارىء".

مستر سوينكا لسوء الحظ على علاقة بأنشطة تجسس لحساب قائد المتمردين أوديميجو - أوجيكو ضد الحكومة العسكرية الفيدرالية.

وقد أكد الرئيس إنا هورو أنه مفوض من الحكومة العسكرية الفيدرالية للإدلاء بهذا التصريح.

ثم قال المفوض إن تحقيقات البوليس أظهرت أن مستر سوينكا كان فى بلدة إينوجو فى السادس من أغسطس مع زعيم المتمردين، أوديميجو - أوجيكو، وقيل إن مستر سوينكا كان قد صرح بأنه جاء لعمل ترتيب مع مسترأوجيكو للمساعدة فى شراء طائرة نفاثة لكى يستخدمها زعيم المتمردين.

وفى نفس البيان قيل إن مستر سوينكا قد صرح بأنه قد غير رأيه حول هذا الأمر منذ ذلك الحين.

وفى ٩ أغسطس كان مستر سوينكا فى بنين مع الكولونيل فيكتور بانجو، واتفقا على المساعدة فى القيام بانقلاب على حكومة الجزء الغربى بنيجيريا. أكثر من هذا أن مستر سوينكا اتفق على القيام بانقلاب تالٍ على الحكومة العسكرية الفيدرالية. هذا ما صرح به المفوض للصحافة".

كان التصريح مرتبا بدقة جميلة ومركزا. المكافأة المنتظرة لإعادة الوحدة الوطنية أدخلت الصورة التالية فى عقل أحد القراء. إنه مكافأة لـ"اعتراف" الخائن النادم، فقد سمح له بزيارة من زوجته. وهو سعيد وراضٍ يحس بالراحة والسرور بعد أن أخرج كل ما كان يثقل صدره. الآلة العسكرية لديها بعض الخبراء فى علم النفس الجماهيرى، وهم يتولون العمل فى الشئون التى تتعلق بى.

الفصل التاسع

كل شيء كان يجرى فى طى الكتمان داخل جدران السجن. لقد قام الجيستابو بعمل تعتيم كامل عن العالم الخارجى بالنسبة لى، وكل النزلاء فى الزنزانة الخلفية قبيل المؤتمرالصحفى الذى عقده إناهورو. إن أى دحض أو تفنيد لما قاله سوف يكون محيرا. وسوف يبرهن أنه خطير، ويؤدى إلى الشك فى أى رواية تقال حول تنفيذ الفصل النهائى فى الخطة. ففى يوم المؤتمر الصحفى لم تظهر صحيفة واحدة فى البلوك. وحتى روتين الخدمة الخاص بالمعتقلين لم يتم تنفيذه؛ وكان من المعتاد أن تقدم لكل معتقل إحدى الصحف لقراءتها، يقوم بتوزيعها عليهم أحد كبار الضباط. فى صحبة المراقب العام. يوقع السجين على إيصال استلام ويحتفظ بنسخة منه: ربما لم أعتقل فى الحقيقة أبدا، لأن توقيعى على هذا المستند أصبح مفقودا! إن ستار التجاهل الرقيق الذى حاولوا أن يغلفونى به، لا يستطيع أن يصمد فى أى قضية. وبصرف النظر عن خطوط اتصالاتى الخاصة، فإن كرمة العنب الموجودة بالسجن لها قرون استشعارطويلة. وعند الظهر كنت قد عرفت الأخبار، ليس فقط بل أمسكت فى يدى بقصاصة من صحيفة. لقدكنت أفكر فى بشاعة

الموقف. كان خط اتصالاتى الخاصة يعمل من خلال شخصين من المخلصين اللذين أقاما فى مكتب بريد الجيش بالسجن. كانا يستخدمان اسمى "دان" و "سوجو". معظم ساعات النهار، كانا متواجدين عند كوخ عرق البلح، حيث كانا يشربان الخمر بكثرة مع الجنود ويلتقيان مع السجانين خلال نوبات العمل، أو فى أوقات الراحة. وكانا يتصلان بسهولة مع المساجين الذين يعملون خارج جدران السجن فى قطع الحشائش فى حدائق كبار موظفى السجن أو طلاء جدرانهم.

فى كل يوم كان واحد منهما يلتقى مع صديق مشترك، ضابط من الجيش يقوم بمهام غريبة غير محددة. كنا نسميه" ج" إننى مدين بحياتى ليقظة هذا الثلاثى.

بعد ظهر يوم الاعتراف المنشور تلقيت هذه المذكرة من دان:

"سوف ينقلونك ليلا. ينتظر وصول طائرة إلى مهبط الطائرات قبل حلول الظلام. جهة الوصول رسميا مدينة جوس، لكن ليس هناك جهة محددة بطريقة موثوق فيها. هل تفهم؟ يقول "ج" إنه سوف يتابع الأمر لكنه يحتاج إلى وقت. هامش الأمان ضيق جدا فى هذه اللحظة. هل يمكنك خلق انفجار، أى انفجار؟ إذا أمكن حالة شغب على مستوى كبير. جرب من فضلك. افعل أى شىء لكسب الوقت. على فكرة، هل تعرف من هو بيتر؟ هو هناك رجل الداخل – لاتسمح له بالاقتراب منك.

بيتر؟ إذا كان هو حقيقة فقد أحسنوا الاختيار. بيتر وأنا نهش ونبتسم لبعضنا بعضا يوميا لكننى أعرفه جيداً. السجانون يتحدثون عنه

فى أغلب الأحيان، وكذلك المساجين. لكن السجانين بصفة خاصة مندهشون لأسلوبه المليء بالغطرسة والتكبر، وصعوده الصاروخى، و"علاقاته"، مستواه العلمى سادسة ابتدائى. بدأ حياته نجارا يعمل فى خدمة السجن ورغم أنه لايتميزبأى موهبة خاصة، فقد تم إرساله للتدريب فى إنجلترا على حرفة تشغيل السجون. عند عودته تمت ترقيته مباشرة إلى درجة تلميذ ثم فى قفزه سريعة إلى مساعد المراقب العام. المساجين يتحدثون بمرارة بسبب صعوده نتيجة للتحيز القبلى. لقد لاحظت أنه يتميز بخصلتين هما: الخمول والقدرة السادية التى لا تصدق. لقد شاهدتِه فى إحدى العمليات ضد مسجونين جىء بهما للاستجواب فى زنزانة مجاورة. المساجين يسمونه الوجه المفرطح. كلاهما: السجانون والمعتقلون يعلنون أن طموحه فى الحصول على الوظيفة، دفعه إلى تدبير عملية قتل غير رسمية لرئيسه بواسطة جنود من المتمردين، من سكان اليوروبا وسكان الشمال من أجبومالو. فى وقت غزو الجزء الأوسط الغربى. عندما أخذوا المراقب إلى الغابة لمدة ثلاثة أيام قام هو بإدارة السجن. مذاق حكمه لهذه المدة القصيرة، وحد بين السجناء وحراس السجن ضد مشروع خلافته واقعيا فى المنصب. وقد شعروا بالسعادة عندما عاد أسابا فيوجتيف. (الهارب من قبيلة أسابا)

دفعتنى غريزتى الفطرية لأن أطلب مقابلة المراقب. سألت السجان أن يذهب إليه ويؤكد له أن الأمر عاجل. لكنى فكرت فيما أود أن أقوله

لنقلى فورا من هذا البلوك. غاب السجان عشر دقائق، ثم عاد ومعه واحد من رؤساء الحرس. لا. لقد صممت. هذا أمر يمكن مناقشته مع المراقب الرئيسى. ما رأيك فى مساعد المراقب؟ لا، بالتأكيد لا، لا، أريد أن أقابل بيتر. لقد وعد الرجل بأن يتصل بالمراقب العام فى بيته. فى نفس الوقت كتبت مذكرة سريعة أنكر فيها التزوير الغبى، وسلمتها إلى زميل من المعتقلين لتذهب مع" مجموعة البريد التالية".

الساعة السادسة والنصف ولم يأت المراقب، وباقى من الوقت نصف ساعة ليتم الإغلاق. بدأت بعد ذلك أفكر فى شخصية المراقب العام. هل يحتمل أن يتقبل حقيقة أننى فى خطر؟ الخلفية – إيبو من الجزء الأوسط الغربى. أخذت أقدر إذا كان هذا يضعه فى جانبى أم لا. الإجابة بالنفى طبعا. فأكثر النيجيريين عرضة للاضطهاد فى ذلك الوقت هم الإيبو من أهل الوسط الغربى. خصوصا منذ الغزو الميدويست. أصبحوا مسكونين بالخوف، يتم اصطيادهم وقتلهم منذ تلك الحادثة، وأصبحوا يعتبرونهم أكبر خطر على الأمن، بل أخطر من الإيبو أنفسهم. ففى اليوم التالى بعد الغزو قضى رئيس الحرس والمراقب العام ثلاثة أيام مختفين فى الغابات حتى تبرد شهوة الدماء. فالإيبو من أهل أسابا، مطلوب منهم عشرة أعمال مقابل عمل واحد فقط لبقية أبناء الأمة، لإثبات أنهم من البشر: أن تبقى متواريا عن الناس تتحرك بين البيت ومكان العمل بهدوء، متجنبا رؤية الناس لك، منفذا للأوامر بالاستدلال وبدون أسئلة – هو الطريق الوحيد للاحتفاظ بلقمة العيش والبقاء حراً أو حياً.

فى السابعة إلا ربعا عرفت أنه لن يأتى. وتأكدت بنفس الدرجة أنه إذا طلب منه البقاء فى البيت والتوقيع على الأمر، من أجل كل المفاتيح المطلوبة، فلن يكون أمامه أى اختيار آخر. وفى أى الحالات فهناك بيتر. كيف يمكن لإنسان أن يحمى نفسه من حراسه فى لحظة إحساسه بالخطر.

اجتاحت مخى عاصفة من الأفكار، حينئذ دعوت اثنين من النزلاء معا كنت قد حولتهم مؤقتا عن معتقداتهم القديمة فى تلك الأسابيع القليلة.

قلت "أريد حالة شغب. يجب أن يبقى السجن كله مستيقظا حتى أفلت من الخطر".

قرأت لهما التنبيه وشرحت لهما حيرتى. فوافقا على التعاون، فى ظرف عشر دقائق بدأنا تحريك سلسلة من الأحداث. كان لديهم قوى يعتمد عليها فى السجن – لقد لاحظت عملياتهم الخفية التى تبدو غير مترابطة، حتى فى وقت مبكر قبل موعد إغلاق السجن.

وصل المراقب ومعه حوالى دستتين من أعضاء إدارة السجن، فقد أجبرناه أخيرا أن يترك فراش نومه بعد تجاهله لنداءاتى طيلة فترة مابعد الظهر. هاجمته فى الحال ولكسب الوقت ألقيت خطبة طويلة اتهمت فيها السجن بالمشاركة فى مؤامرة حكومية لتصفيتى. نظرت إلى بيتر مباشرة دون إحساس بالشك فى الإحباط الظاهر على وجهه

الذى ينضح بالكراهيـة. لقـد برأت المراقب من أى علم مـسـبق أو من المشـاركـة. أعلنت قـرارى بالإضـراب عن الطعـام حـتـى الموت أو حـتـى تسحب الحكومة الاعتراف المزور.

واصلت الكلام، مرتجلاً، ومستمعًا، ومنتظراً إشـارة المرحلة الثانية من خططى التى كان يجب أن تكون قـد بدأت عند دخـول هيـئـة الإدارة، يقوم بإطلاقها الشـريك الآخر. لكنه رقد فى سريره بسبب إصـابتـه بشلل مفـاجىء نتيجة الخوف. لقد رأى، حسب اعترافه فى صباح اليوم التالى عندما جاء "يتوسل لكى أسامحه" لقد رأى رؤية وجد نفسه فجأة فى مواجهة جدار فى ثكنات الجيش فى دودان يواجه إحدى كتـائب الإعدام. بسبب دوره فى عمل الليلة. لقد تجمدت أطرافه وعجزت أن تطاوعه.

الابتـهاج الذى شـعـرت به فى تلك الليلة بسـبب مـواجـهتى لبيتر، فى التعرف تعرفا كاملا على أحد الوجوه فى جيش القتلة المجهولين، وبأول فـعل إيجابى ضـدالنظام؛ نهـاية فـتـرة طويلة من السلبـيـة، من مـجـرد الانتظار وترك المبادرة للطرف الآخر. التعويق (على الأقل مؤقتا) لنوع من التحدى الخبيث لحياتى. هذا الرصيد الكامل من الشعوربالبهجة بدأ يتنـاقص عندمـا كنت أتكلم فى انتظار الأصـوات الأخـرى التى رفـضت المجىء. أخذ الإحساس بالخدر والذهول يزحف على ببطء.

رغم هذا فإن دان وسـوجـو كـان لهـمـا دورالمسـاعـدة فى الخـارج. فالطائرة التى بدأت تحوم حول مهبط الطائرات أوقفت محـركاتها وحطت فى الظلام. ويمكن فى هذه اللحظة أن نضـيف القليل عن الأحداث التى

حدثت عند مهبط الطائرة، والكارثة التى أحدثتها فى قمة السلطة بين السفاحين. التبرير الدقيق لبرنامج التصفية كما كشف عنه الضابط ج قد بنى، خلال المناقشة" فى اللجنة"، على أساس أننى فى وقت من الأوقات تعرضت للمحاكمة بسبب إيقافى لمحطة - إذاعة. وأن الجماهير سوف تصدق القصة التى أعدوها. وهى: أنها بينما كنت فى الطائرة فى طريقى إلى مدينة جوس، أخرجت بندقية وحاولت خطف الطائرة وأصابتنى رصاصة أثناء المحاولة. رجل عنيف لقى نهايته العنيفة. فرجل المسرح بالغ فى تمثيل دوره مرات كثيرة.

فى داخل السجن كان فشل النزيل الآخر كارثة لا يمكن التنبؤ بأبعادها. بعد حالة الارتباك الكبيرة التى حدثت، الهياج والشك المذعور من المستوى التى أجيبت به استغاثتى، جمعت القتلة داخل مرحلة هياج مدمر قبيح لا يهتدى بضمير، لن يستخدم فيه سوى أقذر الوسائل. أول جرعة منه وصلت ضمن الفنتازيا التى تم نسجها حول أحداث تلك الليلة. فتم نقلى إلى سجن به أقصى الاستحكامات الأمنية، موضوعا فى قفص أربعا وعشرين ساعة يوميا. لكن كل هذا توقعته وكان يمكن تجاهله. أما الذى لم أظن حقيقة إمكان حدوثه هو عمل تزوير آخر. يقول البيان الصحفى أنه تم القبض على "متواريا بجوار حائط السجن". كان هناك آلة صماء (تمثال لعرض الأزياء) فى سريرى. وأخيرا، وأشدها ضربا لمعنوياتى، أننى، عندما أنكرت محاولة الهروب، أعلنت أننى كنت فقط "أحتج ضد الإذلال الحكومى".

فى فترة الدمار العقلى التى أعقبت تلك الضربة الموجهة للمستوى الرفيع لاحترامى لنفسى، لم أستطع أن أتذكر أن تلك العبارة قد نقلت من الاحتجاج الذى قدمته لمعلام D، تعبيراً عن اشمئزازى من محاولة إخضاعى للفحص عند طبيبهم.

حركة مطابقة حدثت عن طريق صحفى مأجور هو ريمى إللورى فى أعمدة الديلى إكسبريس، إنه صوت لجنة العشرة، إذ كان يأخذ من هذا الموقع" معلومات داخلية كثيرة" وينشرها على الجماهير. هذا القزم البذىء بعقده النفسية الهائلة، تدرج أخيرا إلى وظيفة مخبرصريح للبوليس، حيث يمكنه إشباع خيالاته بما قضى على حياة كثيرين من الأبرياء المحتارين.

الفصل العاشر

"الاعتراف – محاولة الهروب الفاشلة – الشكوى من الإذلال". ثلاثية تستهدف أكثرالعقول استخفافا بالدنيا أو أشدها إخلاصا. إحدى روائع الفنتازيا المقنعة التى يمكن أن تمزق أى مقاومة طويلة للقوة الشمولية للنظام. إذا أمكن كسره، وكسره بطريقة ذليلة، فإنه يمكن كسرأى شخص. هذا الجيش يستطيع كسر أى شخص. وأى إرادة. كان التسلسل مشحونا بالهمسات، خيانات خفية تعقبها عمليات التطهير السريعة.

فى لحظة من لحظات الهدوء المفروض بالقوة، خرجت أصداء أصوات من الشارع، أصوات الأسواق بعيدا عن همسات الدهالين، نظرات التجمعات بعيدا عن أمطار البصقات والاحتقار، تحركت خارج مرمى الأصابع المصوبة نحوى. والضحكات فى الظلام، بعيدا عن الإيماءات العاقلة الصادرة عن ضمائر كبار السن، بعيدا عن التهكم، الحسد الخفيف وابتهاج الموهومين. بدأت ببطء وبطريقة ملتوية استكشاف فى عقل العدو والأخطار المستقبلية. ماذا يفعلون الآن؟

يقرعون كئوس الشمبانيا بعضهم مع بعض، ماذا بعد؟ يصفعون بعضهم بعضا من خلف ظهورهم من أجل الضربة القاضية، يتنهدون ارتياحا. نعم، نعم لكن، ماذا بعد؟ ضع نفسك فى موضعهم، فما عساك أن تفعل الآن؟ هذه اللحظة !وما سوف تكون الخطوة التالية؟

إذاعة المزايا، لاشىء آخر. لا مجال للمنشقين. اكنس ونظف كل جزيئات المعارضة. الاعتقال. التطهير! بإعلان صغيرغامض، إشارة صغيرة، بفضل ما كشف عنه أحد أعمدة النظام الذى تحول حديثا، فأصبح فى الإمكان الآن تطهير الأمة مرة واحدة وإلى الأبد من كل كتاب الأعمدة التافهين. وتسوية كل الجروح القديمة! أما بالنسبة لك أنت...

نعم، تقدم. رغم كل شىء فأنت الكاتب، تلميذ الطبيعة الإنسانية. اعطنا تعريفا مبدعا. ما هو أسوأ شىء سوف تقوم به حتى آخر خطر، الشاهد الوحيدعلى مؤسسة الكذب والزيف التى أقيمت لأفراد الطبقة العليا ليمارسوا أبشع أساليب القمع العنيف؟

لأن هذا الخطر سوف يبقى ماثلا، حتى بعد أن مُلئت السجون حتى فاضت، وبنيت معسكرات اعتقال لكى تضم مخربين" معترفين"، خطر تسرب الأسرارفى الفقاعة سيبقى معكم أنتم أيها الأحياء. عندما تمتلىء القبور الخفية وترتوى شهوة الجماهير للثأر بأنات المعذبين، ما عساى أن أفعل؟ ما الذى يمكننى فعله حتى أدمركم نهائيًا، دون أن أترك منفذًا للهرب؟

جاءت الإجابة بوضوح شل قدرتى. أطلق سراحك. نعم فى إشارة واحدة لايمكن إلا أن تفسرعلى أنها وفاء لمساومة أو صفقة تحقير، تفتح الأبواب وتتركك طليقا. بعد خلع أسنانك وتقليم مخالبك. وكسر صوتك. ببساطة بفتح الأبواب وإخراجك لحملقة الجماهير.

قل لى، ماالذى سوف تقوله؟ هل تنكر؟ يا صديقى، رفقاؤك ماتوا، تم حبسهم، ارتعبوا وانهاروا. حتى لولم يكونوا رفقاء لك، حتى لو لم تكن عيناك قد وقعت عليهم ولم تعلم بوجودهم، فالحقيقة، نعم، الحقيقة- أتعرف الكلمة اللينة؟ - الحقيقة، الحقيقة هى تلك الحقيقة المتعلقة بالقبض عليهم عقب التلميحات التى تسربت عن اعترافك السخى. هذه هى الحقيقة. لقد أعدنا خلق الحقيقة، والحقيقة تتحدد الآن فى صورتنا. كل رجل يفقد حريته أو حياته يضاف إلى سجل خيانتك. ماالذى سوف تقوله؟ كيف ستقوله؟ من فوق كل شىء، سوف يتجرأ ويصدقك؟ من سوف يريد أن يصدقك؟ من سيفكر فى التصديق؟الحقيقة، يا صديقى العزيزهى الآلاف الذين اختفوا منذ أن ثبتنا عقلك الصغير الذى يتدخل فى هذه الأمور!

فى قفص من أقفاص الحيوان، وفى عزلة روحية طيلة الأيام القليلة الأولى، أصبح الأمل حقيقيا ومفزعا. لقد ابتدأ كأنه تدريب لتسليح نفسى ضد ما هو أسوأ، ثم انغمس فى هلع الخيال ومخاوفه. إذ بدأت أفقد قدرتى على التمييز العاقل بين الفروض والحقائق. حتى قبل إعادة تأسيس خطوط اتصالاتى بالعالم الخارجى بوقت طويل، تأكد لى أن الحقيقة

كانت معروفة حيث كانت أهميتها أعظم، واحتاجت الذاكرة إلى تنشيط قليل للانغماس فى الماضى، بالعودة إلى مرجل النبضات المتسارعة والتوتر العصبى. لكن كانت هناك حقيقة غريبة، تتناقض مع كل التوقعات المنطقية– استمر عقلى يعمل. إذا كان هناك شىء حدث، فإنه قد أنتج نوعا من المكر الكسول الحاد، فبعد أن نقلونى إلى سجن به أقصى الاستحكامات الأمنية فى أعقاب قطع خطوط اتصالاتى المفاجىء، أدركت وأوشكت أن يصيبنى الفزع من فكرة أننى أصبحت، أكثر من أى وقت مضى، تحت رحمة جهاز الدعاية الحكومية، وأصبحت ممسوسا بالرغبة فى إيجاد وسيلة لتجديد هذا الاتصال. يمكننى فقط التفكير فى شخبطة خطاب إنكار للخطاب المفبرك الذى سبق تسليمه لذلك النزيل الذى انهارت أعصابه فى اللحظة الحاسمة. والآن أدركت ربما يكون قد مضغه أو بلعه قبل التفتيش الذى كان سيتم حتما فى أعقاب حالة الشغب.

شىء طموح وحشى مهلك لكل شىء – أن تخرج بيانا بأى ثمن، أن تحبط خطة الآخرين للإنكارالتى يقومون ببنائها على حجر الزاوية الناتج عن تراكم التزوير. حالة الازدواج العقلى عندى، ازدواجية اليأس البارد والمكر الغريب الغريزى الذى ظهر فى تلك الأيام فقط أدهشنى بعد ذلك بوقت طويل.

شاهدت، وانتظرت وخططت. دار عقلى حول مئات المشاريع، وقمت بعملية مسح لكل سجان، استصغرت الموثوق به الذى يأتى لإطعام الحيوان.

غصت فى روح كل نزيل باحثا عن تلك الومضة، الدالة على مشاركته فى المعرفة. فالمسجون يعرف فى الحال من سوف يساعده، ومن الذى لن يساعده. كنت مستعدا لانتهاز الفرصة، لم أترك شيئًا للضياع. كان عقلى يسابق الزمن عندما حانت الفرصة أخيرًا، مجرد بارقة أمل بوجود فرصة. فتمكنت من القبض على هذه البارقة ووظفتها.

كانت واحدة من بين ألف فرصة، مصادفة كهذه قد تجعلك فى عداد المتحولين عقائديا بقوة العناية الإلهية، تجمع ملابسات حدث كمفارقة بفضل رنين الحديد المحيط بى. كثير جداً من الاحتياطات ذاتها، كل واحدة منها تلغى الأخرى - رسالتى كانت تنتظر.

عرفت حتى فى أثناء اندفاعى أنه يجب أن أعد صياغة بيانى، بحيث يبدو وكأنه آتٍ من السجن الآخر. إنه يضع قيدا شديدا علىّ، لكنه كان أفضل من نقلى فى الحال من هذا العازل المتخيل الذى اخترقته. اختراق يستحق الاعتقال. اتخذت مذكرتى أجنحة وطارت إلى أيد جائعة إلى الأمل. . صحيفة أو اثنتان داخل البلاد وجدت الشجاعة فى أن تطبع؛ وبدأت عملية مطاردة خبيثة فى السجن الخطأ.

هذا الانتصار الصغير كان لابد أن يعزينى فى أعماق الهاوية التى أعيش فيها على مدى الأيام القادمة. هول الصورة التى استحضرتها حقيقة مخيفة. بينما كنت أنتظر أنباء مؤكدة. عرفت قسوة القلق التى تفتت الأكباد. إنه يرعى فى داخل مناطق من الكائن المرئى، وفى زوايا لا أستطيع أن أصل إليها.

كانت أياما بلا ملامح، أياما لا يمكن اختراق ظلامها ونبضاتها التى أفلتت من السيطرة. كانت هناك مهدئات، حبوب منومة، زيارات من طبيب السجن. استرداد واهن للقوة من مصادر إرادة حذرة ضد الاعتماد على الحبوب، تحذرنى أن أرفض كل مساعدة زائفة وغير حقيقية. بعد يومين أجبرت نفسى على إلقائهم فى جردل الغسيل. وبعد يومين آخرين طلبت من الدكتور ثانية أن يعطينى بدلا منهم معترفا بما فعلته بالكمية الأولى. احتفظت بالحبوب فى الصندوق الذى يستخدم كمنضدة، وابتكرت طريقه تدريب لالتقاطهم أثناء النوبات السيئة. عرفت عددهم بدقة، نمطهم ووضعتهم ثانية فى مكانهم.

رقدت، جلست واضعًا ساقًا على ساق، قمت بأداء عدد كبير من أدوار الريبورتوار التى أجيدها، والأوضاع التى ارتجلها فى معركة التحكم فى سرعة النبض. وإسكات أصوات الضجيج فى رأسى. رجوت نفسى أن تسمح لى بحباية فقط هذه المرة ولن أكررها ثانية. تحركت بسرعة لكى آخذهم ثانية فى يدى، عددتهم، ثم عملت منهم باترونات على الصندوق. تلاشى طعم الطعام أو الماء تماما. السجائر فقط كانت تسبب لى دوخة.

الاستجابة لأوضاع حياتى المحيطة بى جاءت بطيئة. موت النزلاء باعتبار أنهم كائنات إنسانية حية، كأفراد يتحلون بملامح متفردة. انتهت تلك المحنة. إذا عادت فسوف أجد القوة على التحكم فيها،

عالمِا أخيراً بأن رفضى قد أفلت من القبضة الحديدية، وأنه قد تم نشره حتى التصعيد الزائد كان فى تأكيد مخاوفى، عندما اتصل بى دان وسوجو أخيراً وأخبرونى بأنه كان هناك برنامج للتطهير مخطط، ولكن تم التخلى عنه بقوة، أو تأجل وهم سوف يبحثون عن الانتقام من أولئك الذين يقعون فى نطاق قدرتهم. لكن هذا المصدر الممتع لا يمكن الآن توسيعه ولا يمكن إقامته على فنتازيا الغدر.

الفصل الحادى عشر

أحلام، بتعبير أكثر دقة، تنويعات على حلم وحيد. هكذا رأيت أننى سوف أعلق على مشنقة فى مبنى مرتفع. فى جو بارد يحيط به ضباب كثيف، لا يكاد يكشف معالم المتعاونين معى فى الأجزاء الأخرى من المبنى. تتراءى أشكالهم كظلال فى خطوط كنتورية مشوهة. فريق من العمال ينقل قوالب الطوب لى بالتمرير من الأرض. عندما يوضع آخر قالب فى مكانه أعطى أشارة فيطير قالب جديد خلال الضباب، ويظل غير مرئى حتى آخر ياردة أو ياردتين. لكن الهدف فى كل مرة كامل تماما. أراه بمجرد نظرة، وحر فى مد يدى للخارج كى ينزل القالب عليها. أضع القالب فى موضعه، وأملأ الفجوات بالمونة وبشذرات من الأطراف. وهذا يصلح بالكاد؛ تمضى اللحظات بالحركة البطيئة، بطريقة طقسية. الضباب يلف كل شىء حولنا؛ من وقت لآخريمر بالقرب منى وجه إنسان، يقف متوازنا على ممر القطط الضيق، يدحرج كومة من التراب إلى جزء ثانٍ من المبنى.

يمر وقت طويل قبل أن أعرف أن كل واحد من الآخرين قد ذهب. لم أسمع نداء الغداء. لم أستطع الشك فى أنه قد أعلن منذ أن بدأت

القوالب فى السقوط على يدى الممدودتين. إنه الصمت الذى لفت نظرى أولا فعرفت ببطء أن العمل قد توقف، لقد استمر العمل حتى الآن فى صمت حقيقى. صار الآن هذا الصمت أشد عمقا. إننى أنحنى لأسال فريق العمال، الذين يتناوبون العمل معى، إذا كانوا يرغبون فى التوقف أو فى الاستمرار، حتى يكتمل هذا الخط من الجــدار. أقول لم يبق إلا سبعة قوالب فقط. الرقم دائما سبعة. لم أتلق أى إجابة منهم وأنا ألاحظ الآن أنهم قد ذهبوا أيضا. قالب من الطوب جاء ببطء خلال الضباب رغم أنه لا يوجد أحد منهم أسفل البناء.. أمد يدى لأمسك به. لكنه ينزلق، وثبت لأمســك به، وأسقط عليــه. وأنا الآن ساقط فى الفـــراغ منــذ وقت طويل..

تعرفت فيما بعد على المنظر الطبيعى. إنه واحد من الخيوط التى دخلت فى نسيج تلك الشبكة الميتافيزيقية، التى تضم أناسا ميتين فى مسالكهم، بسبب اليقين المخيف بأنهم عادوا إلى نقطة فى دورة الحياة. إن المنظر الطبيعى فى سجن (شاكى) استحضر إلى ذهنى صورا دفنت من وقت طويل، حيث اشتركت منذ سنوات كطالب فى عملية بناء مساكن جديدة لضحايا كارثة نتجت عن أحد الفيضانات. إننى أتذكر العطاء الخالص البعيد عن التعقيد والذى تم بروح المودة، وأعرف السبب الذى جلب هذا الحنين الحزين القديم. أما البقية فهى رعب من السقوط الطويل فى الهاوية، ليلة بعد ليلة، فى الصمت المخيف...

الفصل الثانى عشر

أستطيع أن أرى من خلال القضبان، وعبر أسطح البنايات الأخرى فى الفناء. هكتارات من الأرض الخربة بين المبانى.، أحزمة ضخمة من الفضاء داخل الجدران. هذه الخلايا الصناعية بدت كبقع الجدرى الضعيفة على وجه الفراغ الحقيقى. مجموعات الأشجار، والحفر فى أرضية الطريق والمستنقعات، تتحدث عن عملية استصلاح أرض حديثة من البحر، تنتظر معركة لإعادة تملكها. كنت أستطيع، كما تخيلت، أن أسمع صوت غسيل خفيف بمياه راكدة لأكاليل الغار التى نراها فقط على الجدران. وطافت بى أصوات ثرثرة المساجين الكسالى الذين يأملون، كأنها أصداء من عالم آخر. من منطقة معتمة فى الذاكرة لكزنى صوت، ولمسة خيط من عش عنكبوت فى الظلام. كانت هذه هى اللحظة المحزنة للوصول، واللمس، والانزلاق، الوصول ثانية، ولكن الفشل المطلق فى القبض على شىء، حتى إننى كنت غير قادر على بذل الجهد للوصول إلى عقلى، الذى بات كوعاء من الصوف عائم فى الأثير، بينما نقطة الندى هذه من ماضٍ بعيد استقرت بهدوء على حافتها، وتحولت ثانية إلى بخار فى حمى قد بدأت توا.

تلاشى الزمن. تحولت إلى حجر. تحول العالم إلى رغاوى مستنقعات.

لقد كنت هنا من قبل. مررت خلال هذه النقطة الحالية مراراً وتكراراً. رأسى مليئة بروائح وأحاسيس ذلك الزمن الآخر، ومع الإدراك يأتى الألم المضاف بتكرارعملية نزع ورقة. إننى أحاول أن أبقى هذه اللحظة: أن أتوافق معها، وإذا أمكن، تحديدها فى المكان والزمان. الوحشة تزداد مع يقينى الحاد بأن الإحساس أعمق من مجرد مكان محدد أو حدث محدد. بل هو أقرب إلى أن يكون مرحلة من مراحل الحياة. فمن المسلم به فى تعريف النفس بالمصطلحات الإنسانية، الإيمان الكرامة والعدل والمثل العليا. إنها تتحلل ذاتيا الآن كما يتحلل أى شىء بذاته اليوم تحللا خفيفاعلى حافة الوعى. فمعرفتى بأننى كنت حتى هذه اللحظة، على علم بأنها مرحلة لن أعود إليها. رغم الإدراك أيضا أن هذا الانتقال الشعائرى هو انتقال دائم، وأن اكتساب الخبرة فى مخاضة العبور لا يقلل من حزنها الغامر.

إننى أعترف مراراً وتكراراً بأن هذه حدود الوجود. أعرف أننى أتيت إلى هذه الفكرة فى دورة الحياة أكثر من مرة. والآن فإن الذكريات فى غاية الحدة، حتى إننى أتساءل: إذا لم تكن قد جاءت حقا فى نبوءة متوقعة بكل هذا، فى وقت انتظارى لها فى هذا الأسر، متسائلا فقط، متى؟ فأى معنى يمكننى إذن أن أربطه بها، وأى اسم يمكن أن أطلقه عليها، وأى تعريف يمكن أن نعطيه إلى وحشية هذا الميلاد؟ إننى أحاول تغذية الإحساس الخائر بقوة عضلية.

بحث خاص؟ مادة خام للمسرح التراجيدى والجولات الشعائرية العاطفية؟ بحث شجاع يتفرع من دون نظرة إلى وقع أقدام التاريخ على مساره الاجتماعى؟ أهذه إذن لحظة الهجران، التى كانت تهددنا منذ وقت طويل، أفكارالمسئولية الفردية والكفاح الذى تفرضه؟ هل ينبغى علىّ الآن أن أرفض الفلاسفة مثل كارل جاسبرز؟ مهما كانت ضآلة الفرد من الناحية الكمية ضمن العوامل التى تصنع التاريخ، إلا أنه أحد العوامل. أيجب على الآن أن أقول له، نعم، لكنه عامل ميت؟ لا يتعدى تأثيره وزن قشة طافية فى تيارات المحيط. معلقا بدلا من ذلك على غموض الوجه الآخر لعملية الاكتمال؟ – "فالإنسان يمكنه فقط أن يفهم كينونته الحقيقية خلال المواجهة مع صروف الدهر". لقد اختلفت مراراً كثيرة مع التفسيرات التى ترتكز على الذات التى تعطيها الذات الوجودية. فأية عقيدة تضع البحث الواعى، عن الذات الداخلية كهدف لها، وأن سياق القوى مجرد عوامل مساعدة فى المعركة، هى فى النهاية عقيدة مدمرة للإمكانية الاجتماعية لتلك الذات. إلا كأنها مصدرللقوة والرؤية التى تحفظ الذات الداخلية بعيدة عن كل التوقعات، لتبقى منتفعا غير واع بالتجربة. ولك أن تشك فى كل بحث يتم بوعى لمعرفة الكينونة الحقيقية للذات: وهذا غذاء مفضل لآلهة التراجيديا الخاملة. أنا لا أبحث: بل أكتشف. دع الأفعال وحدها لتكون هى وحدها مظهر الكينونة دفاعا عن رؤاها الحقيقية. فالتاريخ ملىء بأتباع بروميثيوس الفاشلين الذين تستحم أرواحهم الجريحة فى مجرى التاريخ.

فلنحطم جاذبية الإغراء التراجيدى! التراجيديا، ممكن فقط بسبب محدودية الروح الإنسانية. هناك مستويات لليأس تبدو على نحو صحيح، إن الروح الإنسانية لن تشفى منها. أن تغوص إلى هذا المستوى بعد أن تغمرك أنقاض الحواجز المعادية للإنسانية التى أقامتها آلهة الحقد. إن قوة الشفاء قريبة من اكتساب طاقات إنسانية عالية، وإن المجتمع الإنسانى المغرم بالركود، يجب عليه بغية الاحتفاظ بمصالحه الذاتية، أن يحول هذه الطاقات الهائلة إلى قنوات ساكنة نسبيا، لأنها تشكل القوة التى إذا استخدمت كجزء من عدة الفرد فى النضال الإنسانى العادى، لا يمكن أن تقاوم بالأسلحة الإنسانية العادية، هكذا يتآمر التاريخ. إن عملية غسيل المخ ترفع التراجيديا إلى مستوى يبعد بها عن أن تكون استمرارا متجددا لكفاح بروميثيوس.

أن تعيش – لكن تعيش فقط فى شكل متحول، ممتلئا بالحكم المبهمة، بعد أن أفسدتك حكمة الولاء والطاعة، وتم عزلك عن الانتماء للناس ومشاكلهم. لقد انجذب أوديب إلى هذا النوع من الرشوة فى البداية، فأعمى نفسه جسديا، ليقضى فى النهاية قضاء تاما على الطريق المؤدى لفعل الفداء الاجتماعى – وهذا الاختيار المفضل لكل المؤسسات. فعلى العكس من التساؤلات والتغيير، وخلافا للإصلاح الحقيقى للعوامل المسببة لأى كارثة، فإن المجتمع يحمى نفسه بهذا التحويل للطاقات المتجددة روحانيا داخل ذاتية منغلقة. وضمانا لانعدام الرغبة فى تأكيد الإرادة، انتشرت أمامه شراك السمو التراجيدى – أى سمو أعظم من

شخصية عراف الآلهة الأعمى. وأى غاية أسمى من البحث عن النفس غير القبول الرشيق، المستسلم لهدوء الشيخوخة.

هل عندى دراية بهذا الفخ أم لا؟ أستدعى التاريخ لمساعدتى، بل ماهو أكثر من التاريخ، المعرفة المشتركة، الكشوفات المشتركة، الثورات المشتركة ضد غواية الوجودية المأساوية، لأن الغضب لم يعد كافيا لمقاومة غواية السقوط فى الحكم الساذجة التى لاتجدى شيئا. إننى أبحث عن الصوت المناضل فقط، وأصطاده من أبعد فترات التاريخ القديم، حتى المقابلات العادية العارضة فى الساحات العامة. التراجيديا ليست سوى طريقة لتصحيح المسار المؤدى إلى التعاسة الإنسانية، لمحاكاتها وهكذا تبريرها كضرورة حتمية، حكمة أم تطهير. رفض هذه العملية والبحث عن وسائل تقنية لتفادى الشرك الخبيث المنصوب، هو مطلب ضرورى اليوم، أين، ومتى، أنا لا أتذكر أو أهتم. أتذكر فقط أننى سجلت ذلك ذات مرة كملاحظة لاستخدامها فيما يسميه الطلبة، بحوثا مضادة للأدب. أبحاثى الخاصة المضادة للأدب. لكن الكلمات أطلقت معارضة واسعة النطاق لموجات الإنكار التى تغمرنى من كل جانب، لكراهية الغوغاء التى أسمعها بوضوح حتى فى داخل هذه المساحة المحاطة بالحواجز والقضبان، إنها تثير أعصابى فأتمتم، أمخاخ مغسولة، بلهاء وسذج، حشود كثيرة الرءوس، لماذا تتسبب أصواتكم الجاهلة فى تعكير سلامى.

لكنهم يفعلون، وأنا لا أستطيع الإنكار.

من وهدة الشجن التى حفرتها أيدى البشر، من هذا المرجل الذى يغلى والذى توقده أياد بشرية، من ضجيج الكراهية الإنسانية وصخبها الذى يصم الآذان، فإن الكائن الخارج منها هو حرفيا "أنجونو". لن يعيد الفهم ولا التسامح كما كان من قبل. لم يعد له وزن أو حجم بالمعايير الدنيوية. الواقع بالنسبة له لونته إلى الأبد نار المسار الرهيب، فلم تعد أفكاره ناتجة عن خبراته. أنت يامن تقف خارج هذه الجدران اعترف بأن الهيستيريا التى أصابتك، تخترق دفاعاتى. أعرف أنك تحس بهذا الخطر الذى يهدد بالانتقام فى المستقبل، ويجب دفاعا عن النفس، أن تضاعف جهودك الموجهة لتحقيق الفناء - روحيا، سيكولوجيا، فيزيائيا، ورمزيا. وهذا هو السبب الذى يجعلنى أحفر فى أعماق كيانى، وأفهم لماذا فى هذه اللحظة بالذات تجد فى نفسك القوة للتأثير علىّ. لماذا حتى عندما رفضت عن طريق العقلانية الشرك التراجيدى فإنى مازلت مغلوبا بأبخرة الإحباط فى داخل كبسولة فرديتى الكاملة.

سعيد هيرميوس من أترنيا، بجسده المحطم والذى لا يكاد يمسك أنفاسه، "أخبر أصدقائى ورفاقى أننى لم أفعل شيئًا غير جدير بالفلسفة". ذلك الشوق الذى يحرك نفوس البشر، لتخرج عاجلا آخر أنفاسها فى كلمات تأكيد، بدلا من الاحتفاظ بها من أجل الحياة، على أساس اعتقاد بأن الحياة يمكن تبريرها، إذا أمكن فى اللحظة التى نغادرها فيها، أن توجه البصقة الباقية على حافة أى لسان جاف ضد العدو، فى إشارة تحد لاحتقاره، لنعطى فى النهاية أملا حقيقيًا، يشجع على العيش،

مصدقين على صحة كينونة المرء الكلية بهذه الإشارة الأخيرة، أو بكلمة تأكيد. أما انتصار الألم، والتدهور الجسدى وحتى هزيمة المثل العليا، كل هذا، لكى يرسل للرفاق الذين تركهم خلفه رسالة الانتقام للعقيدة وأن يجعل حتى النصر المحتضر تأكيداً نهائياً..

أعرف لماذا تأتون إلىّ، أيها الرعاع الفاقدى العقل، إننى أرى نفسى وديعة لموت حى، تنكرون إثباته. والأسوأ أنهم لاينكرون على هذا فقط، بل هاهو جسدى معروض للعالم فى سائل تحنيط كريه الرائحة نقيض له: إنكار! خارج كما لو كان من جسدى الكتاتونى، بروباجندا بأصوات مجرمين خائفين، يائسين لكنهم أقوياء، يفتقرون إلى أدنى درجة من أفكار الكياسة، والعدالة أو اللعب النزيه. إننى أفتش بلهفة فى كتالوجات عن المواقف الجماعية التى ظهرت فيها "نتوءات ذاتية" حتى بعد موت حقيقى أو موت حى بوقت طويل لضحايا جنون السلطة، لكنى لا أجد هناك إلا قليلاً من العزاء. إننى أحاذر عبثًا من قبول أخلاقيات السلطة فى تسجيل الأكاذيب وعرضها للضوء الحقيقى. إننى أطحنها فى بوتقة الحقائق الدائمة طالبا كبداية: أن تفترض أنك حاولت الهرب، فمن الذى سوف تهان أخلاقياته غيرأولئك الذين قد أثبت أنت أنهم منحطون أخلاقيا؟ هل يجب لهذه الفزورة، أى اليقظة" الأخلاقية" المفاجئة للملايين الذين مات عندهم الحس الأخلاقى بالسكوت عن المذابح الجماعية التى أدت إلى اضطهادك كفرد- هل يجب ذكر هذه الكوميديا كشىء معقول أو صحى؟ تلك الجثة العفنة للإرادة المسلوبة، هل ستبعث فقط عند الإحساس

برائحة إحدى الضحايا التى لا حول لها ولا صوت، والتى يجرى تنشيطها بركلات أحذية السلطة؟.

ومع ذلك فإن هذا ليس كافيا. ولا حتى مواكب أشباح الموتى والأحياء التى تطفو فى مجال رؤيتنا للمحاكمات المماثلة، والتى تكفى لتأكيد الإيمان بالقرارات الفردية. من خلال تاريخ حياتى العقلية، المركز على دراسة مصير الفرد فى مواجهة التعصب والقمع الناتج عنهما: إبراهام فيشر (أول الأمثلة المسجل فى صيغة "قتل أثناء محاولة الهرب؟")؛ الكاردينال ميندزنتى (الذى اختار سجنه الخاص)؛ دكتور أرياس مشلول على كرسى متحرك نتيجة رصاصة أصابته، أثناء هروبه من ديكتاتور الدومينيكان؛ جون ويلكينز يتحرك فقط فى نطاق الحصانة البرلمانية فى الداخل والخارج، حتى الرسول بولس، بفضل المساعدات "المعجزية" المتكررة...

مع القديس بولس فقد وصلت إلى وقفة مفاجئة. أى مجهود للسخرية بالذات يخلق تكشيرة مؤلمة، لكنها تخفف قليلا من عقدة حنق الذات التى تكونت داخل أحشائى. آه نعم، لقد تخيلت نفسك تماما من أصحاب الرسالات أليس كذلك؟ رسالة مَن من القديسين الذين عرفتهم فى سجن كيرى كيرى حتى أهل إبادان... أبشر، الله معك، لكن احذر تلك الذئاب التى ترتدى ثوب الحملان، الذين يتجولون بينكم ينقبون عن جثة العام الماضى...

بذل الجهد فى المزاح قد ينقذ شبحا آخر، هذه المرة من الصفحات المحلية المخصصة للتهكم والمفارقات: طونى إناهورو، بوق الأكاذيب الرسمية الأكبر. والمفارقة هى واحدة من تلك النكات المثيرة للقهقهة التى يسخر بها الزمن من عقول الرجال. عندما هرب فى أعقاب الانقلاب الفاشل، قبضت عليه الحكومة البريطانية مجاملة لصالح محاسيبهما من الإقطاعيين، فطرت إلى لندن، يحفزنى اعتقاد بسيط. كان هو أيضا اعتقاد مجموعة صغيرة مجهولة من أعضاء غير حزبيين، وهى الوحيدة من بين كل الحركات الكثيرة التى كانت تحتفظ لنفسها برؤية غير محرفة عن مجتمع المستقبل. كانت عقيدتنا هى: أن إعادة إناهورو سوف تكون خسارة كبيرة بالنسبة للصفوف الحساسة من الراديكاليين. ربما يكون أصدقاء إناهورو قد بدأوا يضغطون لمنع عودته؛ أعرف فقط أن الحملة العامة لم تبدأ إلا بعد العمل الذى قمت به فى لندن. لقد سجلت فى قائمة المساعدات اثنين فقط من السياسيين الذين أعرفهم، توم دريبيرجومستر وواى لاند يونج (لورد كينيت)، وجندت أكثر الطلاب وعيا من الناحية السياسية فى برنامج لوبى نشيط..

يعرض السجن مشاهد ذكريات حية وكاملة. فى إمكانى أن ألمس وجه واى لاند، يقول:" أنا لا أعرف كثيرا عن أوضاعكم السياسية – هل هو رجل طيب هذا الإناهورو؟"

أجبته: نحن نريده، وفى النشرة قلت" أنا لم أكن حتى ذلك الحين قد قابلت إناهورو وجها لوجه.

فى الوطن قال "المثقفون" إنه جبان دعه يعود للوطن ويواجه الموسيقى. وهذا ليس له إلا إجابة واحدة: إن روح الرقصة الثورية مازالت فى يد عازف الفلوت.

ما اسم ذلك البروفسور الآخر بجامعة وارتون بورج، مواطن من بلد فريشلين، ربما كان معاصراً له؟ الدكتور صاحب الجدارة الذى رغم اعتقاده بانعدام العدالة فى المحاكمات الخرافية التى تجرى للساحرات، إلا أنه أعد أكثر من مائتى محاكمة ناجحة لساحرات تم إحراقهن على الخازوق. انقسام للاعتقاد والمسئولية يبررونه بالبحث، فى الوقت ذاته، عن طرائق ووسائل لفطام مجتمع العصور الوسطى من طرقه البربرية؟ لذلك تضاؤل وبساطة دورالمثقف الآن إلى هذا الحد! فماهو على وجه الدقة التقييم الذى يمكن أن نضعه لأبحاثك للدكتوراه أنت أيها الجمجمة الخالية من العظم والتى سوف تهاجمنا مجلداتك دون شك ذات العنوان "الانحراف الاجتماعى سنة ١٩٦٦، جذوره وعواقبه فى الحرب الأهلية النيجيرية إلخ.، إلخ"، مع إشارة خاصة بدور المصالح الإمبريالية إلخ.، إلخ.، مائتان من الساحرات؟ ألفان؟ مائتا ألف؟ مليونان؟ عشرون مليونا؟ فى مجلدات لما عرض من أبحاث مطوية فى زوايا الصمت؟

إننى أبحث فى عالم أفكارى الخاصة عن قواعد أساسية أرسو عليها بكيانى ضد الهجمات التى لاشكل لها التى تأتى فى نوبات اليقين العدوانى. لعله من الغريب كيف أخذ ذلك التجلى الإبداعى لبيكاسو فى إثارة مخاوفى: أنا لا أبحث، أنا أكتشف. إنها أشبه بتعويذة تسربت إلى

العقل تحت تأثيرالتنويم المغناطيسى. إننى أسألها أخيرا، ماذا تكون هى؟ماذا تقولين لى؟ ماالذى تحاولين الإيحاء به إلى مما لم أكن أعرفه من قبل؟ استدارة خفيفة للتلاؤم مع هذا الموقف، للتصالح مع هذه الدورة؟ مثلاً هل ذلك، سلبى أو استفزازى، مقاوم أو مذعن للوضع فقد قدر على أن أسير فى هذا الطريق؟ إن مسار صاحب الرؤية واحد، حتى ولو بعين مغمضة أو بيدين مضمومتين، فسوف يجده؟ مثلاً: هل كل موقف يخلق استجابته الخاصة به؟ وعلى النقيض، لنغيرالتأكيد قليلاً لهذه التنازلات اليومية المسلم بها؟ لهم عيون، ولكنها لا ترى؟ إنه أمر غريب وأنا لا أستطيع أن أجد لك حلا. العبارة تدق على صدرى كأنها طلسم مبهم. ليست التورية على الأقل شيئًا آخر. رنين عال مؤكد وأنا لا أستطيع حتى أن أتذكر إذا كانت الكلمات لجاسبرز أو لكانت: إنها دائمًا مسئوليتنا نحن فى أن نقرر بحزم إذا كانت إطاعة أوامر السلطة عملا صحيحا من الناحية الأخلاقية أم لا. إننى أسمح فقط بهذا العامل الوحيد للقرار: هو القدرة البدنية على الاختيار.

دريفوس ديميتروف مقابل جورنج. إلى أى مدى سوف يستمر، هذا النمط من الجرائم الناشئة عن السلطة وكبش الفداء السياسى؟ صورة بشعة تتجسد أمامى من تلك الغيوم النازية، التعطش للدماء نتيجة لوحشية السلطة. كلب مسعور مكشر عن أنيابه ونموذج للاستعباد لكل عيسى أديجو فى العالم. انتكاسة حيوانية تثيرمن هولها القشعريرة حتى فى قلوب الراضين عن المذابح. والآن من أجل تفهم الماضى عقب حدوثه

فإنى أسأل أكان من الحكمة أن أرسل من السجن خطابا يحتوى على دليل إدانة على ذنوبهم، بينما أنا واقع فى قبضة هؤلاء الرجال. (الضمير الحر حتى فى زمن ديمتروف كان يعرف ما هوأفضل من الارتياح لفكرة وقوع البلغاريين تحت المسئولية الشخصية لجورنج). إننى أخطّىء نفسى الآن، بالقبول ضمنيا لأمر الفيلسوف كانت، معترفا بأنه منذ أن وطنت فى داخلى كل الشكوك حول الإفلاس الأخلاقى لنظام جوون من لحظة إطلاقه سراح اثنين من السفاحين، لم يكن كافيا أن ترسل كلمة إلى زمرة من المثقفين المخصيين. كان ينبغى على أن أفعل ما أنا متهم به الآن – وهو الهرب. لأنه كان يوجد حينذاك، كما هو موجود الآن بالرغم من نقائضه بديل ثورى وطنى حقيقى. القوة الثالثة لفيكتور بانجو. الأخلاق، ومن أجل هذا فإن الأفعال التى تصدر عن إيحاء أخلاقى هى التى تخلق" الكينونة الحقيقية" الوحيدة" إنهم يشكلون الشخصية الفردية الدائمة والتى لايمكن استبدالها بمسكنات قابلة للامتصاص. الفجوة فى أعماقى، الثغرة المؤلمة التى تهدد بامتصاص جوهر ذاتيتى فى فراغها هى التهرب من هذا الوازع الأخلاقى. اليأس يأتى من معرفتى بأننى لا أستطيع الآن أن أنفذ هذا التأكيد الوحيد، ولا أستطيع أن أتصور فى نطاق هذه الدائرة القاحلة الجدباء، إمكانية أى بديل عقلانى. أما بالنسبة لهذه الذات المجروحة وما تسببه من تدمير لسلامى العقلى، كان وسوف يظل هو أسوأ عدو وأسوأ صديق فى هذا المكان الذى ألتقط فيه الكلمات التى حركت فى نفسى حالة غثيان شديدة السوء. إننى أسقط

القانورات التى ظهرت مع تقديرهم المجرد، وأذكر نفسى بالقدرة الشريرة لغارسى، هذه الكلمات ولمعرفتهم لسيكولوجية الجماهير. إنه تدريب قاس ولكن لا مفر منه، إننى أحشر الكلمات بين شفتى وأنصت إلى الرد المفحم –" لقد زعم أنه كان يعترض على الإذلال الحكومى".

أيها المجرمون، لقد أفعمتم قضيتكم بسلطة غير محدودة. رؤيتكم التحقيرية فى عقول رعاع مسيس مصاب بهيستيريا، جعلتكم محصنين ضد مزيد من المواجهات – هذا هو هدفكم وأنا أعترف بنجاحه حاليًا. إذا بدأت الشكوك، حتى فى مثال وحيد مفرد، لو تم إفساد صوت أحد الداعين للسلطة المطلقة، إذا تحول الإثبات إلى إنكار فى عقول الرعاع، تكونون حينئذ قد أنشأتم جنسكم من العبيد الذين تبرر طواعيتهم إلى الأبد بالقول، 'إذا كان من الممكن كسره، إذن فمع من سوف نضطر للكفاح؟" فبالنسبة للقلة التى تحكم وكانوا يحكمون دائما سوف يجدون فى كفاءتهم الذاتية بذرة الشك الذاتى التى غرست بفعل الأمثلة المحفوظة فى الذاكرة.

كان ينبغى على أن أحتقر هذا العالم الذى تحكمه العفاريت (ZOMBIES) سوف أخلقهم أنا، ولكن عليك أنت أن تخلقهم أيضا. وأظن فى النهاية، أنك لا تستطيع. حقا، إن الأصوات التى أسمعها ليست هى الأصوات التى أبحث عنها. ليست فيها شهادات لذلك الرباط شبه الغامض، الذى حتى لو كان يسمح بالإيهام الذاتى، فإنه موجود بين أشد المكافحين عزلة وبين الشعب الذى يتبنى هو فى النهاية قضيته.

فأنا لم أسمع مثلا صيحة طلب العدالة التى انتظرتها طويلا" خذوه إلى المحاكمة، لا بل اصلبوه ! - أصلبه! لنكن شهداء فى عملية كشف القناع. بل بدلا من ذلك أرى أيادى مرفوعة عاليا فى فزع. أرى تسربات خفية للشعور بالعار فى الشارع، فى الزوايا المظلمة للبيوت. أشم رائحة الكراهية، والشر، والخوف، والاستسلام. لكنها رائحتك، رائحة فساد غير قابل للإصلاح يسيرمعك حيث تسير ويتعلق بكل من تنفخ فيه أنفاس أكاذيبك. وأسمع صوت ريح منعشة آتية من خلف حدود انتهازية الفرص السانحة.

أستمع إلى ماكتبه أدولف جوفى إلى تروتسكى قبل أن يموت منتحرا: "الحياة الإنسانية لها معنى فقط عند هذه الدرجة وطالما عشناها فى خدمة الإنسانية. فالإنسانية لانهائية"

بالنسبة إلىّ فالعدالة هى الشرط الأول للإنسانية.

الفصل الثالث عشر

سجن شاكى. أغسطس ونوفمبر ٦٧. لقد اخترقت أقصى القيود الأمنية مرتين. هذا المبنى له خصوصية، إنه مشحون بنوع متعفن ومتهالك من الإنسانية. فى غاية العزلة، كنت أفكر فيهم كثيراً، وأتذكر معاناتهم وشجاعتهم، ومحاولاتى للتغلب على ظروفى الخاصة التى ساءت أسوأ مما فعلوا.

لقد أصابهم العفن.

بلوك السجن يتكون من طابقين. طابق فوقنا سوف أعود إليه بعد انكشاف المؤامرة وطبخ الأوزة تماماً، فى هذا الطابق يسكن أغنياء اللصوص لحكومة (N N N P) السابقة، لوردات السجن، خبراء فى الأطعمة والمشروبات الشهية، المتميزون بحسن الملبس. يحتوى كل طابق صفين من الزنازين وبينهما ممر فى سعة الزنزانة. فى نهاية المرمدخل من الفناء، وبوابتان من الحديد؛ وفى النهاية الأخرى المسدودة، حمامات، ودورات مياه وأحواض، وفضاء شاسع يستعمل كمكان للجلوس والتسكع. البلوك عبارة عن جزء من مجمع يحيط بحديقته العامة

المخصصة للنزهة والاستجمام. هناك طاولة تنس، ومساحة خالية للعبتى التنيكوى والبادميدنتون. يستخدمه المعتقلون من أفراد الجيش والمدنيين، حتى المساجين. لكن دون المعتقلين من قبيلة الإيبو.

إذ كان يسمح لهم بالدخول إلى الممر والحمامات مرتين فى اليوم لمدة ساعة واحدة فقط فى كل مرة. وهم يشغلون صفًا كاملاً من الزنازين فى الطابق الأسفل. وفى المقابل يوجد الصف الآخر خاليا إلا من وجود مفروشات مكدسة على الجدران، - ترتفع فى بعض الأحيان حتى تصل إلى السقف. زنزانة واحدة على هذا الجانب كانت مسكونة، يشغلها - يون داكولا، رجل أعمال. لقد تقاسمنا هذه الزنزانة معا قبل نقلى المفاجىء إلى كيرى كيرى، وهو سجن ذو قيود أمنية مخففة. ففيه شبكات للناموس ودولاب وترابيزة. كنا نتحرك بحرية فى هذا الممر الذى يصدر أصداء، ونستخدم الفضاء الشاسع الذى ظل خاليًا متروكًا لأبناء الإيبو معظم اليوم. لكن فى ذلك الوقت، من شهر أغسطس أصبح فى إمكانهم أن يتجولوا حول المكان، يتحركون من زنزانة إلى زنزانة. بل وكانوا ينامون على الأرضية العارية، وتمكنوا من الرؤية بوضوح عبر الممر بين البطاطين والأسرة، فى الزنازين التى تشغلها هذه المفروشات. بعضهم لم يكن لديه بطاطين، وبعض الزنازين كان يشغلها عدد يصل إلى ثمانية أفراد فى الزنزانة الواحدة. والزنزانة مصممة لكى تسع رجلاً واحداً أو اثنين على الأكثر.

كان بينهم تجار كبار، وطلبة، وأطباء، وموظفون مدنيون من الشيوخ والشباب يحملون عصيا معوجة باعتبارهم كائنات بشرية. كان هناك رجل عجوز رأسه كلها بيضاء. وجدت أجيو موريس بينهم، وهوعازف بوق شهير. نكاته لا تتوقف وكانت ترفع الروح المعنوية للآخرين. كانت هذه هى الزيارة الأولى، أغسطس. لا يمكننى الظن بأن أحوالهم كان يمكن أن "تتحسن" حتى عودتى إلى هناك فى نوفمبر.

الآن يتم حبسهم على الدوام. تفتح الزنازين - لكل المجموعة وعددهم حوالى ستين سجينا، لمدة ثلاثين دقيقة بالتحديد يوميًا. وهذه النصف ساعة ليست مخصصة للتهوية فى الهواء الطلق. فالبوابة الرئيسية لهذا الطابق تظل مغلقة. لأنهم لا يستطيعون غسل ملابسهم، ولا التبول فى جرادل داخل زنازينهم حتى فى وضح النهار، لأنهم فى أثناء هذه الدقائق القليلة - ثلاثون دقيقة لما يقرب من ستين رجلا فى مكان مزدحم - فحين يتم فتح الأبواب، تغلق الحنفيات ويجف الماء ويظل الجفاف أحيانا اليوم بطوله، ولأوهى الأسباب لا تفتح الزنازين أبدا، فتتعفن رائحتهم. بالنسبة لداكولا ولى. كان الذهاب إلى الحمام محنة أخلاقية. فحالتنا فى وسط ظروفهم حتى فى تلك الأيام" المعتدلة" من شهر أغسطس كانت أشبه بواحة ظاهرة أمام عيون رجال أصابتهم ضربة شمس فشلت حركتهم.

الآن لم تفتح الزنازين حتى لتسلم وجبات الطعام. وكانت الطاسات - وهى أوعية ضحلة من الألمونيوم - تنزلق تحت الأبواب الحديدية.

وأحيانا كانت تدخل بين القضبان الرأسية لو كان الطعام من النوع الجاف المتماسك. كان كل واحد منهم يأخذ دورا لكى يشم الهواء الطلق من الشباك الصغير. إن رؤيتهم، وشم رائحتهم، والمرور بجانبهم أثناء النهار حال جلوسهم على الأرض كان شيئًا مؤذيًا بصورة كبيرة. - بل إن السير بمحازاة الجدران من الخارج، من وراء النافذة، وحتى التوقف للحديث معهم كان تحديا يعرضنا لهجوم الروائح النتنة المنبعثة من اللحم البشرى المتعفن. وهى منبعثة من تلك الزنازين.

خلال تلك الإقامة الأولى، قلت لليون، لابد أن يتكلم أحدنا. لابد أن يكون هناك شخص يعرض هذه الأساليب الإجرامية. قال، قليل من التخمين سوف ينبئك -، "تمهل، أنت لا تعرف حتى لماذا أنت هنا" فهناك دائما أحد العملاء (فى جماعة N N N P) وهو محكوم عليه من نزلاء هذا الطابق وهو الذى كتب تقريراً عن المحادثة. وبعد يومين زارنا فى السجن رئيس سجون لاجوس. وقال، بأرق أساليب الضيافة، "لا أظن أنه يمكن إجباركما على أن تشتركا معا فى زنزانة واحدة". كانت الخطوة المنطقية التى نتوقعها هو فتح واحدة من الزنازين الخالية على هذا الجانب. لكن هذا لم يحدث. فقد تم نقلى بعد ظهرذلك اليوم إلى سجن كيرى كيرى.

فقط لكى أعود إلى نفس البلوك فى نوفمبر. الدور الأعلى مغلق بالضبة والمفتاح وبعد المرور من تلك المرحلة الحديدية ذهبت إلى الفناء

للتدريب وتحدثت معهم عبر النوافذ. كنت قادرا على أن أقدم لهم السجاير لكنهم كانوا فى الحقيقة يحتاجون إلى الهواء. الهواء الطلق فى الخلاء، وليس هواء الممرات.

وذات صباح وبطريقة غير متوقعة، حصلوا على نصف ساعة كاملة للخروج للتهوية. فى صحبة أعظم الحلقات الكوميدية التى رأيتها طيلة إقامتى فى السجن. ففى ذلك الصباح فهمت أيضا لماذا يبقى كثير من السجناء على قيد الحياة. فقد استسلم سجانوهم. فهؤلاء الجلادون يؤكدون مرة بعد مرة للضحايا إنهم لم ينالوا حقهم من مضطهديهم، ولذلك فهم يملكون شعلة من جوهر الإنسان يجدر بهم المحافظة عليها. لا يهم كيف يحدث ذلك، سواء كان نتيجة حيوانية السجانين أو نتيجة ظهورمفاجىء لانعدام العقلانية، أو فقط بكشفهم هذا الجانب السخيف من أنفسهم الذى يدعو للاستهزاء، عارضين السجين فجأة فى صورة شاذة من صور الانحطاط المفترضة فى الإنسان. فيقول السجين لنفسه فجأة. هذا المخلوق لا يمكنه فى الحقيقة أن يمسنى. لا يستطيع أن ينقذنى ولهذا فهو لا يستطيع أن يدمرنى. هذا المخلوق لا صلة له بالأمر، إنه شىء غير حقيقى. أنا أمثل الواقع الحقيقى.

عند ملاحظة أداء الحاكم فى ذلك اليوم لايمكننى بأمانة أن أتهمه بانعدام الإنسانية. فالأفعال الإنسانية فيها شىء من المنطق. هذا الحاكم بلا مبرر أو منطق. كدت أقسم على أنه عميل من بيافرا تم تجنيده سرا لتسلية المعتقلين.

ففى ذلك الصباح بدأت الغارة فى الفجر. اليوم السابق - كان فى الحقيقة ينبىء بقدوم يوم طويل قادم - لقد قرر أبناء الإيبو أن يرفضوا تناول الطعام اليوم. لكن المخبر استرق السمع. لقد لاحظنا أنا وأدينجو أنهم اقتادوه بناء على طلبه لمقابلة المشرف لأمر عاجل، وكان ذلك بعد وقت الإغلاق العادى. كان من المفروض أنه يحمل حكاية من الحكايات لكننا لم نكن نعلم بكارثة الطابق الأسفل. (فى بعض الأحيان كنت أشك فى أن ذلك الرجل كان يستخدم ميكروسكوبا للتنصت).

وهكذا حدث فى اليوم التالى، أن بدأت الإغارة، قبل فتح الزنازين. كان الحاكم يؤمن بأهمية استخدام تكتيكات الصدمة. فقد أحضر معه كتيبة من الحراس مسلحين بالعصى الخاصة بمقاومة الشغب، عكاكيز طولها ثلاثة أقدام. واتخذوا مواقعهم بخطى سريعة فى كل المواقع الاستراتيجية، غص فناء البلوك الصغيربعدد من الجنود، ووضع بعض الرجال على رأس السلالم فى موقف تهديد. كأى عملية عسكرية صممت لمواجهة ثورة عنيفة لجماعة من المجرمين الخطرين. كان مشهدا مؤثرا. لقد تساءلنا أى نوع جديد من أسرى الحرب الشجعان قد حصل على هذا المستوى من تدريبات الاستقبال. لا يمكن لعاقل أن يتخيل للحظة واحدة آنذاك أن هذا كله قد خصص لنفاية البشر الذين يشغلون الدور الأسفل من البلوك X.

عندما أعد المسرح أخذ الجنرال، يتبختر فى داخل الممر: "افتحوا الأبواب وأخرجوهم. بالخطوة السريعة!"

عندمـا بدأت الأبـواب تفـتـح الواحـد بعـد الآخـر "إلى الخـارج! الجـمـيع يخـرج! بـالخطـوة السـريعـة – واحـد – اثنـان، واحـد – اثنان، واحـد – اثنان...".

لكن المسـاجين كـانوا جـمـيعـا من المدنيين. لم يجدوا سـببـا يوجب عليهم السير حسب الأوامرالعسكرية. فـأخذوا يجرجـرون خطاهم إلى الخـارج فى تجـهم، وتحد. حـرك الجنرال عصـاته ليحـثـهم على حـركـة ما ولكز أقربهم فى كتفه. كان حظه دائما أن يختـار الشـخص الخطأ. هذه المرة اخـتـار جوى، الذى قـام فى ثكنات دودان بـالبصق فى وجـه الجنود الذين انغمسوا فى ممارسة نزعـاتهم السادية معه. كان طوله سـتـة أقدام وثلاث بوصـات، هـذا الطول مـع انحناءة فى الظهـر أضـفت عليـه مظهـر الشمبانزى عندمـا يجثم أو يربض. لقد اسـتدار ونظر إلى الحـاكم وحملق فيـه طويلا. اهتـز الرجل رعبـا من تحـذيرتلك العينين ومـال بكرسـيه إلى الخلف بعيدا بين المعتقلين الخـارجين توا من الزنازين. وأحس فى الحـال أنه جعل من نفسـه مـسـخـة فنهض ولكزه ثانية – فى صـدره، صـائحـا فى محاولة للمحافظة على شجاعته:

"تحـرك. بـالخطوة السـريعـة، مـارش إلى الخـارج وإلا تعـاملت مـعك، بالطريقة المـلائمة".

كان هـذا يحدث دائمـا معه. أفكـار وكلمـات تفجرت فى رأس عربيد غبى، كلمـا حـدث اسـتفـزاز للحـاكم أو حـاول جاهـدا أن يكـون مـؤثراً. حدث مثل هذا مرات كثيرة قبل أن ينتهى الصباح.

استدار جوى بعيدا وتحرك ببطء إلى الأمام. هنا هب حارس من المتزلفين لمساعدة الحاكم فدفع جوى بشدة. وسرعان ما أصبح كلاهما فى الفناء.

"شكلوا صفين. بسرعة. صفان مستقيمان بالخطوة السريعة".

كان مشهداً تعيساً. بدت عليهم الهزيمة، وانخفاض روحهم المعنوية، رغم الحركة البطيئة التى اتبعوها كنوع من التحدى. هناك شىء من السفالة والدناءة فى جميع الصراعات غير المتكافئة. فجهدهم فى تحد منظم كان مقدرا له أن ينتهى مثل جهود أخرى، فسوف يتم حمل كباش الفداء إلى الزنازين الخلفية، وهناك يقيدون إلى الحائط حتى تسيل دماؤهم. سوف يتم ضربهم بطريقة منهجية. شىء واحد لن يخشوا خسارته هو الامتيازات. ليس لديهم شيئا يفقدونه سوى الرائحة الكريهة. سوف يحتاج الأمر إلى بعض الجهد للتفكير فى نوع جديد من العقاب الجماعى لهم، لكن الحاكم يمكن الثقة به بأنه سوف يحاول ذلك. لقد رأيت علامات الإعياء على وجوه ستة ممن كانوا يشاهدون المشرف وهويتحرك لأداءعمله. فلم يستطع حتى الانتظار لهذه المناورات الطويلة الممتدة عمدا فى تشكيل الصفوف حتى تصل إلى نهايتها. فتراه يقفز إلى الداخل والى الخارج بينهم، يدفع شيئا هنا، ويشد غطاء هناك متظاهرا بالغفلة عن الرائحة التى انتشرت حتى فى الخلاء الطلق ووصلت إلينا نحن المشاهدين وكأنه، للمرة الأولى، قد تجمعت المخلفات المختلفة من كل الزنازين فى عملية انصهار عفنة.

لقد ظهرت عليه أخيرا علامات الرضا. وأخذ يستعرض الموكب وبدا عليه أنه يجمع شتات نفسه لإلقاء خطابه. هذا ما يفعله بالمشى هنا وهناك، مظهرا لهم فائدة كونه قادرا على كل شيء. وأخيراً:

"الآن. أريدكم جميعا أن تنتبهوا. نعم، سوف أنصرف. وأقول جادا لكم. إنه يجب عليكم أن تنصتوا وتتأكدوا، أن ذلك لن يدخل من أذن ويخرج من الأخرى! نعم أنتم تظنون أنكم جئتم إلى هنا لإثارة المتاعب لى! أقول لكم الآن. إننى أيضا سوف أسبب لكم المتاعب.

فأنا جندى كما تعرفون. حاربت فى السودان وفى مصر. أنا واحد من أوائل النيجيريين الذين تمت ترقيتهم إلى رتبة قائد...".

وبطريقة لاتصدق أخرجت القلم من مخبئه وقطعت ورقة تواليت. هذا مشهد يصلح للمسلسل الكوميدى شاكى شاكى. (الذى كان يذيعه راديو نيجيريا).

"نعم، النيجيرى الأول يمكنك أن تسأل المرحوم أيرونسى نفسه. لقد كان معى. أنا أراسه. وسوف يخبرك بذلك، لو أننى اخترت البقاء فى الجيش فسوف أرأسه، والمرحوم أدميولوجن. والآخرين جميعا. فجميعهم من رتب أدنى منى.

"أنا أدرس علم الآثار. أنا لست مجرد مدير سجن أنتم تعرفون أننى درست فى الخرطوم، أركيولوجى. ولو أنا فى جامعة اليوم لقلت لكم إننى أحاضر فى علم تأثير البيئة على البشر. نعم. أنتم أعداء للدولة.

مخربون! وهذا هو سبب وجودكم هنا. أنتم مخربون. ومن أجل ذلك فنحن نحتجزكم هنا. هكذا. ونعالجكم. فكيف تجرؤون على المجيء إلى هنا لتدبير مؤامرة. أنتم تحاولون التآمر لقد عقدتم اجتماعا بالأمس. سوف ترفضون طعامكم اليوم. هل تعرفونني؟ (يضرب على صدره) أنا أحافظ على النظام. يمكنني أن أتعامل معكم كرجال محترمين، ولكن إذا سلكتم سلوك البلطجية، فسوف أريكم أنني بلطجي عظيم. بلطجي أكبر منكم. أوه نعم، هل تعرفونني؟ يمكنني أن أكون محتالا. (راسكال) يمكنني أن أروى نكاتا وأضحك وأكون مرحا. لكن إذا أردتم أن تظهروا لى أنكم أشداء فسوف أريكم".

لقد انتفخت أشرطة الخدمة التى وضعها خصيصا لهذه المناسبة حتى أوشكت على الانفجار وتقطيع أربطتها. ضغطهم ثانية على صدره بأصبع آخر ضخم لكن صدره ظل منتفخا... إننى رجل صلب. قدموا شكواكم بطريقة صحيحة إذا كانت لكم شكوى. لكننى لن أتسامح فى أقل القليل. يعنى أننى سيكولوجيست. أنا أعرف سيكولوجى. أنا درست أركيولوجى. أنا لست مجرد مدير سجن أمشيهم إلى الخلف در!"

فيما هم يعودون إلى زنازينهم تعقبهم الخدم فى الحال وهم يحملون الطعام مع قصع الصباح المليئة بالفول.

"قدموا لهم الطعام!"

كل حبة فول فى هذا الطعام تبدو، حتى من فوق السلم، كما لو كانت بندقية صويت للقتل.

"ذلك الرجل" أشار إلى جوى. لقد اختار ضحيته". خذه جانبا. فهو يظن أنه شديد وأنه زعيم عصابة. سوف نبقيه فى الزنزانة الخلفية عدة أيام حتى يعرف المعنى".

علمنا فيما بعد أن جوى التفت عند المدخل، وحملق فى وجهه وبصق.

"وبالنظر إلى الآخرين" – لقد تعقبهم حتى البلوك وصوته يحتد داخل الممر – "سوف ترون أن الأبواب سوف تغلّق عليكم لمدة يومين كاملين. لن تفتح إطلاقا. هذه الثورة لابد من القضاء عليها فى المهد.

أغلقت الأبواب عليهم. دفعوا طعامهم خارج الأبواب دون أن يمسوه. فى المساء قدموا لهم خبزا نيئا ومرضا لاشفاء له اسمه يخنى. وقد بقى هذا أيضا دون أن يمس. حتى أولئك المحتجزون لم يمسوا عشاءهم.

بعد الظهر حدث واحد من تلك الأفعال التى تذكرنا دائما أن فاقدى العقول ليس هم الحصيلة الكاملة ولا هم الوجه الحقيقى للإنسانية. كان الحارس لفترة بعد الظهر رجل من بنين، جاء يهز مفاتيحه وفتح الأبواب للإيبو".سمعت أنكم لا يجب أن تخرجوا ولكنى لم أتلق تعليمات رسمية" ثم تركهم طلقاء لمدة ساعة.

استفدت بهذه الفرصة الإنسانية وذهبت للحديث معهم، آخذا لهم هذه السلعة الوحيدة المتاحة فى السجن، وهى السجائر، كتعزية.

فى زنزانة آجيو وجدت شابا من جامعة نسوكا. تم القبض عليه فى لورى رحلات فى الميريلاند فى نقطة تفتيش (إكيجا) مع آخرين من أبناء الإيبو المسافرين معه فى اللورى وأخذوهم إلى ثكنات دودان. مثل كثيرين. كأسير لم يسجل اسمه فى زنازين ثكنات دودان منذ مارس. انفصلت بيافرا فى أبريل. وبدأت الحرب فى يونية. والداه يعيشان فى لاجوس وكان فى طريقه لقضاء إجازة عيد القيامة معهم.

قال أجيو نوريس: "هذا الحاكم، يجب أن نشكر الله من أجله. إذا قدرلنا أن نترك هذا المكان ونحن محتفظين بعقولنا جراء هذا الكوميديان".

قال الطالب: "أخبرنى عن الفرق بين نصف ساعة ولا شيء إطلاقا؟".

أجاب أجيو: (لا شيء).

"إنه أحمق. لا تفتح الأبواب إطلاقا كما قال هو. كان ذلك يزعج أيا منا هنا. هل يعلم كم أسبوعا قضيناها دون أن نرى ضوء النهار فى الثقب المظلم فى ثكنات دودان؟"

طلبت منه أن يفسر ذلك. قال أجيو" نحن جميعا من هناك. وفى يوم من الأيام قرروا ترحيلنا إلى هنا. لكننا جميعا تخرجنا من دودان".

لكن هل حدث اتهامكم؟ هل وجهت لكم أى تهمة؟.

اعترف أجيو" اتهمت أنا، لم أستطع أن أشق طريقى، أو أفلت من أى شىء. لقد سألونى، هل زرت المنطقة الشرقية فى وقت قريب؟ قلت نعم. سألونى لماذا؟ قلت، بيتى هناك. ذهبت لرؤية أهلى. لم نذهب أبدا أبعد عن تلك ABC".

التفت نحو الطالب" وأنت؟ أى استجواب؟"

"لا. الاستجواب الوحيد الذى واجهناه هو أنهم سوف يأخذوننا إلى دودان روليت. هذا هو الاسم الذى أعطيته. الجنود سوف يأخذونك خارجا ويصفونك على الحائط استعدادا لضربك بالرصاص. يمكن أن تكون رصاصة حية أو فشنك. ذلك يعتمد على حظك".

قال أجيو فجأة" دعه يرى ظهرك".

لقد تم جلدك، أول ما طرأ على ذهنى، بحكم معرفتى الجيدة بطريقة قضاء هذا الجيش لوقت الفراغ.

"لا، كنت محظوظا. لعبة الروليت فقط" بدأ يخلع قميصه" رغم ذلك حصلت على شىء آخر" لم يكن ظهره فقط. بل نوع ما من الفطريات يغطى جلده كله، فطريات خضراء وصفراء انتشرت كطاعون معد فى كل أنحاء جسمه". قال:

"لقد تحسن الآن، إننى أظن هذا على الأقل، لقد أصبت به فى تلك الفتحة المظلمة. أظن أنه ينمو بسرعة فى الظلام".

قال أجيو" المرض لا ينزل علينا من الفضاء الخارجي، أنت تحتاج أن ترى المرض من الفضاء الإنسانى، إذهب إلى الزنزانة رقم ٣ واطلب من الرجل أن يريك ظهره".

"أى رجل؟

"صديقى، E ظهر هناك يستحق أن تراه. لكن هذا بالذات الذى أعنيه سوف يعرف نفسه. كل جداول دلتا نهر النيجر مرسومة على ظهره. تعرف أن هذا أنقذنى من الكرباج؟ لقد أخذونى هناك للعلاج عندما تعرفت على أحد الجنود. وقال آه - آه، هذا أجيو نوريس، لا أيها الموسيقار. اسمع لقد عملت فى ملهى ليلى وأنا أحب العمل فى الموسيقى. لا أحد أنقذنى. لكنهم لم يعيدونى لذلك رأيت الجلد بعينى وأشكر الله لأننى أعزف موسيقى. إنهم يربطونهم فى أعمدة على الأرض، مطروحين على بطونهم. أحيانا يضربونهم أربعا وعشرين جلدة وأحيانا ستا وثلاثين. فإذا لم تصرخ فإنهم لن يتركوك. هذا الرجل أقول لابد أن يرسم دلتا النيجر على ظهرك، لقد أعطونى أربعا وعشرين جلدة كل يوم. كل يوم. عندما يغمى على يتركوننى. ولا علاج للجروح. عندما جاء إلى هنا لم أكن بدأت العلاج. نظر إلى. قال لهم أقول دع هذه السحلية تريك ظهرها".

"السحالى؟"

"نعم. أنت تعرف المثل الذى يقول - كل السحالى لاتنام بالنهار على بطونها لكننا نعرف أى واحدة سوف تصاب بالألم فى بطنها. حسنا، نحن نعرف أيها سوف تصاب بالمرض".

ذهبت ونظرت إلى ظهر ملىء بالقروح المتقيحة. لا يوجد جلد. لا شىء مطلقا. كتلة من القروح التى لم يعد لها تعريف لأن كل القروح داخلة فى بعضها.

رجعت وسألتهم عن معلومات تفصيلية حول الحفرة السوداء. لقد قرروا فيما بينهما الطول والعرض. كانت مربعة تقريبا تربيعا كاملا. كان بها أحد عشر رجلا يتقاسمونها، منهم ثلاثة فقط يمكنهم الخروج دفعة واحدة. أما النافذة فكانت مجرد فتحة صغيرة أعلى الحائط. ولكى يحصلوا على هواء نقى من خلالها، كانوا يأخذون أدوارهم الواحد بعد الآخر واقفين فوق المبولة. هذه الفتحة الصغيرة للنافذة كانت موضوعة فى مواجهة السقف حتى لا تسمح إلا بمرور القليل من الضوء إلى الزنزانة. عاشوا خمسة شهور فى غسق أو فى ظلام دائم. لقد اعتادوا النوم فى المكان الذى يجلسون فيه، فى مثل قرفصة الجنين. التحية العظيمة هى الذهاب لتفريغ المبولة. كان هذا يعنى استنشاق الهواء والتريض. وكان هناك أحيانا، ذلك الحارس الطيب القلب الذى يسمح بمد هذه المتعة للرجل المحظوظ، يتركه معلقا لوقت ما فى الخارج بل ويعطيه سيجارة يدخنها. فى نهاية أحد الأسابيع حين لم يكن هناك عدد كبير من رؤسائه، سمح بتفريغ المبولة إحدى عشرة مرة. وحين حدث ارتباك فى جدول الخدمة، فى مرة من المرات، جاءوا ينفخون. لقد كان الهواء الطلق والتمرينات الرياضية شيئًا ثمينًا.

لقد رجع ذهني إلى ظهر الرجل الذى رأيته، الشقوق التى مازالت متقيحة، أورام بارزة سوداء. الحفر الناتجة عن طرف الكرباج لابد قد حفرت أكثر من واحدة. عدة بقع لمرض الجرب يصل سمكها بوصة. من رقبته حتى قاعدة الرأس مغطاة بالقروح.

"لقد تم جلدهم فى الخلاء، قلت ذلك".

"نعم".

"وكانوا يصرخون؟"

ضحك أجيو". يا صديقى، عليك أن تبتدع كلمة جديدة. أنت متخصص فى اللغة الإنجليزية أليس كذلك؟ ابتكر كلمة جديدة".

"لكن جوون يعيش فى هذه الثكنات. لابد أنه سمع ذلك الصراخ".

قال أجيو، "بصراحة لا أظن أنه يعرف. إنه يعيش بعيداً جداً عن حجرة الحرس".

فصممت على رأيى" إن تلك الصرخات لابد أنها اخترقت الجدران المسلحة".

أجيو يؤكد، "لا أظن أنه يعرف، لا أظن حتى إن بعض كبار الضباط يعرفون. إن هناك لقطاء بينهم. لكن، خذ مثلا، ذلك الحارس الذى اعتاد أن يتركهم يفرغون المبولة إحدى عشرة مرة فى كل نوبة. هكذا بينهم أناس مهذبون".

نظر الطالب إلى أجيو لبعض الوقت. "لقد أخرجنا ذلك من قبل. أجيو يعتقد فى هذا حقيقة... ماذا يسمى نفسه ثانية - آه نعم، وسيلة التنفيذ التى اختارها الرب". التفت إلى، "فى تلك الزنزانة السفلية ظللت أفكر وقتا طويلا عن الشخصية التى يذكرنى بها. وصلت إليها أخيراً. كان ذلك عندما وصلت صرخات المعذبين إلى مسامعى داخل الزنزانة تذكرت. لابد أنك تعرف فليكر".

نظر أجيو فى حيرة" لم يكن لحسان أى علاقة بهذا. لم يأت أبدا إلى هنا".

فشرحت له "ليس البريجادير حسان. حسان هو عنوان مسرحية".

"مسرحيتك".

"بل مسرحية فليكر".

واصل الطالب كلامه: "هذه هى الصورة التى وردت على ذهنى. صورة الشخص الهادىء المصاب بالسادية الذى يتناول غذاءه ويشرب النبيذ ويهدهد نفسه لكى ينام على صوت المعذبين "استسلم أجيو" لم أعد أعرف عم تتكلمان. "بعد برهة تكلم الطالب" الإضراب عن الطعام كان فكرتى أنا".

قلت، "كانت فكرة صائبة، والسؤال هو كم من الوقت يمكنكم جميعا الاستمرار".

"اليوم كله. أما الذين لن يضربوا فسوف يختلسون شيئًا من حقوق السجناء بطريقة أو بأخرى. هذا لا يهم. هل تعلم ما الذى دفع هذه الأشياء إلى المقدمة فى ذهنى؟ لم تكن أوضاعنا، رغم أنها سيئة بدرجة كبيرة. لكن رغم كل شىء فلسنا حيوانات، حتى نحبس هكذا فى العشش. لا، إنهم سجناء الجيش. والمعتقلون الذين فعلوا ذلك. إنهم موجودون فى البلوك المقابل. أحدهم ظل ست سنوات يسرق مفروشات الجيش وأثاثاته. والثانى أعطوه اثنين لتزوير أذون صرف كميات من البترول وبيعها. عدة أحكام مثل تلك لمخالفات بسيطة وهكذا. منذ أسبوعين جاءوا بشاويش - تذكر، لم تتم محاكمته بعد ولم يقدم لمحكمة عسكرية. لقد أرسله ضابط الموقع إلى لاجوس ليجعلوا منه عبرة. لقد أطلق النار فقتل ثلاثة عشر فى أسابا بما فيهم بعض أسرى الحرب. قتلهم بدم بارد. لقد تم حجزهم معا فى حظيرة وكان هو يقظا. شاب من اليوروبا، شاب دمث الأخلاق حقا. جاءوا جميعا إلى هنا لاستخدام طاولة التنس مع السجناء ذوى الشخصيات المهمة جدا. اعترف أنه قتلهم بفعل الخوف، قال إنهم كانوا يتكلمون بلغة الإيبو وطلب منهم أن يتكلموا الإنجليزية فقط. فتجاهلوه. فقررأنهم يدبرون شيئا ما لذلك وجه بندقيته نحوهم وقتلهم.

"تم إطلاق سراحه منذ يومين. وأعيد تعيينه فى قسم جديد. كان موجودا هنا حين جاء أمر الإفراج عنه. كان الجميع يناقشون ذلك، أقصد زملاءه. لم يشغلوا أنفسهم كثيرا بفكرة نظام العدالة هذا".

"هل ذكروا اسم من وقع على قرار الإفراج؟".

"قيل فقط أن القرار جاء من مكتب رئيس هيئة الأركان. كان الشاب أكثرنا دهشة من هذا الأمر. كان يتوقع محاكمة عسكرية أو على الأقل عدة سنوات فى السجن. أعتقد أنه سيأتى يوم حين تصبح العقوبة هى إجازة يوم عقابا كافيا لقتل أحد أبناء الإيبو".

"إنها الحرب" هز أحد زملائه فى الزنزانة كتفه.

"لقد فكرت فى ذلك. ثم سألت نفسى. إذا كانت الحرب فلماذا يبقى مهربو البترول فى السجن؟ لا، إنه فقط جزء من عملية الإبادة البطيئة ذاتها. لقد تربت فيهم هذه الرغبة. إنه خال من جميع الأمراض المتوطنة. هذا الشاب أدى دوره. ، لقد تم إطلاق سراحه. لقد أدى مدير السجن الأحمق دوره، لهذا السبب فهو يهين إنسانيتنا. كنت محتاجا لأن أفعل شيئا كنوع من الاحتجاج دون النظر إلى مدى غموضه أو بعده عن السياق".

"أكدت له أن هذا ليس خارج عن حدود الموضوع".

"إننى أخشى كما تعلم. أخشى كثيراً على المنطقة الغربية فى الوسط. حتى بعد أن تم إعادة المكان كله، ولم يعد هناك إطلاق للرصاص. سوف تصبح اعتداءات الشماليين وفظائعهم كلعبة من لعب الأطفال".

هناك صمت فى الزنزانة. كل واحد من المقيمين داخلها لديه ذاكرته الخاصة عن تلك المذبحة وبات مشغولاً بها. الطعام الداخل تحت عقب الباب تم إهماله. لم يستطع صوت الطالب أن يصل، لكن كان من السهل الإحساس أن تلك الصدمة التى لن يمحى أثرها قد انتقلت إلى بقية المحتجزين، حتى انتشر نوع من الاكتئاب فى الزنازين الأخرى. وقف الطالب فى مواجهة النافذة ناظراً إلىّ. أدركت أن وجودى غير مطلوب فمشيت بعيدا فى هدوء. بدت الزنازين وأنا أمر بها مزدحمة بأجساد مسنودة على الجدران.

حل المساء وجاء المشرف ومعه قائمة الطعام. لم يعد يبدو كوميديا كما كان بصخبه وتهديده الذى تمكن الآن من الجمع بينه وبين بداية التفاوض وتقديم الوعود؛ كان فقط بذيئا. لقد ظهر (الوهن) فى صوته مراراً. "لكن ماهى بالضبط شكواكم؟ فقط، ماهى شكواكم؟" لا أحد نظر إليه أو تكلم. أمر بفتح الأبواب ووضع الطعام فى الزنازين. قعقع صوت الأبواب مرة ثانية لكن المساجين لم يتحركوا. عندما أخذت خطواته فى التراجع، سمعنا أصوات الأوانى الألمنيوم تحتك بالأرضية. وسرعان ما امتلأ الممر بقصارى الطعام المصطفة والتى لم يمسها أحد.

الليل: نزل صوت إغلاق الأبواب الوحشى المحزن إلى الزنازين، وحبست الترابيس نفسها فى فتحات الهواء الشديدة الضيق. كل سجين أخذ نصيبه من المجانين.؛ لم يمض وقت طويل حتى علا أحد الأصوات الآتية من مبنى بعيد، وأخذ يسرد أسراره السوداء. تصحبه قعقعة القيود

الحديدية؛ أتت هذه الأصوات صافية فى جنح الليل مع تيار الهواء إلى سجن شاكى. كان القمر يقترب من اكتماله. كانت صيحته المرعبة جزءا من حركة تلك العين الفضية اللون المقتحمة.

فى منتصف الليل تقريبًا بدأت تنمحى من الوعى، داخله بهدوء فى سكون الأحلام. عندما جاء الصوت الجديد، قبيل منتصف الليل بوقت قصير، لم يبدُ أنه ينتمى إلى عالمنا، ولا إلى ذلك العالم الذى يذبل يوميا خارج هذه الجدران. إنه صوت غريب، بدأ كفيض مهدئ، داخل إلى فيضان مظلم، يلتف إلى داخل وخارج الليل. لقد لمس ولف نفسه حول الجلد، خفيفا كالنوم، لكنه غريب لا يمكن أن يكون جزءا مما كنا فيه، مما كنا نشعر به يوميا، مما كان يهاجمنا أو يساندنا. أعرف أنه جاء من مكان ما عميق فى باطن الأرض، من التربة المسحوقة، كنت أعرف هشاشة قرون الاستشعار الألم والنصر.

هؤلاء البشر المتوحشون من تحتنا كانوا يغنون، وصارت أجساد النزلاء المنصتين أداة توصيل حقيقية ملموسة. شعرت بأن كل نفس فى هذا البلوك مستيقظة تمامًا، تنصت، لا تكاد تتجاسر على التنفس أو الحركة. لا أحد يمكنه أن يتذكر كم من الوقت استمر الغناء. لم يصرخ أحد، لم يشك أحد أن نومه قد اضطرب. ربما استمر بين ساعتين وثلاث ساعات، كل أغنية تنساب إلى التالية دون فاصل بينهما. تنتهى أغنية، صوت جديد يبتدئ أغنية أخرى ونغماتها الأولى تكاد تكون استمرارا للأغنية الأخيرة. يتخلل كل هذه الأغانى حالة من الشجن والقوة.

لا شىء ســوى صــوت الترانيــم فى الصبـاح والصلــوات فى المســاء. كنا نسمعه فيما مضى من هــؤلاء الناس. والآن فجـأة فى هدأة الليل فإن الظلام الذى فى قلوبهم راح يستدعى أصواتا من المدفأة والضريح. إنه يضمنا جميعـا، يضم الغرباء إلى بيـوتهم، فى إنسـانيـة واحـدة مشــتركـة.

وهذا ما تأكد فى صباح اليوم التالى. حتى المخبرون تأثروا وربما أحسوا سرا بالعار. مع تصاعد هذه الأصوات الليلية سمعنا قيودهم تنفك، بل وقيودنا أيضـا. شعرت بأن السقف ينسحب ليكشف سماء مشتركة. لقد أداروا أصواتهم داخل أعماقنا، وجعلوا كل رجل يشارك فى سر مقدس من أسرار أخوة الدم والخطيئة والألم.

وفى نفس الوقت تقريبا الذى انفتحت فيه بوابات الزنازين فى اليوم التالى، جاء السؤال من شفاه كل واحد، هل سمعتهم؟، هل سمعتهم ليلة أمس؟ وكانت الإجابة المرافقة، لم أستطع النوم حتى بعد أن توقفوا عن الغناء. لم أستطع النوم".هؤلاء المجرمون العجفاء من المحكوم عليهم والمصابون بسعارالكلاب من أتباع (N N N P) الذين كانت عقيدتهم السياسية هى فوبيا الإيبو، لقد توقفوا وهم فى طريقهم إلى دورة المياه عند زنازين أعدائهم السياسيين. أنا سمعتهم يقولون، " هل سمعتهم؟ هل سمعتهم يغنون؟" كانت المرة الأولى التى يعترفون فيها بوجود إكوكو وأدييانجو، لكنهم اضطروا للمشاركة فى التجربة وشعروا أن هذين الشخصين هما أكثر المخلوقات الموجودة رقة وإحساسًا. بحث كل واحد

عن تفسير دون أن يطلبه، كل واحد بحث عن مغزى لم يكن من السهل تحديده. كل واحد شعر بالخوف من الاستجابة التى كانت مضمرة داخله وتفسيراتها ومطالبها. وفوق كل شىء، كان هنا الوعى فى داخلهم، لأول مرة ربما، إن روابط الجسد والشجن قد تسامت حتى ولو لساعات قليلة، بفضل هذه، هذه الطفيليات الدنيا حسب التصنيف الرسمى، لمجتمع السجن.

يون داكولو، وحده لا يزال فى واحته المتميزة فى وسط هذا الخراب، كان غاضبا بصورة واضحة. لقد نزلت من أجل الحديث معه متسائلا كيف كان أثرها عليه وهو فى نفس الطابق. وجدته يخطو هنا وهناك غاضبا فى زنزانته، معلنا عن أفكار غير متناغمة، غاضبا من شىء ما لا يستطيع أن يفهمه، غالبا فى نفسه. بمجرد أن رآنى انفجر!

"ابعد عن هذه القذارة؟ ابعد عن هذا الروث؟ هل تعرف، إننى فى بعض الأحيان وجدت نفسى على وشك ازدرائهم ببساطة لقبولهم أن يعاملوا بهذه المعاملة. إنه أمر سهل كما تعرف. إذا رأيت البؤس مدة طويلة فسوف تنتهى إلى احتقاره. لذا فلماذا كل هذا؟ ما هذا الذى جاء منهم؟ أنت لا تعلم، فلم تكن معهم فى غرفة الصوت. الشىء كله... كان يبدو كأنه تعذيب. كان يؤذينى ومازال... أنا لا أعرف. أنتم أيها الكتاب. إذا لم تستطيعوا... القوة. هذه هى. القوة. إن لها هذه القوة كما تعرف. لقد منحتنى قوة حتى وهى تؤذينى. لم أقض أبدا ليلة مثل تلك، أبدا فى حياتى.

لقد مر بزنزانتى فى الدور الأعلى بعد ساعة، ممسكا بالصابونة والفوطة وتوقف لكى يشرح".لقد انهرت. كنت أحاول أن أجمع شجاعتى لأمشى بعد زنازينهم نحو دورة المياه لكننى لم أستطع أن أفعل ذلك. كما لو كنت خائفا أن أجد شيئًا فى وجوههم غير إنسانى. أقول لك لا أستطيع أن أنسى هذه الليلة".

قال أديبينجو، "أتمنى أن يكون علماء البيئة الإنسانية قد سمعوهم".

مع ذلك فأمس، هو يوم ساحر، تم فيه فتح الزنازين، وإعطاؤهم الصابون لكى يغسلوا ملابسهم والبطاطين. وشموا الهواء وتشمسوا، وأحضروا الحلاقين لمن يريد أن يحلق شعره. فصف المحتجزين النظيف الرائحة الذى شاهدتموه لم يكن هو كتلة النفاية التى بقيت دون غسيل، فى أوضاع غير صحية لعدة شهور. لقد اضطروهم للخروج فى الخلاء طبعا حتى لا تروا دليل الزحام والتكدس. هل ربطتم الفضاء بذلك البلوك السفلى بعدد المحتجزين فى الخارج.؟

أخيراً، من الأمور المبدئية أن تصمموا على التحدث سرا مع المساجين. أسئلتكم الموحدة نمطيًا للمساجين المحاصرين بحراسهم، حول أوضاعهم، كانت مهزلة مؤلمة. الانتقام المتوقع نتيجة تقديم إجابة خاطئة من المؤكد أنكم تجهلونه. إذا كنتم لا تستطيعون أن تبحثوا بدقة، فلا داعى لزيارة المساجين السياسيين مطلقا. إنها لا تقدم للنزلاء شيئًا سوى آمال كاذبة.

هامش: موجه إلى الصليب الأحمر:

عندما زرتم السجن فى ديسمبر، ١٩٦٧، كنت أراقب من نافذتى تفتيشكم لصفوف أبناء الإيبو فى الفناء خارج البلوك. قبل وصولكم تم فتح الزنازين الخاصة بهم، لأكثر من ساعتين لأول مرة فى فترة شهر أو أكثر. أما مدير السجن، المهرج الذى أسميه جنرال سيمو قد أصدر أوامر هو نفسه. قبل ذلك بشهر، بألا يتم صرف صابون لهم. ليس هذا فقط بل أمر الحراس بأن يجمعوا شرائح الصابون من الزنازين. السبب أن المحتجزين قد شكوا أنهم لا يحصلون على الكمية المخصصة لهم من الصابون. وهذا صحيح. فالصابون الذى كان مفروضا أن يأتى تناقصت جرايته بالتآمر بين المتعهدين وبعض الحراس. لذلك ظلوا لمدة شهر حتى يوم أمس بدون صابون.

الفصل الرابع عشر

لقد جاءوا في منتصف الليل، أحد كبار الضباط، في صحبة ثلاثة من الحرس. لف الحراس رؤوسهم بالطواقي، واتخذ الضابط أسلوبا ونغمة مفاجئة وقاطعة. وفيما هم يعبثون بالقفل قفز عقلي غريزيا إلى المحاولة السابقة التي استهدفت قتلي في منطقة الأمن الوسطى (ميديوم سيكيوريتي).

"اجمع حاجياتك واحزمها".

نزل على الصوت كأنه أمر موجه لكلب. سرحت بعقلي بعيدا عن لحظة وجودهم هذه، ملفوفين في مشاية تغطيها الظلال حتى أوشكت أن أحسب أنني أسير وراءهم أشبه بآلة أوتوماتيكية. أما الركن الآخرمن عقلي، فكان متحفزا بطريقة غريزية بكل احتياجات البقاء في السجن، بدأ يدبركيف ألهي هذا الرجل بدرجة تتيح لي أن أخرج قصاصات الورق والقلم من التربة، والملاحظات التي أعددتها لتوصيلها للمرة الثانية إلى رفاقي في الخارج.

لقد أحسست بالارتياح لوجود بعض المحتجزين الآخرين ساهرين ومتجمعين عند مدخل زنزانتي- لم تغلق أبواب زنزانتهم طول الليل.

أديبانجو بصفة خاصة، اقترب جدا من أحد الحراس واستطعت أن أسمع همسته حول الضجة التي كنت مستمرا فى إحداثها بالمبولة والجردل.
– "إلى أين سيأخذونه؟" لمحت بزاوية عينى الحارس يهز كتفيه.

كيف فشلوا هذه المرة فى تحذيرى؟ كنت أفكر فى ج. ورفيقى الآخرين. هل تم كشف أمر تجسسهم أخيراً؟

وبينما كنت أخطو أولى خطواتى خارج الزنزانة، سألنى إكوكو إذا كان ثمة شىء أحتاجه وأجبرنى على أن آخذ بعضا من سجائره. أديبانجو وضع فوطته على وهو يضغط. فقبلتها، ظنا منى، أنى قد لا أحتاج إلى شىء فى المكان الذى أنا ذاهب إليه.

انحاز الضابط جانبا وأخلى الطريق لكى أتقدمهم فى السير. عند نهاية الممر، ازدادت مخاوفى نتيجة لضغط الممر الضيق على أعصابى وكذلك بسبب إحساسى بتهديد الحراس الثلاثة من خلفى فتوقفت واستدرت وصحت بأعلى صوت:

"أريدكم جميعا أن تعلموا أننى لن أحاول الهرب. إذا حدث شىء لى فتذكروا هذا".

وأثناء نزولى على السلم سمعت صوت أوليو أديبانجو يرن فى كل أنحاء الممر طالبا من كل النزلاء أن ينتبهوا مذكرا إياهم بأننى خارج من هذا البلوك فى منتصف الليل، إلى جهة غيرمعلومة وأنا فى كامل الصحة والعافية. مشينا عبر الطريق الصحراوى المحيط بالسجن، أحد الحراس

يحمل صرة ملابسى تحت إبطه. وفى المكتب تركنى الحراس الثلاثة وحدى مع الضابط وكان هناك رجل عجوز يقوم بعمله. احتفظ الأول بتجهمه وأخيرا ذهب بوجوده المحزن إلى مكان آخر. وقبل أن يرجع نظر الرجل العجوز إلى برهة ثم انفجر فجأة:

"لماذا لا يتركونك وحيداً؟ إلى أى مكان سيأخذونك هذه المرة.؟"

رفعت كفى إلى فوق لأبين أننى لا حول لى ولا علم فى هذه الأمور. فجأة اندفع الجنرال سيمو إلى داخل المشهد، ليقدم فتواه. كان يفيض حيوية ونشاطا كما لوكان منشغلا بعملية ترقية من أجل الإنسانية. فى تلك الساعة من الليل. ظهر هذا المخلوق الغريب مغسولاً من جديد، مدهونا بالزيت مهندما، منتفخاً بسعادة خفية فى زيه.

"أخذت كل شىء؟ أوه، هذا صحيح. هل أعطوك كتابك؟"

"أى كتاب؟"

"ألم يعطوك كتابك؟ الكتاب الذى كتبته أنت".

اندفع خارجا، وعاد بنسخة من ديوان أشعار "إدانر". لم أكن قد رأيت نسخة منه حتى ذلك الحين. قلبت الكتاب فى يدى. هناك اسمى مطبوع بالبنط العريض على الغلاف. وبطريقة معجزية، أحسست بتصاعد روحى المعنوية بسبب ملامستى لهذه الشريحة من كينونتى الداخلية المطبوعة حديثاً وهى بين يدى. لقد قلبته ورأيت صورتى على الغلاف الخلفى، فتحت الصفحات فوقعت على القصيدة المكتوبة إلى ابنتى.

سألت الرجل: "لماذا تعطوننى هذا الكتاب الآن فقط؟"

هــز يديه بعصبية" لقــد نسى أحدهم أن يسلمه لك، هذا كل ما فى الأمر".

"إلى أين تأخذوننى؟"

تمتم لفترة طويلة. ففى الوقت الذى دار فيه حول نفسه لكى يكذب بصوت خافت استدرت أنا بعيداً أقرأ قصائدى المطبوعة".

والآن بدأ الانتظار الطويل. ساعة. ساعتين. ثم ثلاثا. بعد ساعتين أقلع المشرف وانصرف إلى بيته، وتركنى فى حراسة الضابط الكشر. وقبيل الفجر رن جرس التليفون، رد عليه الضابط، ثم التفت نحوى وأعلن:

"سوف ترجع إلى الزنزانة"

وفى فترة بعد الظهر فى نفس اليوم وصلتنى رسالة ج. المتأخرة. موجهة إلى دان تقول ببساطة، "أخبر صديقك ألا يفزع إذا أتوا إليه مرة ثانية".

الفصل الخامس عشر

استطرادا حول موضوع الجرائم الوحشية واللجان والفراغ فى عقل أصحاب السلطة.

بعد تحرير الجزء الأوسط الغربى مباشرة من قبضة المتمردين الفندالز (المخربين) بواسطة الجنود الفيدراليين الشجعان شكلت حكومة جوون لجنة باسم لجنة الجرائم الوحشية. كانت الحرب لا تزال دائرة طبعا. فإذا كان ثمة شىء فهى أشد سخونة، وأشرس، وأكثر شمولا عما حدث من قبل. كلمات الحرب الشاملة، التجنيد العام، السحق، إلخ. لكن، فى وسط هذا التصعيد لإرادة الحرب، تم إهمال الوقت والطاقة لتفعيل اللجنة والشهود والحراس المسلحين، والبيروقراطية، والنفقات. كان هذا كله كما يجب. ومن الضرورى تسجيل هذه الأشياء. الغزو بالمصطلحات الخاصة لهذه الحرب وبتعبير أغلبية الشعب فى الجزء الأوسط الغربى، كان جريمة. كل الجرائم يجب فحصها فى وقت السلم أو الحرب.

وبالنسبة لى فقد رحبت بذلك خصوصا أن عبارة الجرائم الوحشية اختفت من موضة الكلمات والمعانى فى قاموسنا الخاص. فعلى الرغم من

كل شىء فإن الكلمة تعنى شيئا ما. فهى تعطى تعريفا لظاهرة، وتحدد معنى حادثة تمت أو مازالت فى طور التكوين. الحقيقة أن هذه الكلمة من أشد الكلمات فاعلية. طبعا فى بعض الأحيان لا تستطيع كلمة أن تحقق الغرض، بمفردها على الأقل، فلا بد من منحها الصلاحية عن طريق الاستجابة، بالقبول الإيجابى أو بالمقاومة. إن الحكومة الفيدرالية للوسط الغربى بتكوينها لهذه اللجنة فإنها تثبت لى أن كلمة الفظائع الوحشية تستدعى الاستجابة الأخيرة. لقد سارت خطوة أبعد وحددت الشكل الدقيق الذى يجب على هذه المقاومة أن تتخذه. وأنا فى زنزانتى بسجن كيرى كيرى، كنت سعيداً أنه تم إنقاذ هذه الكلمة من الإهمال.

يبدو أن حكومة أيرونسى لم تكن فى وقتها أقل اهتماماً بمسئوليات هذه الكلمة. وهى مسئولية كما يتضح مما سبق، قد أخذت شكلا حقيقيا فى نوفمبر ١٩٦٧، بفضل يعقوب جوون. فى مايو ١٩٦٦ قام أيرونسى بتعيين لجنة (بنفس الشكل) للتحقيق فى الفظائع، التى تعرف عموما بالمذبحة الصغرى فى الشمال. كانت هذه اللجنة مازالت تقوم بالعمل عندما استولى جوون على السلطة فى يوليه من نفس السنة. وأعلن للجماهير أن عمل اللجنة سوف يستمر دون تعطيل - كان هذا واحدا من أول بياناته للأمة. لكنه أماتها سرا. لم تعد الأمة تسمع شيئا عن اللجنة التى أنشأها أيرونسى والتى ورثها جوون للتحقيق فى الفظائع التى وقعت فى مايو. وعلى فكرة لقد وقعت فى زمن السلم.

في سبتمبر – أكتوبر ١٩٦٦ وجد جوون فرصة عظيمة لتشكيل لجنة كبيرة خاصة به. كان له كل الحق فى ألا يؤمن بجدوى التحقيق فى الفظائع. فالصمت الذى أحاط بلجنة مايو أعطى دليلا لأن يكون الأمر هكذا. هذه كانت ميزته. رجل، خصوصا أنه واحد لديه مشاغل، فله الحق فى أن يعتبرأن اللجان فى حد ذاتها لا لزوم لها. لذلك فإن الحقيقة التالية دونت فقط لمجرد التسجيل. فى سبتمبر– أكتوبر١٩٦٦، وقعت فظائع أخرى فى كل أنحاء نيجيريا، بما فيها لاجوس مقر حكومة يعقوب جوون نفسه. لكن المكان الذى ظهرت فيه على مستوى واسع، كان فى الشمال. كانت الفظائع عامة حتى فى الجنوب. (لاجوس) التى أوفدت مندوبيها إلى مؤتمر دستورى افتتحه يعقوب جوون، وكان طبيعيا أن يديرها جيش يعقوب مباشرة على مرأى من مبنى المجلس، حيث جرت تلك المناقشات الخاصة بالدستور. وتم تعميم اصطياد الرجال بواسطة البنادق ذات العدسات، حول إيكوى حيث يعيش جوون، وتمت الإعدامات، ومباريات التعذيب التى استمرت فى محل إقامته الرسمى. ثكنات دودان، على المدنيين الذين تم القبض عليهم فى الطريق العام – نقطة تفتيش أكروديو كانت هى النقطة المفضلة لخطف الناس. كانت أحداث يومية عامة معروفة ليعقوب. أما بالنسبة لأحداث الشمال، دعنا نوجزها، ونقول إن الفظائع وقعت على مستوى واسع وشامل، ومنظم جيدا حتى إن مختلف الإشارات كانت تصفها بالمجزرة الكبرى (كما تميزت عن بروفات مايو) أوإبادة أجناس، وفى بعض الأحيان مجرد

اضطرابات. وهذه العبارة الجوهرة قالها أوكبابى أسيكا -حالة شذوذ! لقد خطا يعقوب جوون بنفسه خطوات بعيدة، تكفى لوضعها تحت المجال الواسع للفظائع فى مناشدته. كلمة مناشدة فى حد ذاتها ذات مغزى. تقول الكثير عن جوون،.

الإخوة أبناء الشمال:

أريد اليوم أن أوجه هذا النداء لكم جميعا بصفة خاصة. لقد تمنيت كثيراً أن أزوركم شخصيًا، لأننى أعرف أن هناك كثيراً منكم لم يقابلونى أبدا، لكن هذه الزيارة لم تكن ممكنة نتيجة لضغط العمل.

تعلمون جميعا أنه منذ نهاية شهر يوليه، أودع الله، بسلطانه مسئولية هذا البلد العظيم، نيجيريا، فى أيدى شخص آخر من الشماليين...

هذه المسألة المهمة (مهمة بالنسبة لجوون) أعاد القول، لأنه من الواضح أن الشماليين هم الذين كانوا يحتاجون إلى التهدئة، وليس الضحايا. إن تأثير هذه اللغة المهادنة على العجزة والمشوهين من الضحايا، ليست بالطبع، غير مهمة. لذلك فهو يؤكد هذه النقطة: (مابين الأقواس هو تعليقات الكاتب).

أود هنا أن أكرر ما قلته سابقا. إن مسئولية بقاء نيجيريا كدولة قوية هى اليوم بأيدينا. وهى مسئولية لا يمكن التهاون فيها. إن التعامل مع المسئوليات بنوع من التهاون لا ينبغى، طبعا، تعريفه على نحو يقبل

الاستفزاز الطائفى لهذا البيان. ولا يمكن لأى فوضوى مسعور، أن يوحى لنا بأن طريقة عدم تناول المسئوليات بهوادة يعنى تجنب نغمة التهدئة فى وجه الفظائع الوحشية. لكن، دعونا نستمر:

منذ يناير من هذا العام، حين قام بعض الجنود بإحداث الاضطرابات فى بلدنا، وقتلوا قادتنا السياسيين والعسكريين، فإن الوطن لم يتعاف تماماً من هذا الاضطراب.

إن الحزن المترسب فى عقول الناس عن أحداث يناير قد أدى إلى اضطرابات قام بها المدنيون فى الشمال فى مايو، مما تسبب فى خسائر فى الأرواح.

فأنا أتلقى شكاوى يوميا حتى الآن، بأن الشرقيين الذين يعيشون فى الشمال، يتم قتلهم والتعدى عليهم، ونهب ممتلكاتهم. (إننى فى غاية الحزن من أجل هذا). ويجب علينا أن نضع حدا لهذه الحوادث. (يبدو أنها فى طريقها إلى الخروج عن العقل إلى درجة التهور والتخلى عن المسئولية).

أظن أننى فى الطريق لأن أفقد عقلى!

ملاحظات أضيفت فى وقت متأخر:

لقد تذكرت توا ماكنت قد شرعت فى قوله:

الآن وقد امتلأ الفراغ فى عقل السلطة بلجنة التحقيق فى الفظائع فى يقظة شهر أكتوبر ١٩٦٧ (الغرب الأوسط) فإننى أتساءل إذا

كان قد تم تطهير الغرب الأوسط من آخر بقايا الدخلاء، وأنقذ الأمة تماما وحمى ظهرها بالدرع اللامع لأمة متحررة من الفظائع، فسوف تشكل لجنة الفظائع الآن، للنظر فى المجازر والتعذيب الذى حدث للمدنيين الإيبو من سكان الغرب الأوسط على يد القوات الفيدرالية ومعاونيهم من المدنيين. لقد تلقيت قبيل رحيلى من سجن شاكى تقارير شاهد عيان، من جندى فيدرالى شاب صغير ترك دراسته حين رأى مثله العليا تتمزق بسبب الإعدامات الطائشة للمدنيين. احتج، ثم، أحس أن حياته فى خطر، فهجرهم وهرب إلى لاجوس. فقبض عليه ووضع فى السجن بعد أسبوع. كانت عمليات الإعدام اليومية والتعذيب ما زالت مستمرة عندما غادر المكان. لقد رأى عائلات كاملة تجلد بدم بارد. الفظائع؟ أم ببساطة، الحرب؟

الفصل السادس عشر

كادونا ١٩٦٨

بدأ الموكب من مكتب المشرف. رحلة صيد سفارى، صف من الحمالين يتقاسمون بؤس حمل الممتلكات، عبء لايكاد يذكر، عمره خمس سنوات، ونحن نبدأ الرحلة خلال أقفاص حيوانات. أقفاص متشابكة، تبدو لقليل الخبرة كمتاهة صممها علماء مجانين لاختبار درجة ذكاء الفئران. من الذى سيختبر ذكاءكم، أيها العبيد، ذكاءكم وذكاء هذه الحيوانات التى تطيعون زمجرتها.؟ من أجل أعمال شيطانية، أوه، نعم، هذا الخبث لا يحتاج إلى اختبار. سوف أكون دليلكم، الشاهد العلمى. من الفئران إلى الإنسان خطوة ذكاء بسيطة، أقفاص ومتاهات لإزاغة العقول. تسمى اختبارا. أو تكييفا، ولعله من المفيد أن يبدأ هناك، تجديد، يعنى أن هذه الأقفاص جزء من العمل كله لتقييم شىء ما. والخبراء المثمنون؟ هم أسوأ الجميع حتى إنهم لا يعرفون ما الذى يفعلونه. اطردوهم إذن لعدم اتساقهم وافتقادهم للمنطق؟ إنهم أدوات؟ مجرد موظفين فى العملية؟ صبية محتقرون لخدمة حقيقة وحيدة هى أنتم.

من أجل خداع النفس. والآن أنت تعرف أنهم يملكون قوة إيقاع الأذى. هذا حقيقي، لكن هكذا الثعبان السام، السريع الانزلاق، يضرب ضربات عمياء.

أقفاص، أقفاص من الأسمنت المسلح وبوابة من الصاج المضلع للمرور. حراس متبلدون يحرسون هذه المنافذ، والبوابة ذاتها عبارة عن حاجز له ترابيس ثقيلة، وأقفال لا توصف. يتم إدخال يد في فتحة بالبوابة، عين تختلس النظرفي داخلها، تحرك المفتاح ويتم سحب الترباس. ثم نمر من خلاله، لكن نهاية الرحلة لا تبدو في الأفق. يد مفصولة عن الجسد تصارع ترابيس حرة ترعد بصداها في كل ياردة، لكن هذه الفتحة المربعة الشكل في البوابة، هي يد العذاب والبوابة تفتح إلى الداخل، تشد لكي تخفي وجه البواب وجسده. هل أنت خائف مني؟ أو خجلان حتى تغطي وجهك بدرع.؟ أوهل أتيت أنا إلى هذا، لماذا يحتاج الأمر إلى ثمانية رجال لكي يقودوني إلى زنزانتي؟ أربعة من أمامي وأربعة من خلفي. ليس مجرد وجود اليونيفورم ألم يعد وجود اليونيفورم وحده تعويذة كافية؟

السؤال يطل من عين كل نزيل ممن يتدربون في الفناء: من هو؟ هذه الضحية الجديدة من هو؟ تسرع الخطى في سراديب الموتى. لولم يكن قد حدث خلل" فني" وهذا ما أعرفه، لفضلتم إحضاري أثناء الليل، متسللا تجنبا لنظرات النزلاء المتسائلة وشكوكهم المستوحاة من المشهد. لا شيء يفلت من المساجين، على الأقل تفاصيل حياة أي نزيل جديد،

ففى غضون ساعات قليلة سوف يفصلونه قطعة قطعة، يقارنون بين الاستنتاجات حتى يتم الحصول على الحقيقة. لكن هناك قفصا آخر. ونفس اليد تمتد فى ثقب الباب المربع... فجأة ألمس، ثم أحتضن اليقين - لن نصل إلى جهة الوصول أبدا. ليس هناك أحد تصل إليه. سوف نمشى فى هذه الممرات إلى الأبد. سوف أنزل فى ممرات أبدية بحذاء طويل الرقبة للخوض فى الحصى الجاف من أمامى ومن خلفى. أنا وحاجياتى الرثة محمولة أمامى كإعلان عن جريمة سرقة. سوف نمشى فى ممر لا نهاية له وسوف يسقط أفراد الموكب واحدا واحدا، واحد من الأمام وواحد من الخلف ومعهم هذه الأدلة المريبة على معالم إنسانيتى.

إلا بوليفيموس. بوليفيموس - هذا اسم يقفز إلى الذهن بطريقة طبيعية ودون جهد - بوليفيمويس يصعب الخلاص منه، تصعب قراءته وهذا مؤكد. (أنت نزيل جديد مسل، ما زالت لديك القدرة على هذه المسليات السارة؟ بوليفيموس سوف يخرج المسليات عنوة من الجانب الآخرمن فمك، انتظر وسترى) لقد جاء فى مؤخرة الصف، هل فعل ذلك بوليفيموس لكننى لا أستطيع أن أخلص عقلى منه، من وجوده المبكر فى مكتبه عند مراجعة بياناتى، إذ أخذت عيناه تحيط بى انتظارا لتلك اللحظة التى ينتهى فيها الجانب الرسمى ويصبح وحيدا مع وجبة غدائه: أنا. أسود جدا بدرجة تحير أكبر دعاة النقاء اللونى الأسود فى البحث عن تعريفات جديدة سوداء، بوليفيموس طوله ثمانى أقدام، برج ضخم، وجهه مغطى بالندوب وينذر بالخطر حين يزمجر. تتحول نظراته سريعًا

عندما أبدأ أقيس أعماقه الفارغة بنظراتى، فيبدأ خفية فى فحص قطعة غريبة من الطعام قد تجرب قدرته على الهضم. فإذا وجد فى النهاية شيئا يرهق مخه، فهناك آلات التعذيب العتيقة، والعصى المطاطية الطويلة والفوط المبللة، أنا أعرف أن بوليفيموس سوف يكون الكاهن الذى يقوم بطقوس الخضوع والإذعان. خذ بالك لن تحرق أعضاؤك العصبية بسيجارة، ولا بأقطاب كهربية، لا شىء من هذه المعاملات الرقيقة. بوليفيموس ينتمى إلى أسلوب الرفع والقذف، الصفع وطرطشة الماء الملوث. فقط، عندما يظهر نخاع العظم على الحائط، ربما يتوقف محتارا.

عرفت توا متى نصل إلى جهة الوصول. فالجدران مرتفعة وأعناق الزجاجات المكسورة، وأنفاق الأسلاك الشائكة أشد مناعة وتحصينا عن ذى قبل. والآن توقفت مقدمة الطابور وأخلت طريقا لبوليفيموس لكى يصعد إلى البوابة. يظهر من بين طيات جسمه مفتاح، ضخم الشكل يتسكع فوق القفل. رغم أنه فى ضخامة القفل، إلا إنه يختفى فى كفه. إننى أستفيد بلحظات الانتظار كى أقوم بعملية مسح حول هذا القفص وأواجه تحديقة لاتصدق صادرة عن أحد القرود. وهو رابض كأنه يستعد للقفز، فإذا به يتحول بعد كل هذا إلى إنسان يمكن التعرف عليه، لكنه مجنون بدرجة لا يمكن علاجها. نحيف إلى حد يبدو أنه هيكل عظم بلا لحم، جلده من الرماد القذر ومن بقايا عظمة متفحمة ناتئة، وفى عينيه تحديقة ثابتة ووجه مكفهر عليه تكشيرة. حراسى يلكزون بعضهم بعضا ويشيرون إليه. لقد صار الرجل المجنون نكتة لطيفة. وسرعان ما تنقلت

عيناى بين الوجوه الأخرى. نزيل آخر يحدق على البعد بوجه ممتلىء بالعطف. عليك اللعنة! عليك اللعنة أنت وكل أمثالك.! لا تقدم شيئا غير الكراهية. الكراهية فقط. إنها الشعلة الملتهبة التى تمنحك الدفء فى الجو الملبد بالرطوبة وتشحذ روحك حتى تغدو سلاحا بتارا فى المعركة من أجل البقاء. لا تشفق على الضحايا أيها الأحمق لكن فقط، لا مزيد من الضحايا.! وإلا فارقد فى بيتك وتقبل الموت.

تمثل حاجياتى منظراً كوميديا رثا. مشط، قميص مكرمش فقد بياضه من كثرة الغسيل والاستعمال، بنطلون يلمع نتيجة لطول الاستعمال، فوطة يد، فرشة أسنان ومعجون - لقد قبضوا على حبوب الأسبرين والثلازول وقام الطبيب بفحصها؛ اليوم التالى قام بالإفراج عنها - وعن ثلاثة كتب احضرتها من محل إقامتى الأخير، على فترات من كثرة الاستعمال ومن المطر الذى نزل فى إحدى الليالى فأغرق كل شىء فى الزنزانة. وقد اختفت هذه الأشياء ذات صباح دون إعطائى تحذيرا أو أسبابا. أقلام الحبر وأقلام الرصاص وقصاصات الورق حتى علبة السجائر الفارغة المصنوعة من الورق المقوى التى توفر بطانتها مادة ثمينة للكتابة.

بعد أيام قليلة فقط حدث استعراض، تدريب من الواضح أنه قد تكرر كثيرا، فقد اندفعت إحدى فرق البحث إلى داخل الفناء وانتشر أفرادها فى كل اتجاه فتشوا فى كل شق، وتفحصوا الأرضية، وقلبوا الأسرة، وهزوا فتحات الشبكة. كان الفناء صغيرا جدا فملأوه بدون جهد.

كانت أحذيتهم تدوس فوق جلدى حيث كنت أقف خارج الباب مباشرة وأراقب. كان بوليفيموس يعطى التعليمات لكن التدريب كان يتم تحت إشراف عيون وادعة لواحد من كبار الضباط. لكن مهمتهم ليست فقط هى الأخذ. انتهت المرحلة الأولى، كونى لم أتأثربوجودهم المفسد وتهديداته وإرجاء إعادة الأوراق والمطبوعات لى، فإن أساسيات حياتى تم فحصها، وحيث ظهر المفقود أو الناقص، تم تقديمه أو استبداله. وأنا أقف هكذا مزود ب: حمام (بدون ماء) فى الخارج؛ دورة مياه، عبارة عن فتحة فى قاعدة من الأسمنت المسلح، مقعد. فى الداخل – زنزانة للنوم؛ سرير حديد؛ مرتبة من مادة صلبة لاتلين؛ بطانية، ملاية نظيفة لونها بنى، مخدة عبارة عن كتلة من مادة جامدة، صندوق للتبول وجردل للاستعمال الليلى. أربع سيقان من نخيل الرافيا منصوبين على أركان السرير الأربعة، يحملون أقذر شبكة للناموس يمكن أن تتخيلها. ومنفضة للتراب لم تستعمل، سرعان ما عرفت، أسباب عدم جدواها فى إعاقة دخول أى مخلوق أصغرفى الحجم من غراب، أعمى، يطيرباسطا جناحيه. أما فى الزنزانة الأخرى. ، زنزانة "وقت النهار": هناك كرسى، ترابيزة، مبولة أخرى يقصد أن تستعمل وعاء للطعام. هذه المبولة مصنوعة من الخشب البنى ورغم أنها مغسولة، فالتقرحات الدائمة فى لون الخشب تلوث كل شىء. وفى أحد الأيام جاءت اللحظة الفاصلة حين مددت يدى خلفها فإذا موجة من البعوض تهب من شقوقها، بعوض سمين فى حجم الذبابة الزرقاء، بطونه السوداء الممتلئة توحى فوراً أنها

ليست من دماء السجناء التى على الجدران - كل هذا الدم لايمكن أن يكون قد جاء منى.! - لكن من دم قذر فاسد وبراز. أهاجنى المشهد فهاجمتهم بمكتسة ثم قذفت المبولة والطعام عليها. فى اليوم التالى قدمت لى صفيحة كيروسين فارغة مقطوعة.

الزنازين، غير متجاورة، لى اثنتان فى وسط زنازين أربع داخل كوخ فى قلب الفناء المعزول. الزنازين الأخرى مغلقة بصفة دائمة. كل زنزانة مساحتها أربعة أقدام فى ثمانية. هذا البلوك هو المكان المعتاد لعقاب المساجين، صيحات المساجين الذين يتلقون (التعذيب) ربما لا تصل إلى أحد مطلقا، إلا إلى تلك الزنزانة الأخيرة المجاورة لزنزانتى. وهى أقوى الأقفاص المحجوزة للمجانين، والمحكوم عليهم بالسجن مدى الحياة وكذلك من يميلون إلى العنف. معظم الذين يأتون إلى هنا لعقوبة تأديبية فى هذا الفناء، سوف يأتون من هناك بأى حال. لكن هذه اكتشافات متأخرة. إن قائمة حاجياتى الحالية وحياتهم تمتد فقط حتى السقف العالى لزنزانتى (أظن أن ذلك لمنع الانتحار عن طريق التعلق)، النوافذ الصغيرة فى مكان عال بالجدران، تنفتح فقط على أفق من الشراك الزجاجية والأسلاك الشائكة، أرضية التدريب حول الكوخ فى قلب الفناء، الوجود العدائى للحارس مفروض عليه - أوه، نعم، مفروض عليه - أن يحبس نفسه فى الفناء ويقوم بجولاته الدائمة حتى يخلى سبيله. والمعرفة العميقة بالعزلة غير المنتهكة حرمتها التى تأتى من رؤيتك لنفسك تحت رحمة قوى مجهولة لا ترى وجهها.

أعتـرف، وأرحب بداية بعملية الانسحاب، تنشيط عادى للعزلة المفروضة بفعل غريزة العزلة الذاتية. فأنا أولا وقبل كل شىء، أجد أن جسدى يرفض كل الأشياء، عملية لم تحدث أثناء وجودى لمدة شهور أربعة فى لاجوس. فالعكس حدث تماما فى لاجوس، حيث تأقلم جسمى لمحيطه، واكتسب إيقاع السجن، تقبل واستوعب الضغوط، والأصوات، وتلمس الأشياء وتحسس الطعام. إنه يتفاعل ضد الأشياء التى تثير اشمئزازى عادة. : القذارة والرائحة الكريهة، الخيانة بين المساجين، وقسوة الحراس. لقد انزلقت أنا إلى حياة السجن كواحد يغطس فى مجرى ماء، عنصر غير طبيعى لكنه أحد العناصر التى يجب أن يتأقلم عليها. العكس حدث هنا. إننى أرفض كل شىء، ولا أدخل فى أى علاقة. فالجسم يرفض الأشياء واحداً وراء الآخر. حتى الرقاد، لا يشتمل على أى علاقة. وحين أمشى لا أشعر أننى ألمس الأرض. العملية تتسارع نحو الاكتمال الكلى. الحقيقة قتلت وتم دفنها مع ذكريات الماضى. الكلمات تلعب جزءا فيها، تقوم بتنويم العقل وتخدير الجسم، عندما فتحت آخر بوابة مثلا، ، وجدت أننى أعددت دورة من الكلمات دون هدف. فهى تعيد نفسها مراراً وتكراراً حتى يأخذ عقلى الواعى مذكرة بهذه التعويذة فى نهاية المطاف. اقتباس من كتاب نسيناه منذ زمن طويل. أو فقط لأن أصالة العقلية المبدعة مهما كلفها الأمر، تختلف عن هذه التيمة المألوفة: هل كل من يدخل هنا يفقد الأمل؟ لا بأس أن يمضى هكذا وفى لهجة رنين الأجراس: فى زمن الشر جئت إلى مكان الشر، هنا جاءت بى أياد شريرة ومن يعلم فقد أقع فى الشر داخل هذا المكان الشرير...

ثم تدور الدائرة مرة ثانية. الآن فبعد عدة أسابيع فقط، سوف أعترف أننى نقشتها على باكية آخر بوابة حين وضع بوليفيموس قبضة يده على القفل الضخم بين كفيه الخانقتين وانفتح الباب على جهنم.

كل الأصوات تدق الآن، ليس ضد جدران الفناء الشائكة ولكن ضد جدران الزنزانة. أما أنا فقد بدأت أنكمش داخلها. لقد ساعدنى فى هذه العملية، أمبروزو، الذى يعذبنى جدا. بعض الحراس يختارون لحراستهم غالبا محيط الفناء، يمشون فى تؤدة داخل الجدران يؤدون واجبهم بإلقاء النظرات على الزنزانة فى حال مرورهم أمام الكوخ. إلا أمبروزو. فهو يمشى مباشرة على المدخل المرصوف للكوخ. ، يستدير عند النهاية، ثم يمشى إلى الخلف مرة ثانية. شخص لقيط. من هو السجين، أنا أو أنت؟ شىء واحد لم أفعله، تجنبت عمله بمنتهى الدقة هو المشى بخطى وئيدة. كما أن حذاء لمبروزو ذا المساميرالكبيرة الرأس التى تدك الممر جيئة وذهابا – أرفض النظر إليه، أو أن أراه، أن أعترف به – خطوته عسكرية ثقيلة، رتابة خطواته الوئيدة وهى تضرب فى عقلى تجبرنى، وأنا فى وعيى الآن، أن أسرع خطواتى فى الانسحاب إلى الداخل. ليس هناك أى حماية أخرى. لكن ذلك يعنى أيضا أن خطوط الدفاع الخارجية قد تم التخلى عنها. حتى تلك الأصوات البعيدة لم تعد تدق الآن على جدران الفناء، ثم على جدران الزنازين كما كانت من قبل، ولكنها تدق مباشرة على جدران العقل، فتفقده اتجاه الرؤية ومنظورها. أقرر أن هذا الاختيار الأفضل. دع العالم الآن يركز على شخصى. أمبروزو بخطوته الوئيدة لا يزال،

الكبسولة لم تكتمل بعد، ولم يشح الهواء، المقاوم للعذاب بعد. يغمرنى هياج شديد وأعرف أننى أقترب من العنف أو الاستسلام. يمكننى أن أطلب بأسلوب رقيق أو آمره بغضب أن يتحرك بعيدا. هناك فرصة متساوية لنجاح كل من الأمرين بسبب شىء ما أصبح واضحا بالنسبة لى فى هذا المكان - فأنا لاأعرف ماهى المعلومات التى أعطوها عنى للحرس أو ماهى الآراء التى يتمسكون بها فيما يعرفونه عني، لكن هذه الحقيقة واضحة الآن: إنهم بدون استثناء يقفون فى خوف مؤكد مني. حتى إنهم لن يترددوا فى وضع نهاية لحياتى إذا تلقوا أمرا بذلك وأنا متأكد منه. هناك عامل مخبأ بعيدا فى قائمتى، لكى أستخدمه عند الطلب ومن الممكن تقويته.

بخصوص مشية لمبروزو قررت أخيراً - ألا أفعل شيئاً. بل أسيطر عليها، أبعد الأصوات، وأعتاد عليها. لا أطلب شيئا، لاأرفض شيئا بطريقة يمكن رؤيتها. لا تكشف شيئا، مما يؤثر فيك. لاتظهر السرور ولا الألم. لا الانفعال ولا الاشمئزاز. ابنِ كبسولة الوقاية الذاتية، بهدوء، دون أن تترك أثـرا لقبضة يد لكى يمسكوا بها. ارسم بالألوان ابتسامة لا تتغير على هذه الكبسولة ودع عقولهم الفاحصة تقارن بالفراغ.

لكن ما زال الماضى يعترض. وحيث إننى قتلت الماضى المهيض الجانب. - الحب، العلاقات، ذكريات التحقق الذاتى الأصيل. - إن الحوادث القريبة هى التى تكسر غلاف الكبسولة الواقى، ضاغطة على هبات الغضب التافهة والأبواب المفتوحة لإعادة تجريم الذات.

مثل هذا المزاج يعرى نقطة الضعف ويعرضها للتعذيب. لقد شرعت فى الاختيار الوحيد، لكن عامدا. بدأت فى إحياء سلسلة الأحداث بالكامل حتى زمن حدوثها وإن كانت من الناحية الكمية ليست مضبوطة بدقة. فى الواقع من الصعب أبدا. فالأفكار، والذكريات، تبرق خلال الذهن بازدراء كبير للصداع القاتل، التخطيط، والانتظار، والاستنتاج، والتوصيات. فى وقت النشاط. مرارًا وتكرارًا أضغط على الفرامل: لديكم الوقت كله فى العالم. أيها الحمقى. إن إعادة إحياء قليل من الشهور التى مضت يعنى طمس بعض الشهور القليلة فى مستقبل فارغ. إننى أعترف ببطء، أن هذا سوف يصبح هو نمط الحياة. اضبط هذا فقط يا كرونوس! اضبط الأنقاض أو الذكريات فى مياه بحيرة ليثى. قليلا فى كل مرة. اجعلها تطمس الواقع الحقيقى لهذا الزمن الحاضر. إن التورية تسلينى رغم أننى أنكمش من أرضية الأسمنت المسلح.

الماء هو الاستثناء الوحيد الذى لا يرفضه جسمى. سواء مطرا من السماء أو متجمدا أقف تحت أنبوبة بلا دوش وأضع نفسى تحت ضغط خرطوم المطافى. بعد التنظيف، أظل وحيدا فى فترة بعد الظهر وقوس قزح فوق رذاذ الماء. هناك موتور تيربو صلب يدق أرضية المسلح بضربات نفاثة – ثم إن أقدامى لا تنكمش من الأرضية. لكن بعد ذلك، أمشى مشية المريض البطىء نحو الكفن.

الفصل السابع عشر

خنزير همجى شرير!

ليس هناك سقف للغضب. لا شىء سوى غضب هائج مترهل. تعبت لا أستطيع أن أصدق... إن أمثالك من الحيوانات يمكن أن يكون موجوداً؟ هل تنتمى أنت لنفس النوعية التى تدعى أن لها أرواحا، وإحساسا وتفكيرا؟... انتهت اللعبة الثلاثية القذرة الآن، أصابعى تسد أذنى- جهد لاطائل منه فى أى الحالات؛ هذا السعال العميق القذر يحطم جميع الحواجز المانعة للصوت. لا شىء يقاوم هذا المجرى الكريه حين يهيىء نفسه لعملية النظافة. بمعدل ثمانى عشرة مرة فى كل نوبة. اسمه سهل – هوجروس. ببطء تستقر المعدة ويتوقف القىء. ثلاثة شهورمضت حتى الآن ولم أتعلم كيف أعيش معه. أعرف أننى لن أفعل.

أحيانا يعطى إنذاراً. فأسمع يده الجربانة تدب فى جردل إطفاء الحريق وبعد قليل، أسمع صوت الماء يتدفق وهو يتجول فى فمه المبطن بالكولا. هذا هو الوقت التى تطير فيه أصابعى لكى تسد أذنى.، وبطريقة لا تفشل، كأن كل الضفادع صارت واحدة وأن ذلك الضفدع المثير

للغثيان قد انحشر زوره. – ااااارغغ!– يتحشرج – ثم يضرب الحائط بكتلة البصاق.

هذا الرجل، هذا الشيء له أسرة. عنده زوجات، وعنده أطفال، وأكثر من بعض الأسر الأخرى عنده من يعولهم ويحترمونه، ويقولون له يا بابا.. بالتأكيد هناك أصدقاء يزورونه وهو يزور جيرانه. إنه يرتاد الأماكن العامة، يقف بين أى تجمع ويحملق مستغربا فى غموض، قد يقضى يوما فى إحدى المناسبات الاجتماعية، أو أمسية فى جانة عامة، فيضيف واحدا إلى الوجود الفارغ للآخرين فى مئات من الأفعال الشريرة. فهل يصدرعنك هذا الصوت الخنزيرى فى كل هذه المناسبات وبين أى نوعية من الرفاق؟ نعم أنت، أيها الخنزير، حنجرتك المخلوطة بالأسمنت المسلح، تتقيأ الملاط وخبث المعادن والروث اللزج.

على بعد أربع ياردات هناك كتلة من مادة غروية تضرب حافة البالوعة، نهاية باكية ملطخة تبدأ عند الفتحة وتنتهى عند المسند! عادت الحشرجة إلى حنجرته لينذر العالم بأنه سوف يقذف من فمه كتلة أخرى من بقايا ثمرة الكولا. يخطو، يجلس، يتكلم من خلال ثقب الباب إلى زميله الحارس على الجانب الآخر، حتى حين يتعثر فى جردل مقلوب على الحائط، ينفتح مصب كثير من الألوان على مصراعيه، بثرة أسنان مسوسة، عليها فطريات لونها أخضر مصفر، سقف فمه المطلى بالكولا يختفى فى فتحات سوداء داخل وعاء زنخ الرائحة، فى مكان ما فى وسط جولاته الميدانية هناك جديلة من عروق الكولا التى تبطن المطحنة

الدائرة فى حنجرته على هذا البلاء الفظيع، فى أعقاب ذلك تبدأ شبكة ثلاثية لالتقاط الكولا وقذف التراب الأحمر فى وجه العالم. إنه لا يستيقظ. فالشخيرالمصاحب لا ينقطع.

رقبته توأم رقبة النسر، توأمان متطابقان، جلد رخو ذابل وملطخ. قد تحتاج إلى قليل من الوقت لتضع حدا لهذا البلاء لكن - كيف يعيش الإنسان بعد ذلك مع هذه الذكرى ويشعربأن له صلة بذلك الآدمى، مهما كانت قصيرة؟ ليس لى أذرع زائدة لهذه المهمة. فطالما أنك متروك بلا اختيار، فيمكنك أن تحك جلدك حتى يتقشر. لديك وقت طويل لتنمية جلد جديد خلال حياة كاملة تقضيها فى السجن. فلو تم شنقك لن يغير ذلك شيئا . فإذا كتبت لك الحياة، حك يديك حتى تدمى، واجلس فى الشمس حتى تحترق كل الصلات. على ألا يتكررهذا من أى حارس لنزيل وحيد، أن يبتليه بهذا القرف فى وقت حراسته. مات هوجروس. وظهر وهج جديد فى الكون. أشعر أن السجن يقيم احتفالا. المشكلة هى كم فردا قتل كل واحد منهم. لأن هناك آخرين. كل منهم، بدون استثناء قد طور من طريقة تحرشه. إنها تتم عبر الصوت لأن السرداب عبارة عن غرفة تردد الصدى. عند ارتفاع الصوت وانخفاضه يأتون إلى المستودع، إلى مكبر الصوت المؤذى. من حمأة القنوط نسمع أنا والسرداب صرخات المعذبين، بكاء الذين يجلدون، نباح ذئاب فى سكون الليل، ديالوج بالتمتمة بين زوار من عالم الروح غير مرئيين لنا . وكذلك وقوقة الضباع المجنونة. وباستخدام هوائى على الطرق السريعة تمر الأصداء

إلى داخل النفق أو السـرداب وقـد تضـخـمت مـائة مـرة، ثم تطن فى حجرات العقل متضاعفة ألف مرة.

البذار عدو آخـر. لا، ليس الـبذار مـباشـرة بعـد هوجـروث. خذ كاليبان، قليل من الراحة.

كاليبان، أنا لم أره أبدا. فعلى مستوى الرؤية، سيبقى سرا. لكننى أعرف أن له ساقا ونصفا. أو ثلاثة. ساق واحدة بالتأكيد هى طول الأخرى (أو وزنها) مـرتين، ضرباتهما غير المتساوية على الأرض لاتخطئها الأذن عندما يدق أثناء جولاته الليلية فى فراغ رأسى. فهو يجر قدميه فى البداية ثم تـأتى طرقـات عنيـفـة بعـد ذلك. فى سكون الليل، مع إيقـاع طرقـاته الثقـيلة، الوقع يمر طيف من الرائحة الكريـهة ثم يعاود المرور. إنه بخار الخـميرة فى أقـصـى حـالات التـخمر، مـع مـرور طيف من البق النتن فى زيت رخيص الثمن كريه الرائحة - هل يملك حرية التصرف بحيث يخفى رائحة الكحول العفنة؟ كاليبان يتعاطى نوعا من الدواء لايعرفه الانسان ولا الحيـوان وامـتزاج زفراته مع الرائحة تمـلأ الزنزانة أثنـاء مروره فى جولاته القصيرة.

كاليـبـان يغنى. فى هـدأة الليل، على إيقـاع طرقـاته العنيفة ينفـجر كاليـبان فى حـديث بنفس لغـة خطواته الواسـعة - مـقاطع مـتبـادلة من ترنيـمـة حـزينة لإبطال زعم فـى داخل نفـسـه أولا، ثم فى تحـد طائش للسـماء. السـماء ترتاع بتـهديد أنفاسه القوية وتظل صـامـتة. من الركن البـعيد فى الفناء يأتى صـوت جديد يمزق الصـوت الأحـادى للقـصيـدة الروحية التى ينشدها كاليبان. إنها معركة رداء المطرالذى يغطى كتفيه

إذ اشتبك مع صفيحة الماء أو وقع فى مرمى شجيرة الليمون. تستمر المعركة وقتا طويلا، حيث الكفاح صامت فى البداية ثم تنتقل كلية بسبب الاهتزاز العنيف للشجيرة، أو وعاء صفيحة الرى، ويظل كاليبان يبحث لحذائه عن مكان أكثر ثباتا على الحصى الخادع. ثم تقحم اللعنات، تضغط مجبرة من أعماق روح كاليبان المعذبة. خطوته الطويلة المتقطعة الإيقاع، واحد اثنان تتسع الآن إلى خطوات انزلاقية وينقض الوحش الآن، ورغم سكره الشديد فهو محلل دقيق لتصرفاته، إذ يطوى رداء المطر ثم يتوقف لبضع دقائق، وفى النهاية يقتنع بأن الهجوم المفاجىء هو أفضل وسيلة، فيقفز إلى المناظرة بوابل من اللعنات الساحقة.

ينجرف النوم عائدا مع هجوم الليل، لكنه يرغم ثانية على التراجع. قصفة عنيفة ترد الهواء، قطعة من قماش القلوع ترفرف بعنف فى مهب الريح. إنه كاليبان مرة أخرى. لقد انفكت العباءة من فوق كتفيه وأخذ يهزها الآن ويفردها لكى يؤدى صلاة الخامسة صباحا. ترتيله منغم لكى يصل بأقصى قوة للإله على الجانب الآخر من الكون. إنه يحكى لمسبحته بنفس قوة الصوت، يشد قطعة القماش عند نهاية الصلاة. يركل الجردل برجله مرة أو مرتين، عمدا، أعتقد أنها ركلة الانتصار، ثم يستأنف تجواله حتى وقت راحته. كاليبان لاينام أبدا. ولا أنا أيضا عندما يقوم كاليبان بدورية الليل.

الفصل الثامن عشر

لقد تغلبت على وقع أقدام أمبروزو، ولكن يواجهنى الآن تهديد صوتى جديد؛ يثقب الكبسولة، ويهدد بتمزيقها إربا. كيف بقى هذا الصوت طيلة هذا الوقت دون أن نلاحظ، إما أنه إشادة بقوة الأمبروزيين فى التعذيب، أو بقدرتى سابقا على الاستبعاد. لأن التعذيب الصوتى ظاهرالآن، وهو شىء لم يحدث من قبل.

هذا الصوت يصدر عن المراقب الأكبر الذى يتبعه خمسة أو ستة من الموظفين، بمن فيهم بوليفيموس وعسكرى صغير السن يقوم بنوبة التفتيش الصباحية. يندفعون جميعا إلى مجال الرؤية، أما هو فقد وقف فى مواجهة الإطار المحاط بالحواجز، فحجب الضوء، فى حين أن الآخرين يقفون فى الخلفية خارج بؤرة الضوء. أنا أستيقظ فى موعد لا يتغير قبل الظهور الفعلى للشبح ببضع ثوان، أنطلق حيا على صوت احتكاك الأحذية الذى يستدعى الانتباه، والترباس يمرق من فتحته فى بوابة الفناء بصوت وحشى.

كل شىء هادىء حتى الآن. لا أرى، لاوجود لى - نعم أعتقد أننى قد أفنيت كيانى كما أفنيت البيئة المحيطة. إحساس غامض عائم وكل ما

بقى فراغ وقتل للوقت. لوحدث وأمكن أن يصير العقل خاليا تماما كورقة بيضاء، فهذا ما فعلته أنا حقيقة. وذلك بدافع الضرورة، بدافع معرفتى الغريزية بالوسائل اللازمة للبقاء. أما الطعام، فمجرد عمل روتينى.

أعترف أنه ليس له أى مذاق. لا أشعر بسرور ولا اشمئزاز. لا علاقة جسدية أو حسية، لا توافق مع جسدى ولا اعتراف من عقلى. لقد سجلت نظاما غذائيا عند نقطة محددة، أُدر إلى جسدى التعليمات – كل هذا، كله دائما. وأرفض هذا، فجسدك يمكنه الاستغناء عنه. فأنا آكل البرتقال، متغلبا على كراهيتى للبرتقال. إننى أكره الحامض اللادموى الذى ينبجس من القشرة، لقد سئمت طعم البرتقال ذاته، إنه ليس مثل اليوسفى، أوتاد شمسية نحيلة فى الفم. أوفاكهة العنب. لايشبه الكثير من الفواكه الأخرى ذات الصفة، ولا حتى مثل حبات المانجو اللزجة، ولعلنى لم أزعج نفسى بأكلها، ولكنها فاكهة لها مذاقها المميز الذى أعترف به. لكن البرتقال هو الفاكهة المعتادة، ولحمتها العادية تحتوى للأسف على قدر غير مضبوط من فيتامين س. ذلك ما أتذكره كثيراً، لذلك أقول كل برتقالك ! هذا ما أذكر نفسى به مراراً وتكراراً، فهنا ليس المكان الذى يجب أن تمرض فيه.

لكن العدوى تواصل تهديداتها لعقلى من كل جانب، والتنوع الصوتى هو أسوأها. وعلى هذا البلاء الجديد، صوت المسجل الثابت، استيقظت ذات صباح عاصف – صباح الخير كيف حال اليوم كوك كيف حال اليوم كوك... أحاول أن استيقظ، وأنا أعرف أن هذا

الريكوردر كان يعمل منذ أسابيع. وجه نحيل مخادع يطل من الجانب الآخر للحواجز، إنه المراقب الكبيريقوم بجولاته، إنه لا يفتش عن شيء، ولا يقوم بإصلاح أى شيء، قوى النفوذ بدون قضية، لكنه يستفزنى بقوة (يجعل أسنانى تصطك) - صباح الخير كيف اليوم صباح الخير كيف اليوم كوك صباح الخير كيف اليوم كوك.

مثل الأمس أيها اللقيط، ومثل اليوم الذى قبله. ومثل الغد والأيام الطويلة بعده يا أيها اللوح عديم الإحساس. لقد اعتدت النهوض من فراشى بمجرد أن يفتح الباب، باب زنزانتى ذلك ما أقصده، أضف إلى تمدد الزمن تلك الساعة الإضافية التى ماتت قبل ذلك، نتيجة لرقادى بلا حراك فى الفراش، بلا عمل، بلا إحساس، تاركا دخان النوم يتبعثر ببطء فى حينه، ينساق ثانية بعيداً ويؤخرالصدام بالجدران، والحراس، والطعام، والرياح وحتى ضوء الشمس. تقصير ساعات النهار. أنساق بهدوء إلى تلك التمرينات الخاصة بإنقاص الوزن، ففى جو الحرية، يمكننى أن أتدرب بطريقة آلية على الاسترخاء لبضع لحظات قليلة. لقد اعتدت على النهوض مبكرا، والمشى بعيدا عن توتر الانتظار لتحية طائشة يمكن التنبؤ بها. فى الهواء الطلق أحس أننى أقل قابلية للتأثر إلى حد ما.

خطأ تكتيكى. وأنا فى الفراش تنكتم الصرخة فى شرنقة الجسد المسترخى، اليمين الذى أقسمت عليه عند تراجعى مشمئزاً دون رد التحية فشعرت وقتها، كما لوكنت أتسلق جداراً. أى ضوضاء أحدثتها

فى البطاطين أسعدته كثيراً، بحيث إنه لم يتقبلها كإجابة مقنعةعلى استفساره. كانت تتغير كل يوم: من عبارة "النمو فى وقت الغروب" إلى "مثل حركة جدتك البطيئة". سواء كانت إجابة مكتومة فى البطانية أو المخدة فهى نفس الشىء بالنسبة له. كنت أحمق حين تخليت عن ميزة الرقاد. والآن يطل علينا بوجهه النحيل فى ثلاثة أبعاد فى الهواء الطلق، لم يعد كارتا مسطحا من الورق المقوى، أو مضغوطا على الحاجز، مع عودة التوتر عند رؤيته، وفى انتظار للتحية كان على أن أحارب إغراء صفعه على وجنتيه بكفتى يدى فى الحال. ذلك لأن لدى هذه القناعة المتنامية، أنه إذا تمكنت من القيام بهذا الهجوم، فسوف يتبطط وجهه ويتحول إلى قرص بين يدى. أود أن التقط القرص وأهشمه على الحائط، مسكتا هذه الخدعة السخيفة نهائيًا. إننى أهرب عائداً إلى ملجأ الفراش. ويستمر الاضطهاد. إنه إعصار هارماتان وليس فى استطاعة رجل عاقل أن يأخذ حماما قبل منتصف اليوم، لكن يبقى أمامى الآن هذا الدفاع فقط. فأجمع الإسفنجة والصابون وأهرب إلى منطقة التجمد المحظورة فى الحمام المكشوف. وعندما أسمع طرقات عكازه المتجبر على البوابة أفتح الحنفية. ارتعاشة تحطم جسدى وتيار من الماء المثلج يكسر جمجمتى. لكنه الأمان.

لنعد إذن لإصلاح الكبسولة. السلحفاة تسحب قرونها، مغلقة فتحة النهاية فى الغلاف بلعاب متجمد. خنزير يتدحرج فى نوبة شتوية من فقدان الذاكرة. قد أتجاهل سقوط الأوراق، وذرات الشمس وحتى بلورات البرد.

لكن ليس إسيكا. ليس هذا الإعصارالشمالى الناهش للجلد. ليس فى زنزانة لها حائط واحد عبارة عن باب، نصفه الأعلى مفتوح تماما باستثناء حاجز نصف بوصة. وهذا الإعصار يجعل منه لاشىء حتى نصف الحائط الأسفل. فقطع أخشابه بها ثقوب يصل عرضها بوصات تسمح بالاختراق الجشع لخبث الريح وغضبها الهائج. بالنسبة لعاصفة هارماتان فإن السرداب هو أعظم مصيدة تم بناؤها. فالريح تقذف بنفسها من حائط إلى حائط، تضرب فى الكوخ وتهزه، تعوى وتئز بالتناوب كآلة جهنمية توازن بين الانفجار والزئير فى الفضاء. أسمعها تتجمع فى الممر مباشرة خارج زنزانتى، تتوقف هناك ثم تعيد تجمعها، تبدأ هجوما جديدا فى اتجاهات متزامنة تمزق أوعية دمى، تجفف عظامى والنخاع حينئذ. وتصير الزنزانة عندئذ مركزا للعاصفة، تصب الريح فى كل شق وصدع، متصاعدة إلى درجة لا تحتمل من ضغط الثلج قبل أن ينطلق من خلال الحواجز المفتوحة، ومن نافذة السقف العلوية. تستمر دورة الريح أثناء الليل. يتميز النوم أثناء وقفاتها بحلم واحد فقط. إذ أرى نفسى وقد طلى جسدى بطبقة زجاجية من الجليد وأنا فى أحد العروض السحرية، حيث تطوعت وقدمت نفسى بطياشة لكى يتم تقطيعى إلى قطعتين بمنشار السحرة الذى فقد أعصابه، ثم فر هاربا واختفى. الصراخ أو الإيماءة بعين تتدحرج طلبا للمساعدة، فيندفع بعض المتفرجين إلى خشبة المسرح ويهاجمون النهر الجليدى بالمطارق. فأصحو من نومى على طرقات إسيكا فوق صدرى.

صباح الخير كيف حالك اليوم ياكوك، صباح الخير كيف حال الجو البارد! أحتاج إلى بطانية إضافية. ماذا؟ كم بطانية حصلت عليها؟ واحدة. ماذا؟ واحدة فقط؟ إلتفت إلىّ بوليفيموس. ياريس، سلمه بطانية إضافية من المخزن. المخزن؟ نعم، أظن أنه لدينا بعض البطانيات. سوف أسلمه اليوم.

إنها المرة الثانية. أفكر، إننى كسرت قانون البقاء الخاص بى. الأولى كانت حول ناموسية السرير. فقد أزعجنى حقيقة نهر الدم اليومى فوق ملاية السرير المتدفق من أسراب البعوض التى تهب على من أركان الزنزانة كلما حدث شيء يزعجها فى وضح النهار. تلك المئات من البعوض السمين الممتلىء بالدماء. فقررت أن أطلب ناموسية صالحة للاستعمال. كان جدالا بينى وبين نفسى سعدت بالفوز فيه. أستمع، هكذا مضت الأطروحة، فى البلوكات الأخرى هناك مئات النزلاء، وسوف يتقاسم البعوض معهم هذه الكمية من الدماء، كل نزيل سوف يحظى باهتمام أربع بعوضات على الأكثر. أنت على العكس منهم، تقف وحدك فى هذا الفناء ولك مائة بعوضة على الأقل. لذلك فإن تطلب ناموسية للسرير، فهذا ليس امتيازاً بل ضرورة. فإذا أنكروا عليك ذلك، فهذا هو الظلم بعينه. لكنهم لم يرفضوا. وحصلت على ناموسية لم تكن نظيفة فقط، بل بها ثلاثة ثقوب، قابلة كلها للإصلاح.

هذا الانتصار البسيط إضافة إلى سكاكين إعصار إسيكا جعلنى أشدد عزيمتى على طلب بطانية. مضى أسبوع ولم تصل البطانية.

لقد ذكرت بوليفيموس مرتين. لقد ظل وقتا طويلا فى سريره بسبب الإعصار. أو ربما لأسباب شريرة أخرى. فالمراقب الكبير (أوه) أثبت أنه غير ملتزم دينيا بنوبة التفتيش الصباحية، كما كنت أعتقد من قبل. لم أعد أراه. فمساعده يقوم بالواجب بينما يظهر متلفعا حتى العينين بالبالطو والتلفيعة. لعله يحنى رأسه للعاصفة، ويجرى خلال الفناء، أخرس دون أن ينطق! وفى النهاية يتخلى عن التظاهر. فهذا زمن السلم. لقد سكتت كل أجهزة الريكوردر. الحراس ملفوفون دائمًا فى تلفيعاتهم الكبيرة؛ لقد سمحت لهم التنظيمات الآن، بأن يلبسوا سويترات ثقيلة تحت أقمصتهم الكاكى. فتجد صدورهم دون استثناء مبطنة أيضا بصديريات من الصوف، معظمها من الإنتاج العسكرى للحرب العالمية الأولى. أغطية الآذان متوفرة. حتى الوثوق بهم ممن يحضرون لى الطعام وهم يرتدون الآن فانلات داخلية. وأثناء الدوريات الليلية يلفون أنفسهم بالملابس مثل سكان الإسكيمو، ويلبسون سراويل سميكة وتلفيعات إضافية من اللباد. إن بوليفيموس يستعمل أغرب رداء بينهم - بالطو عسكرى ثقيل يبدو مغطى بالمطاط. للمرة الثالثة فى ظرف أسبوعين أذكره بحاجتى إلى البطانية. وكانت آخر مرة أيضا. إذ قررت ألا أسأله ثانية. إسيكا لابد من مقابلتها بقمصان لها أكمام وبطانية واحدة.

ليس عندى مراهم. ولا أحذية. لدى شباشب فقط. جسدى بات كمركز معفر بتراب كرات الصقيع الجافة. لقد تحول الجلد إلى قشور

خشنة أو محرشفة. شفتاى وكفوف يدى، حتى بطن الأقدام قد تحولت إلى جلود قديمة. فأنا ألاحظ شقوقا ضخمة فى كعوب أقدامى وجوانب الأقدام. جسدى يستحق اهتماما جديدا وشديدا منى. شغلة جديدة فى الساعات الباقية. لم أهتم حتى الآن كثيرا بالوضع الفيسيولوجى لجسمى، ماعدا أحاسيسه. لقد أصبح منطقة تضاريس أرضية غريبة حيث يتقشر كل جزء فيه بمجرد حكه. هناك كاللو، على كل كعب من كعوب أقدامى سمكه بوصة. حيث أخذت التشققات تظهر. إننى أنتزع حلقات من اللحم الميت، أظافرى تتكسر فجاة أثناء هذا الجهد. الشفاه تؤلمنى وتنزف دما، بدأت شقوقها تزيد من حصاد النتف أو الشطرات الرقيقة. إننى أدعك يدى معا دعكا خفيفا وحالتهما الثابتة تمغنط شذرات من أوراق التواليت، الشعر يتقصف بجنون بمجرد مرور مشط فيه.

تعانى عيناى من البرد والتراب. لقد أصيبتا برشح دائم وأخشى أن تكون العين اليمنى قد أصابها ضرر. سوف أقتنع أنها بدأت تفقد الرؤية وأتساءل، هل سيصبح المونوكل مسليا إذا اضطررت إلى لبس نظارات؟ ليس هنا، رغم وجود فرصة كبيرة لذلك. طلبات زيارة الدكتور يستقبلونها بإيماءة بالرأس. تفسر بالقول، "تم تسجيل الطلب" وفيما بعد أخذوا يستبدلونها بضجر واضح. لقد جاءت الممرضة ذات مرة، رفعت يديها وهزت كتفيها.

اللعبة مع جسدى أصبحت تشعرنى بالملل والضيق. يعرف جسدى الآن بأن لمسة من وساخة القميص تثير اشمئزازى، لكننى لا أجرؤ على أن أطلب منهم غسله إلا إذا أشرقت الشمس ثانية. لدى اختيار واحد هو: إما أن استمر فى أخذ حمام بعد الظهرحتى فى مرحلة ضعفت فيها حرارة الشمس أو أن أغسل القميص وأبقى فى الفراش طول اليوم حتى يجف. أحس عقب الحمام بحاجة شديدة لأدفىء نفسى بكل الملابس. وأنا ليس لدى سوى قميص فقط، وصديرى به ثقوب فى حجم تلك الثقوب التى كانت فى الناموسية التى رفضتها. فأنا يمكننى أن أخاطر بغسل الناموسية، لكن القميص يمكن أن يخدع الريح؛ فإذا لم يجف فى فترة بعد الظهر فسوف أكون تحت رحمة ربة الثأر.

أشعر بأحاسيس غريبة فى جلدى. إذ وصل إلى مرحلة الجفاف التى تجعله يتشقق بطريقة مؤلمة. تحدث هذه العملية فى الفراغ الخفى من الظهر. وهذا يعنى أنه لا يجب أن أقوم بأى حركة مفاجئة. التمدد يجب أن يكون بطيئا، ويجب ألا أقعد فجأة ولا أنحنى مطلقا. يجب أن أتحرك حتى أسمح بتشقق بطىء. أتعلم الدرس ببطء، عن طريق وخزات تذكرنى من وقت إلى آخر. أصابعى صارت كنتوءات غريبة بارزة، متيبسة المفاصل، تحتاج إلى تليين وملاطفة، حتى تؤدى عملها العادى جدا. لقد انزلق الفنجان من بين أصابعى لأنه لم يتواءم بسرعة مع وزن الماء داخله. أتعلم كيف أتحسس قبضتى بثبات أكثربسبب وجود كاللو يعوق حركة يدى..

واتتنى فكرة نيرة. حتى الآن، لا أحب الزبد الصناعى. فقد كنت أعيد دائما نصيبى منها إلى المطبخ (متظاهرا غالبًا بأننى لم ألاحظ الحارس وهو يدسها فى جيبه ليزيد وجبة أسرته) إننى فى أمس الحاجة الآن إلى نوع من المراهم، قبل أن يتحول جسمى إلى جلد تمساح مدبوغ. لقد بدأت أجرب المارجرين (الزبد الصناعى) بدأت بدهن القشرة المعدية فى فراغ ظهرى، لويت جسمى لكى أشحمها تفاديا لانشقاق الجلد المفاجىء. ثم الشفاه ومفاصل الأصابع. لا شىء ينقذ الأقدام إلى أن ينتهى الإعصار وأن تستسلم كل القشور والصدفات إلى علاج المارجرين. عندما تصبح الأصابع، والشفاه، وفراغ الظهر لينة وإنسانية فى وقت واحد. أشك فى أن تكون، كجلد مسلوخ. فى مدة أسبوع ثان أحصل على جلد ناعم يثير الحسد، جلد ينتظر أن يقوم كشاف عبقرى باكتشافه - ثم - ويتعاقد على إعلانات عن أحدث كريم للتجميل! هذا الجلد... أيضا.. تفوح منه رائحة فظيعة.

الفصل التاسع عشر

جاءنى العسكرى الصغير ذات صباح، وتحت إبطه مجموعة من شرائح الأوراق غير المرتبة وهى سمات الروتين البيروقراطى.

"صباح الخير يا سيدى، لدينا بعض الاستمارات نريدك أن تملأها" ابتسامته تشى بمن يحمل أخباراً سارة. انتظرته حتى يشرح الأسباب التى جلبت هذه البهجة إلى نفسه البريئة. ناولنى ورقة واتسعت ابتسامته حتى برزت أسنانه أكثر". على الأقل لن تجد ما يدعوك إلى القلق على أسرتك. لاشىء يرعب أى رجل اكثر من انشغاله بمشاكل أسرته".

أمسكت الاستمارة بشك غريزى نابع من كيانى. إنها تطلب ببساطة أن أذكر اسم المنتفع بمرتبى ثم التوقيع عليها. وأما الجانب الآخر من الورقة مخصص لاسم وعنوان صاحب العمل.

"فكرة من هذه؟" أردت أن أعرف.

"إنه أمر حكومى. لقد وقع جوون على منشور يوزع على كل مصالح وهيئات الحكومة بأن مرتبات المعتقلين يجب أن تسلم كاملة لمن يعولونهم،

حتى المؤسسات الخاصة وشركات الأعمال. يجب أن تدفع مرتب كل معتقل".

"والذين يعملون لحساب أنفسهم".

"عفوا؟"

"الذين يعملون لحساب أنفسهم، من الذى يدفع مرتباتهم؟ من الذى يرعى عائلاتهم؟"

حملق لمدة طويلة حملقة بلهاء. وأخيرا قال "حسن نحن لا نعلم شيئا عن ذلك كل ما نعرفه هو أن المنشور قد تم إرساله للجميع وقد وصلتنا هذه الاستمارات لنملأها. لماذا تقلق بشأن هؤلاء الذين لا وظائف لهم. إن أسرتك هى الشىء الرئيسى؛ والإحسان يبدأ بأهل البيت"(*).

"فى لاجوس" شرحت لهم، "أننى فى زنزانة بأحد البلوكات معى كهربائى يعمل لحسابه، وبعض الفلاحين، وصغار التجار، والمحامين،

(*) فى سنة ١٩٧٠، استقلت من وظيفتى فى جامعة إبادان لأننى كنت محتاجا لتكريس وقتى للكتابة.. ولم أقدم أسبابا لذلك، تاركا الباب مفتوحا لفنتازيا المجتمع الأكاديمى. إحدى القصص المفضلة جرت هكذا: أن يعقوب جوون أرسل تعليمات للجامعة لكى تدفع لى كل مستحقاتى المالية عن المدة التى قضيتها فى الاعتقال، وعند استلامى لهذه التحويشة غير المتوقعة قررت أن أحصل على عقد من هوليود وأقضى بقية حياتى هناك فى ترف ورفاهية. ولقد علمت لأول مرة أيضا أنه بعد اعتقالى السابق، قررت إدارة الجامعة أننى فني لم أتول منصبى كمدير لمدرسة الدراما، ولهذا فليس على الجامعة أى التزامات مالية نحوى. حسنا إننى رفضت إحسان يعقوب جوون.

ثم زعيم عصابة، وبائع، لنذكر فقط هذا العدد القليل. هل سيتسلم هؤلاء والآلاف من أمثالهم فى كل السجون هذه الاستمارات".؟

"بالتأكيد، يجب أن نوزع هذه الاستمارات على كل نزيل. هذه توجيهات المركز الرئيسى" قلبت له الاستمارة وأشرت إلى الجزء المخصص لتدوين اسم صاحب العمل وعنوانه، " ماذا سيكتب هؤلاء الأشخاص فى هذا القسم؟ ألن ترسل هذه الاستمارة إلى الخانة الفارغة المخصصة للعنوان".؟

"نعم".

"لذلك أسأل ما الذى يكتبه هؤلاء فى هذا الجزء.؟ من يرعى عائلاتهم؟"

خلع العسكرى الكاب لكى يهرش رأسه. وأخيرا قال: "لا أعرف".

أعدت له الاستمارة. عدم مصداقيته كانت واضحة.

"ألن تملأها، يا مستر سوينكا؟"

"إن جوون ومستشاريه لايمكنهم أن يتمنوا إبعاد العدالة بهذه الرشوة الصبيانية الواضحة".

"لكن أسرتك يامستر سوينكا! أرجوك، أن تفكر فيهم. كيف يدبرون أمورهم بدون هذا..."

"لا تقلق لأنهم لن يجوعوا. إن لنا أصدقاء ونحن أسرة كبيرة وزوجتى لديها عمل".

"حتى لو كنت روكفلر، ياسيدى، فالمال هو المال".

"ليس دائمًا. أو على الأقل هناك شىء يسمى مال الدم البارد. أو خذ واسكت. هل سمعت عمرك هذه العبارة؟ خذ واسكت. إنها تعنى أنهم يدفعون لك حتى تسكت. أو يجعلونك تشعر بالرضا عما يقع عليك من اضطهاد".

"أنا لا أوافقك ياسيدى. هذا المال ليس مالهم. إنه مالك أنت. مرتبك الذى كنت سوف تكسبه لو لم يضعوك هنا، رغم أنك لست مجرما. فعلى قدر علمى أستطيع أن أرى الفرق بين المحكوم عليه وبين المعتقل. لوأنك كنت مداناً لفصلوك من وظيفتك. لكنك مازلت رئيس قسم بالجامعة. ومن أجل هذا، يجب أن يدفعوا لك. هذا ما تقوله الحكومة".

"أنت مخطىء. فحتى لو اتسع أفق النظام ليشمل كل واحد هنا، فما زال هناك الغش الأساسى. فما الذى يعطيهم الحق لكى يمارسوا الإحسان بالمال العام فى الوقت الذى يحتاج الوضع فيه إلى العدالة".

لقد تمسك غاضبا بالحرص على مصلحتى،

"سيدى، إذا لم توقع هذه الاستمارة الآن فإن أسرتك سوف تعانى بلا مبرر".

"أكدت له من جديد، وأنا أنهض واقفا بطريقة غريبة منفصلا عن ذات مغايرة ارتاحت تماما من الشكوك، مطلقا العنان لقوتى الجائعة بثقة مفاجئه غاضبة.

"كل يوم أقضيه فى هذا الثقب سوف يدفع أحدهم ثمنه. عملى، وحياتى المؤجلة، وحرمانى. يستحيل أن تقاس هذه الديون بلغة النقود".

الفصل العشرون

ضوء شمس ضعيف يتخلل هواء شفافًا، صمت فجائى ران على المكان حال عودة المراقب العام للدخول أخيرًا فى القبو (زنزانتى)، أثناء هبة إعصار هارماتان يسبقه حارس يحمل كرسيين. أما بوليفيموس فقد جاء فى المؤخرة، ثم راح يحوم فى الخلفية مع تقدم الحوار.

لقد طلبت هذا اللقاء. رأيت الحياة فى كادونا إما تأخذ نمطا، أو لن يكون لها نمط. إننى أعرف عمل العقل المكيف روتينيا، فإذااتفقت البداية العارضة مع الوقت، فإن التسهيلات، حياء العمل، الخمول أومؤامرات السجن وموظفيه. ثم هذه البداية سوف تصبح نظاما غير قابل للتغيير. أى تحسن ممكن يجب الحصول عليه مبكرا أوإبعاده من الذهن نهائيا. هكذا اعترضت تحيته ذات صباح.

"صباح الخير كيف حال اليوم" مع ملاحظة أن يومى سوف يغدو بلون الورد، لو تفضل فى وقت فراغه ومنحنى فرصة لمقابلته. فقط حين يتوفر لديك الوقت. هكذا أكدت، فإنى أحتاج إلى ساعة على الأقل.

بعد ثلاثة أسابيع تقريبًا وجد الوقت. تصورت بسذاجة أنهم سوف يأخذوننى إلى مكتبه. وبدلاً من ذلك اختار لى أن أقوم أنا بدور المضيف رغم أنه سوف يحضر الأثاث. جلسنا فى الخارج، فى جو شمس فاترة.

بدأت قائلاً "عندى عدد من الأسئلة والطلبات. لكن الأسئلة أولاً لأن الطلبات سوف تعتمد على الإجابات. أعرف أننى هنا منذ وقت طويل...."

ضج بالتوبيخ: "لا، لا، لاتقل ذلك. سوف ترى النهاية السريعة للحرب وبعدها...".

حتى لو أن الحرب توقفت اليوم فلن يطلق سراحى. أنت ترى، أننى أعرف لماذا تم تأطيرى، لذلك هيأت عقلى لإقامة طويلة. إننى مهتم فقط بالكيفية التى يمكن عن طريقها أن أستفيد لأقصى حد بالحياة فى ظل هذه الأوضاع. أريد أن أعرف التيسيرات التى يمكن للسجن أن يقدمها لى. الكتب مثلا. ماهو موقفكم بخصوص الكتب؟"

واصل كلامه قائلاً: "أنا لا أعرف لماذا تعتقد أنك سوف تبقى لوقت طويل هنا. إذا كنت بريئا تماماً..".

"لا، فى وقت الحروب، ليس هناك أحد برىء تماما. لكننى برىء من التهم المنسوبة لى. بداية أستطيع أن أخبرك أننى لم أصرح باعتراف أبدًا".

"قل لى كيف تورطت فى هذه المسألة؟"

"إننى لم أتورط فقط. لقد كنت دائمًا متورطًا. فى مايو من العام الماضى كنت هنا".

"نعم أعرف ذلك". وحين لاحظ دهشتى أوضح أن ذلك "كان بمحض الصدفة. إذ قابلت شخصا رآك فى ملهى ليلى فى اليوم السابق على أعمال الشغب التى حدثت". سألته أن كان شخصا أعرفه.

"لن تتذكره لأنه يعرفك عن طريق صورك المنشورة فى الصحف. لقد ذكر ذلك حين قرأنا خبر القبض عليك. أظن أنه قال إنه جاء إلى طاولتك وصافحك".

"هذا ممكن. لقد قابلت أناسا كثيرين فى هذه الرحلة. أنت تعرف، أننا كنا نعرف أن بعض الاضطرابات سوف تحدث...".

فجأة سألنى، "ما رأيك فى انقلاب ١٥ يناير".

تذكرت الدفاع النموذجى. منذ مذابح ١٩٦٦ بات المنهج الدفاعى ليس فقط من جانب أولئك، الذين بحكم كونهم شماليين، فإنهم كانوا أكثر المتورطين مباشرة فى ذنب الدماء، بل حتى الذين اشتركوا عن طريق الاستسلام أو التواطؤ. وبدورى أعطيته إجابتى النموذجية:

"هى مسألة أسىء تدبيرها. كان هناك المثاليون وكان الدافع الأساسى هو الحماس لثورة حقيقية. لكن المجموعة ضمت أيضا أولئك الذين لم تكن دوافعهم بريئة".

"هاها! بالضبط، أعنى أن كل إنسان يعرف أن نيزيوجو(*) كان فى غاية الإخلاص.

نزيوجو. هل تحول فى قبره بحيث أصبح نموذجا لسوء التصرف بموافقة أتوماتيكية نموذجية؟ لقد لاحظت وجود ألسنة تنزلق بسلاسة وهدوء من تحد مباشر للاختيار إلى غايات التزلف والمداهنة الذى استغلوا اسمه لخدمتها.

قلت. "نعم، العالم كله يعرف نزيوجو"(*).

"وأن قتل الناس كان عملا شريرا جدا. كان المقتولون من جانب واحد فقط".

"من المحزن أن يقع أى قتل، لكنها الثورة النادرة والمحظوظة التى تتمكن من تجنب الدم. على أى حال، البعض منا رأى العواقب المحتملة لما سميته أنت على نحو صحيح القتل من جانب واحد، ذلك مادعانى إلى الذهاب إلى الشمال. كنت قائد انقلاب يناير ١٩٦٦(*).

مشتركا فى حركة تحاول أن تقلل من العواقب السيئة إلى أدنى حد، إذا لم يكن تجنبها تمامًا. لكن تم القبض على فى أعمال الشغب. إنه شيء خطير أن نعترف، لأن الموت هو شيء فردى تمامًا. ولا يجب أن

(*) كان هذا الرجل وقتها موظفا بالسفارة وقد أصبح الآن سفيرًا فى عاصمة أوروبية أخرى.

نقيسه بالإحصائيات، لكننى شعرت ببعض الراحة، إن أعداد القتلى كانت أقل مما كنت أخشى. وبعد يونيه فكرنا أن ذلك بالتأكيد كان أكثر من اللازم".

انتظرت، داعيا إياه أن يعلق. لأنه كان يهز رأسه فقط بطريقة مبهمة سألته بدوره،

"ما رأيك فى مذابح سبتمبر؟"

كانت إجابته هروبا مفاجئا. قال، "لقد تم تحذيرهم. أنا بنفسى حذرت العديد منهم".

"السياسيون؟"

"لا، أصدقائى من قبيلة الإيبو. معظمهم يستحقون اللوم على ما حدث لهم من معاناة. لايستطيعون أن ينكروا أنهم تلقوا تحذيراً".

كانت أغرب إضافة إلى تركيبة تبرئة الذات. ومع ذلك فهو إنكارغير متعمد للنظرية "التلقائية" الخاصة بإبادة الأجناس..

تذكرت حادثاً ثانياً، الأول بالنسبة لى، كان قد وقع قبل هذه الحادثة. حدث الاكتشاف فى(*) عاصمة أوروبية حيث كنت أحضر برنامجا لمدة شهر، معظمه كان ثقافيا. وأن الدور الغريب المسند لى هو دور المرشح الثالث، مرشح الحكومة. إنوارا إزيكيو كان من الإيبو. عرف أن

حياته تستحق أن يحاول أن يركب الطائرة من إيكيجا. حتى أنا أعادونى إلى المطار فى جو التوتر، المـــلىء بمنـــاورات الحراس المنذرة بالشر، ولم أتمكن من المغادرة لمدة أسبوع.

أن أصمم على المخاطرة بتجديد ذكرى هــذه المقـابلة التى وقعت فى المطار كان واجبا، ليس بسبب الأهمية التى أضفيتها على السيمينار لكن بسبب حــاجتى الوقتـية الغامـرة إلى العــزلة بعــيدا عن التـــوتر داخل القطر.

شحنة زائدة من الانغماس طول السنة، انكويت فيها بفقد الأصدقاء والرفاق، سنة ملطخة بالإذلال الصريح لشعب كامل، بفعل طغمة عسكرية إرهابية متغطرسة، مغتصبة، وقاتلة، أسابيع (بعد ٢٦ يوليو) تشغيل رابط حساس فى "خط ميترو" لإنقاذ الجنود الشرقيين - الإيبو، إفيك، أوجوكا، الأنهار - وحتى بعض سكان الغرب (هؤلاء كانوا مختفين)؛ والذين كان أدناهم جدا بدرجة لا تبيح لزملائهم أن يطاردوهم بدون رحمة. (نصف دولاب ملابس زوجتى ضاع فى أقنعتهم) لقد عجزت عن إجابة ورفعت الألف التمـــاس التى وصلتنى من مدنيين لا حول لهم (غربيون، ومن الغرب الأوسط ومن الشرقيين) الذين لهم أقارب أو أصدقاء فى قبضة العسكر ذوى الأمزجة المتقلبة، وهم يشاهدون يوميا عملية إخصاء شعب كامل بواسطة عصابة من الخارجين الانتهازيين الأشرار والقوى الغامضة. كنت فى منتصف سبتمبر ١٩٦٦ فى تلك

الحالة التى وددت فيها أن أهاجم دبابة مسلحة برأسى فقط، من أجل ثمانية وأربعين ساعة أقضيها خارج القطر. استرجعت جواز السفر الخاص بى، مصراً فى هذه المرة على الطيران فى وضح النهار، حيث قضيت لحظات اليقظة فى مطار إيكيجا، متظاهراً بعدم الانتباه إلى قائد المطار الخاص بالأعمال المشينة الذى أتى ومعه بعض الرجال، وجلس على بعد ترابيزات قليلة فقط ينظر إلى بحذر كأننى لقمة سائغة ولكنها عسيرة الهضم.

كونى مرشحا حكوميا ربما خدعت ذلك الدبلوماسى فى مدينة ---- فظن أننى واحد من رجال الحكومة، المؤيدين لنظام جوون، أو ربما أضرب المثل الأعلى فى الإخلاص من بين زملائه الصغار. إنه واحد من أبناء اليوروبا ممتلىء الجسم، كان ثالث الجالسين على مائدة الغداء الذى دعانى إليه فى مطعم الدبلوماسيين الفخم، الذى يطل على أحد الأنهار، تذكرت حادثة الثلاثة أسابيع فى مدينة ---- وبقيت العبارات الواضحة لهذا الموظف التى قالهاعلى الغداء: "الإيبولم يستوعبوا الدرس بعد. الاستنزاف الكامل لم يتم بعد، فى الخامس عشرمن ينايرلكن لاتقلق. لقد جاء أحد رجالنا من وقت قريب، هو رسول دبلوماسى، وحتى قبل ذلك، كان هنا وزير سابق حيث قضى يوما، وتحدثنا معا وقتا طويلا. هى مجرد أيام ثم، صدقنى، لن يزعجنا الإيبو بعد ذلك".

سألته ما الذى يعنيه، محتقراً ابتسامة الموافقة على وجهى.

قـال، "انتظر وسـتـرى. ألـم تلاحظ كـيف أنهـم اسـتـمـروا فى خلق المشـاكل فى مـؤتمر الدسـتـور؟ أوجـوكـو هذا! يظنون أن لديهـم شكوى بسبب مايو ويونيه. لم يتعلموا الدرس بعد. هذه المرة سوف يجدون سبباً حقيقيا يشكون منه".

بعد ثلاثة أيام، جاءت الأخبـار الأولى عن مذبحة الإيبـو. لا يحتـاج الأمر إلى جهد لتذكر ذلك الغداء وذلك الحوار. إن هذه الذكرى مشتعلة دائمًا أبدًا فى عقلى.

الفصل الحادى والعشرون

لن أكون هذا الأحمق ثانية، لن! فمن كنت تظن أنت بنفسك؟ أخبرنى، أين كنت تظن أنك موجود؟ هل كنت تظن أن هؤلاء الناس كانوا...؟

جاءت الكتب على مدى ثلاثة أسابيع، ثم لا شيء! كنت مسروراً جدًا، المقابلة مع المشرف الكبير حققت أهم التنازلات، ورفعت الحظر عن الكتب، حتى ولو أنها أخذت أسبوعًا كاملاً قبل وصول أول كتاب، جاء من" مكتبة" السجن، وهو عبارة عن مجلد مهلهل ومشوه بالعنوان الوحيد الواضح المعنى "خطابات الملكة فيكتوريا"، وفى ساعة واحدة فقط فرغت من قراءة صفحاته الباقية، وفى تسعة أيام انتهيت من قراءة مجموعة الكتب الموجودة فى السجن، وهى أغرب مجموعة يتجمع على أوراقها المطوية التراب وبيض الصراصير. ليس امامى أى اختيار فى طلب الكتب. فى البداية انتقدت عدم تقديم قائمة بالكتب تمكننى من الاختيار - فمن الواضح أنهم لن يأخذونى إلى الكتب لكى أنتقى منها. وحين أخبرنى الجندى فى اليوم التاسع أننى قد قرأت آخر كتاب، فهمت.

فقد حدث بعد الانتهاء السريع من الملكة فيكتوريا أن أخذ هذا الجندى يحضر لى أربعة أو خمسة كتب فى كل مرة. لقد حافظت على صحبة ب. ج. وودهاوس، وأجاثا كريستى، ونباتات غرب أفريقيا وطهارة الأراضى الأخرى.

قلت لابد أن هناك مكتبة عامة فى هذه المدينة. فلماذا لايحصل لى أحد الضباط على الكتب؟ لقد وعدونى. وأعطوا التعليمات لموظف صغير. قلت لجندى، إن موضوعات الكتب ليست مهمة. المهم فقط هو أن ينتقى أضخم الكتب ويحضرها لى. كلما كان الكتاب أضخم كلما كان أفضل. لقد زارنى تشارلس ديكنز مرتين ناجحتين، ثم هذا الداعر بوزويل. لقد أعقبه أفحش مجلد، عبارة عن ضفدع ضخم متخم فى شخص مدير السجن الجاهل، إنه مجلد فظ جاء لينهى كل المجلدات.

لم أحتج بعد هذه الزيارة غير المتوقعة إلى كلمات، لأعرف بأن نظام التغذية والتمرينات سوف يتغير. توقفت الكتب فجأة، وجاء الحراس فى أحد الأيام ودقوا المسامير فى لوح من الإردواز لملء هذا الفراغ.

الفتحة المربعة في الباب هى نافذة نطل منها على الحياة. إنها تطل خفية إلى فناء التطهير، وبيت المجانين، والمحكوم عليهم بالسجن مدى الحياة، ومرتكبى أعمال العنف ومن انتهكت أعصابهم، والمكسحين، ومرضى السل، وضحايا السلطة السادية، وهم يختفون جميعا فى أمان بعيدا عن الاستجوابات. يدفع الحراس قبضتهم خلال الفتحة ويحركون

الترباس من كلا الجانبين. وأنا أمشى فى الفناء عادة، وعادة أختلس النظر سريعا إلى يد أو وجه أو إشارة، نادرا ماتبرق فى تلك المحرقة. أرقد فى فراشى حتى الصباح وأسمع ضجيج الطرقات. يتضاعف هجوم الطرقات فى فترة الصباح، ويتم تكبيره بقوة القبو الفريدة فى ترديد الأصداء. (عندما يرعد تصبح جمجمتى هى سندان الآلهة التى تتحمل الطرق). أخطو إلى الخارج للبحث وإذا بى أجد فرقة من الحراس على البوابة، يقطعون ويحيكون ويدقون المسامير، وفى وقت الظهيرة يتم سد الفتحة. السماء فقط هى المفتوحة الآن. سماء بحجم منديل يد محاطة بقضبان مسننة وزجاجات مكسورة. النسورتحط على سقف يرى من فناء ثان. والغربان. إجريتس تطير فوق القبو، والخفافيش تتجمهر عند غروب الشمس. الخفافيش، لونها أبهق، مريضة شاحبة، تبعث بصفيرمتقطع يتردد صداه فى الغرفة. لكن العالم مات فجأة. فالمطارق يظل وقعها الشديد مستمرا حتى بعد أن تتوقف. حتى السماء تتراجع إلى الموت. إننى مدفون حيا؟ لا، فقط هو شىء يقرأ الناس عنه. تمر الأيام، والأسابيع، والشهور. العوامات والمعالم تختفى ببطء، وينحل الواقع فى حزن والعقل يخونه اليقين.

أنا وحدى مع الأصوات. التى اكتسبت بعدا رابعا فى قبو معيشتى، واضحا، أشبه بحالة الرعد إذ يصعب على الجسد احتمالها – مسلم ومسيحى، وثنى وحتى من لا ينتمى إلى أى دين. صفير الخفافيش البهقاء يصيب ترنيمة المساء بالبثور. قبوى حوله إلى مرجل،

تكتل معكوس للولاءات يجمع له المصوتون، فيتحركون، ينخلون الخيوط وثوب الفطريات بسخامه على الجدران، فطر أخضر منسوج بأصابع المطر الماهرة.

مدفون أنا حيا؟ يجب أن أكافح الباب المسحورفى عقلى. يجب أن أتنفس، بعمق.

أيام لا تعد ولا تحصى وأنا جالس فى الفناء، أحملق فى لا شيء صوت تزييق الكرسى يجلب السجان "عرضا" يتمشى حولى، طرقات أقدامه الثقيلة جدا على الحصى بدرجة لا تقدر على امتصاصها لفائف القطن والصوف فى عقلى، إنها حادة جدا، عدائية جدا، خائفة جدا من الوقوع فى شرك بارع، عصبية جدا، تتوسل، معتذرة وغير واثقة بالنسبة لمن، يهبط بهدوء، فى منظر طبيعى داخلى للراحة. لكن الساعات تمر، والأيام، والأسابيع. عندما يغضب هارماتان أتحرك إلى الداخل وأغلق الباب. يجلس الحارس فى الخارج فى حالة عصبية. يذرع المكان بخطوته الواسعة جيئة وذهابا يلتف فى معطفه الثقيل، الذى يشوه تجويف عينه حتى تراها من فوق الإطار. أرقد ساكنا، أحملق فى فتحات الناموسية أنتظر تقديرا للحظة التى يمكن فيها أن أصل إلى أنتنا تجريبية خارج الشرنقة بدون وقوع طرقة قدم ثقيلة على المسبار.

الفصل الثانى والعشرون

من بين الأرواح التى تزورنى هنا، فإن أكثرها ترددا وأحبها إلىّ، هى أرواح الراحلين من الأقارب. جدى بصفة خاصة، وطيفى كريستوفر إوكيجبو، وأديكونلى فاجوى... بانجــو، ألالى أيضا يزورنى، لكن ليس فى صورة طيف.

يجلس جدى كقزم خرافى، يضحك فى سره ضحكا هادئا، تنبض كل خلجة من خلجات جسمه بالحب والقوة. أين كنت، أين أنت ذاهب، متى ستعود ثانية، ولماذا لا تستقر أبداً؟ إلخ. لاتخبرنى، لست أنا الذى يحتاج جوابا. لكنهم جميعا يأتون إلىّ ويسألوننى هذه الأسئلة السخيفة. أقول لهم، لاتسألونى. اسألوه عندما يجيء. كل ما أعرفه أنه مختف فى مكان ما فى صندوق الثرثرة، هذا لأن هذا هو المكان الذى أسمع اسمه فيه. أفتح الصندوق فيقول لى إنك تقوم بعمل فى أستراليا. لكنه كان هنا بالأمس فقط فأقول، فقط بالأمس! على أى حال إذا كنت تشكو مما تلاقى فأنا أيضا لن أشكو. أحضر قرعة النبيذ من هذا الدولاب. لقد فقد مذاقه لكنك لم تنبهنى كالعادة. وأنا أظن أنك لا تستطيع أن تجد كمية طازجة حتى المساء...

كم يلائمنى وصول هذه المعرفة الخاصة بموته عبر الأثير، كما لو كان انتقاما خرافيا، لأننى أترك له شيئا قليلا من نفسى وراء صوتى عبرالأثير. كنت هناك فى استوكهولم، أنتظر دون جدوى شينوأشيبى وآخرين فى وقت التوترفى شهر أبريل ١٩٦٧ محاولا للمرة الثانية بناء جبهة مشتركة من ركام ١٩٦٦. كانت البرقية التى حملت الأخبار تطاردنى كشبح مجرم من درجة إلى أخرى بين خيبة الأمل واليأس... إننى أتعجب، هل سيكون لى أبدا ذكريات خاصة حقيقية، غير مرتبطة، ولا مهترئة بتراكم ضغط وتوترهذا الماضى القريب.؟

يندفع كريستوفر بطريقته العاصفة إلى مكتب المعاون فى أنيجو. إننى أغوص فى كرسى ذى ذراعين، عميق خلف الباب، حيث وضعنى المعاون بعد الملخص الذى أعده جهاز الأمن فى فترة سابقة، لذلك فإن كريستوفر لم يرنى عندما دخل مكتب الضابط. بل سلم التعليمات التى أحضرها من الجبهة فى حماس وهو يلهث. الحرب بدأت منذ ثلاثة أسابيع، أخذ الضابط ملاحظات سريعة ثم قال، انظر خلفك. جحظت عينا كريستوفر، ثم انجرف فى الصياح والرقص الشروكى، التى أثارت دوامات من القلق بين جمهور كبير ممن يتمتعون بالوعى الذاتى الذين نعرفهم فى كل ركن من أركان المعمورة. لقد هدأ بعد دقائق، تاركا لى فرصة فيما هو قابل للتحول بقذف زيه الرسمى خلفه. وفيما هو يتجه إلى المقدمة:

"أنت تعـرف، أنني تعلمت اسـتعمــال البندقـية تمامًـا في الميـدان. لكنني لم أطلق عيـارا واحدا حتى في الهواء طول حياتي. أقسم، وأنت تعرف أنني لست رجلا عنيفـا، أنا لست مـثلك. لكن هذا الشيء سوف أبقى معه حتى النهاية".

كان كريستوفر يجلس بالساعات عبر الطاولة يناقش الشعر، في حين كنت أنا أنتظر محاكمتي داخل زنزانة السجن في نوفمبر ٦٥،...

فاجوى من بين هذه الأشباح كلها، يبدو بجسده أشد صلابة منهم. يخطويطريقة محيرة وهو يمضغ شفته السفلى، التي تخضع للحركات المفـاجئة.

"كيف فعلت ذلك؟"

أنظر إليه ببلاهة، متصنعا الجهل. إن بريق الشر في عينيه أوضح من أن يستعصى معناه على الفهم، لكنني أقول، "كيف فعلت هذا؟"

يرفع يده في يأس، ثم يزأر: "أوقـفت مـحطة الإذاعـة؟" أنت تعـرف جيدا ماذا فعلت. كيف فعلت ذلك؟ هناك جنود وشرطة يحرسون المكان. كيف تنسل في الدخول وتخرج مرة ثانية بعدأن أوقفت كل شيء".

قاطعته وذكرته بأنني حوكمت وثبتت براءتي.

"هوه هوه هوه هوه ذلك شيء جيـد. والآن ألا تعلم أنت مـاذا قـالت المحكمة. أريد أن أعرف كيف فعلتها؟

"أنت لا تؤمن بنزاهة تلك المحكمة".

أطلق موجة هائلة من الضحك، ثم تعقل فجأة، حسنا، إننى أؤمن بشجاعة تلك المحكمة، وشجاعة ذلك القاضى. ماذا عنك؟ كيف تجد محاكم العدالة فى الغرب عموما". (يقصد الجزء الغربى من نيجيريا).

"مخربة. لا أحد يثق فى المحاكم بعد الآن؟"

توقف فى الركن بجوار مكتب ضخم طراز الملكة فيكتوريا، وهو أثر من بقايا الذوق الثقيل للحكومات الاستعمارية السابقة. شد الغطاء المشطوف إلى أعلى وأخرج مسدسا. أخذ يلعب بالمسدس.

"تعرف أنت، أنه كان يجلس هنا حيث تجلس أنت، على ذلك الكرسى ذاته. لقد أرسلت فى طلبه. كنت متلهفا للقاء الرجل المسئول عن كل هذه الفوضى فى الغرب. عندما يفقد الناس الإيمان فى إمكانية الحصول على العدالة عن طريق المحاكم، فلا بد أن يأخذوا القانون فى أيديهم. لذلك، فإننى آخذ بالرأى القائل إن رئيس القضاة مسئول بصفة شخصية عن كل الأرواح التى أزهقت، وعن الدمار الذى حدث هنا. ففى اليوم الذى تعمد فيه تأجيل الالتماسات الخاصة بالانتخاب ثم عاد ليعلن أن القضايا قد تجاوزتها الأحداث، أصبح مسئولا عن الفوضى. القتل والحرق والاغتصاب، المصيبة كلها. يقولون إننا نحن الجنود ناس بسطاء.؛ هذا صحيح. هذه هى الطريقة التى ينظر بها عقلى البسيط إلى ذلك الأمر. على أى حال فقد أرسلت فى طلبه. عندما جاء عرفت أن تقديرى كان سليما. قلت له،

أخبرنى بالضبط ماذا حدث فى المحكمة فى ذلك اليوم. أريدك أن تقدم رؤيتك الخاصة. أنت تعرف أنه بدأ يرتجف. كان يرتجف كثيراً حتى ظننت أنه على وشك أن يقع من فوق الكرسى. سألته مابك؟ هل أنت خائف منى؟ انتظرت وانتظرت لكن الرجل لم يستطع الكلام".

حدث ذلك حين أخرجت مسدسى. أنت تعرف أننا نحن الجنود أناس بسطاء. لم أكن أنوى تخويفه مطلقا، الواقع أننى كنت أحاول تهدئته. أخذت المسدس وفتحت خزينة الطلقات وعرضتها أمامه. قلت له، انظر، هذه هى البندقية الوحيدة فى هذه الغرفة، ليس بها طلقات. لمجرد أننى عسكرى لا يعنى أن تخاف منى. نحن هنا وحدنا، أنت وأنا. فتحت الباب، والنوافذ. أكدت له أنه لايوجد أحد يختبىء فى الغرفة لقتله. تمام. هيا نتكلم. ملايين من الناس ذهبوا لانتخاب حكومتهم. أنت رئيس القضاة ويفترض فيك أن تكون فوق السياسة، لذلك فإننى أفترض أن كل ماتفعله لابد أن يكون متفقا مع تعليمك كقاض ويتمشى مع المثل العليا للعدالة. وكل ما أريده الآن هو ماذا حدث بالمحكمة فى ذلك اليوم، من وجهة نظرك الخاصة واحك لى القصة خطوة بخطوة.

"شعبنا شعب مضحك. أنت تعرف ماذا فعل؟ لا، سوف أخبرك أولاً بما كنت أتوقع منه. ظننت أنه سوف يقدم دفاعاً جيداً أو حتى سخيفا أو فإنه سوف يقدم استقالته فى التو واللحظة. هذا كل شىء. تماماً، هكذا فشل أحد الناس فى أداء واجباته. إنه أمر فاضح، ويجب أن يدفع

ثمنه. لكن ذلك ليس نهاية العالم. الاستقالة هى التصرف الشريف. لكن هل تعرف ما الذى فعله هذا الرجل؟ ركع على ركبتيه، هناك، فى هذا المكان بالضبط، رجل عجوز مثله، رئيس القضاة بكل ماله، ركع على ركبتيه، ثم بدأ يتوسل إلىّ. كنت غاضبا وطلبت منه أن ينهض ولكنه لم يفعل. وظل يردد القول، أرجوك ياسيدى. لذلك مشيت خارج المكتب. وحين شعرت أنه لابد قد عاد إلى هدوئه أرسلت الحارس وقلت له: أخبره أن ينصرف".

فترة طويلة ممتدة من التفكير الصامت". هذه هى المعضلة كلها. الناس لا يحبون أن يذهبوا. ربما أنظر ثانية ببساطة شديدة لذلك، لكن هذه هى الطريقة التى أرى بها الأمر. شعبنا لا يصارح نفسه بهذا عندما يتفاقم عقمه. السياسيون يريدون البقاء فى كراسيهم إلى الأبد ومن أجل ذلك يدفعون البلد إلى الفوضى. القاضى يعرف أنه سلك سلوكا فاسدا لكنه يتوسل من أجل البقاء فى منصبه. لقد ظل يدور حول الموضوع منذ أن أعطيته إجازة إجبارية. الوسطاء من جانبه يحاولون أن يلفوا حول أيرونسى. على أى حال ذلك هو القرار الوحيد الذى أصدرته لهذا الإقليم. لقد ذهب. وإذا لم يقدم استقالته سريعا فسوف أفصله.

ثم فجأة: "يجب أن تعود إلى هنا. فالإقليم فى حاجة شديدة لإعادة البناء".

قلت له: "جامعة لاجوس تصرفت معى بأسلوب جيد أثناء محاكمتى. إننى مدين لهم ببعض الخدمات على الأقل".

"لديهم الكثير من الناس. ويستطيعون تسيير أمورهم بدونك".

يضحك فجأة". أستطيع أن أصدر لك مرسوما. كما تعرف. فماذا تفعل إذا أعدتك هنا بقرار رسمى؟"

تظاهرت بأننى أفكر فى الأمر "حسنا، فى الحقيقة أنا لا أعرف. أنا لا أحس بالرضا عندما أتحرك بالأمر. ربما أختفى فى هدوء".

يجلجل بالضحك للمرة الثانية، "كالرجل الغامض الذى اقتحم محطة الإذاعة".

أجبته بجدية، "سيدى، هل أذكرك بأننى...".

"وأخذت براءة وتم إخلاء سبيلك. تمام. لكن يجب أن تفكر قليلا فى هذا الأمر، إن احتياجنا لك أكبر من حاجتهم. تذكر ذلك".

الحقيقة أن لدى حساسية من الوظيفة الحكومية. ورغم ذلك، فسوف أعمل من أجل خاطرك إذا احتجت لى، فقط ألا أوظف عن طريقك. أعنى إذا كان لديك مشروعات معينة تحتاج إلى مساعدة خارجية، مثل هذا النوع من الأعمال".

رنت تهديداته فى أذنى وهو يصحبنى إلى باب الخروج.! "سوف آخذك إلى ذلك أسرع مما تظن".

انتشرت الشائعات عن قرب المحاكمة العسكرية، وحتى عن عمليات إعدام سرية لقادة انقلاب، يونيه ٦٦. نحن نشكل مجموعات ضغط، نوقع على طلبات التماس لإطلاق سراحهم من السجن. إنه التماس مقلق.

فالحقائق التى بدأت تتكشف، وتفاصيل الإصابات التى يمكن استخلاصها منهم تمثل أخطارا جسيمة تهدد الشعور القومى. ورغم فشل المحاولة الأولى، وتهوين شأنها من جانب شخصية مؤسسية مثل أيرونسى فهناك الإدراك بأن موقفا ما، أو أى موقف يولد من تدمير الماضى يبقى دائما طيعا فى أيدى قلة من الأعضاء الملتزمين. فرفض أو إدانة الذين خلقوا هذا الموقف يتضمن انتصارا للقوى التى تم خلعها من السلطة. واتخاذ قرار بالمشاركة فى حركة، أو على الأقل فى تنظيم حركة لايمكن من أجل هذا أن ينتهى بمجرد التوقيع على التماس. أولا وقبل كل شىء فإن قرار كل فرد يوقع على الالتماس لايمكن الوصول إليه إلا نتيجة لقبول مسبب لما يكمن فى هذا الموقف من قصور ونواقص، بما فيه القبول بالأفعال المجرمة التى أدت إليه. يشتد غضبى من غباوة وسوء نوايا البعض، والتعرف على المحتالين، والمنحطين، والحزبيين وعمليات الاستغلال التافهة للموقف من جانب القلة. فأنا فى مواجهة مشهد غير بناء حيث الرفاق القدامى يسيئون فهم الموقف الجديد كلية، ويجردون أنفسهم من المنطق والأمانة وينغمسون بشراهة فى الاستغلال المادى والفكرى للموقف.

لكن سوف تأتى لحظة لابد لمن يلتزم أن يسأل نفسه: هل أقبل هذا العمل - وفى هذه الحالة أقبل ١٥ يناير بمثابة القاعدة للهدف النهائى أو أرفضه؟ إن رفضه يعنى مسارين للعمل؛ أولهما إدانة عاجلة وعلنية لمنفذى انقلاب ١٥ يناير، وثانيا المطالبة باستعادة الوضع الذى كان موجودا قبل ١٥ يناير.

الاختيار الآخر، هو القبول بقاعدة ١٥ يناير مطلبًا بديلاً لا يمكن الاستغناء عنه دون استياء، على الأقل بالنسبة لأولئك الذين كانوا يشاركون فى استراتيجية الانتفاضة الغربية. فتدخل الجيش لقى قبولاً مشكوراً لأنه تنبأ بتدخل الجيش الآخر، الذى نظمته مافيا الإقطاعيين والذى حدث بعد يومين. لقد قضيت الليالى القليلة قبل ١٥ يناير متنقلا بين أماكن متغيرة لأننى تلقيت إنذارا عن برنامج الأرض المحروقة للغرب. "أى بتصفية جميع" المثقفين المنشقين" وأعضاء اتحادات التجار بل وقلة من القضاة الذين عجزوا عن الالتزام بالخط السياسى. فقد أمضيت أمسية الانقلاب فى مكتبى بجامعة لاجوس، بالقرب من قارب "صيد" كان راسيا فى البحيرة خلف الجامعة. كل شىء كان مرتبا بفعل رفيق وهو عضو فى فرقة مكافحة التهريب فى مركز أوبلندى الرئيسى، وأحد المؤيدين الكثيرين للحركة.

– لم أكد أغسل وجهى يوم ١٥ يناير حتى اندفع إلى مكتبى صحفيان أجنبيان هما، والتر شوارتز من الجارديان ولويد جارسون من النيويورك تايمز، فى حماس يتحسسان إن كنت أعرف شيئا عن الانقلاب. بدلا من ذلك، بدأت أنا أسألهم. وجعلتهم يعيدون حكاية كل ما سمعاه من تفاصيل حتى قال لويد، "يدهشنى أنك لم تفاجأ مطلقاً".

"أنا لم أفاجأ بل ذهلت. طالما هى حادثة من طرف الجيش. لكن التفاصيل التى أمدونى بها الآن فى غاية الغرابة. فهذه ليست الصورة التى توقعت أن يتم بها تدخل الجيش، والتى كانت تلح على أن أوافق

على مقابلة أكنتولا، الذى عاد منذ قليل من لقائه الحاسم مع ساردونا قد قتل بإطلاق النار عليه. أو أن المخططات الشيطانية التى تمت بين الاثنين، باتفاق مباشر مع باليوا فد تم إجهاضها" بضربة استباقية".

لم أستطع فى النهاية، عندما هضمت طبيعة انقلاب ١٥ يناير، أن أنكر أن النشاط والحيوية قد دبت فى أوصالى. لقد تمنيت ومازلت أتمنى أن تحقق الثورة فى الغرب انتصارا باعتبارها انتفاضة شعبية. ولو تم إعطاؤها بضعة أسابيع قليلة فسوف يتحقق لها ذلك. لقد سقطت كل المدن ماعدا إبادان. فالحكومة، حسب تعريف الرجال المطرودين (من جماعة N N D P) لم تعد تدعى أنها كانت تقوم بعملها فى الغرب حيث كانت المجالس المحلية جميعا يتولى إدارتها رعاة العصيان المسلح. وقد بدأت الآن المرحلة التالية الخاصة بالقضاء على سلطة هذه الحكومة فى العاصمة، إبادان، ، وسوف تكتمل فى ظرف أسبوعين آخرين.

لقد قرأ أكنتولا وباليوا وجماعتهم (N P C) وفهموا ماتنذربه فهما صحيحا. كان لديهم أيضا تقارير البوليس وتقاريرمخابرات الجيش. ففى جزء من إبادان كانت القوات الموجودة سابقا تنتمى إلى خصوم الحكومة. لم يكن هناك اختيار سوى الاستسلام أو الخيانة العسكرية. اختار قادة (N N A) الثانية. والتقوا فى كادونا لإعداد الترتيبات. لقد فات وقت تسريع عملية محاصرة إبادان فى الوقت المناسب لإجهاض الإعلان الكلى للطوارىء وعمليات الإعدام الرهيبة لكل المعارضين للطغيان البغيض. وحتى لو كانت الخطط التى روجتها الشائعات عن اغتيال

أكنتولا أثناء عودته من كادونا بعد ظهر ١٤ ينايرقد نفذت، ماكان لها أن تحرف رد فعل المافيا الإقطاعية التى كانت تعد عدتها بسرعة الألة البخارية لسحق خصومها. لم يبق شيء يمكن عمله سوى الاستمرار فى المقاومة السرية بعد هذه الضربة التى لامفر منها الآن.

هل كانت حركة ١٥ يناير بكل سقطاتها، وخياناتها الذاتية، وعدم إتمامها، وانتهاكاتها مقبولة أو غير مقبولة كقاعدة لحركة نضال قومى؟ العنف أو الموت هى أشياء شخصية، ويبقى فى النهاية هذا القانون الذى به تسفح المسئولية أو يتم الاعتراف بها. مع العلم مقدما بماسوف تسفر عنه من نتائج، ومنحى فرصة اختيار الدور فى التقدم أو فى المشاركة فى مجرى الحدث الذى قام به هؤلاء الضباط الشبان فهل كان يمكننى أن أقبل هذا الدور؟ لا توجد توصيفات لإجابتى المؤكدة.

بعد زوال الكابوس الطويل تغير حظ الغرب إلى وضع أفضل. شاهدنا فاجوى على البعد، يقوم بفحص أعماله، وقراراته. وفى أول لقاء أخبرنى بكل ماكنت أود أن أعرفه. لكننى بقيت على معرفتى الوثيقة بنمط الفساد المتدرج للسلطة. التقينا مرة ثانية. لقد قررت أن آخذه إلى جانبنا فى الالتماس المقدم نيابة عن قادة الانقلاب شخصيا. قال فاجوى:

"يجب تصنيفهم، إذ يوجد بينهم بعض البيض الفاسد من الذين لهم حزازات يريدون تسويتها. إن رئيس هيئة الأركان الشاب جوون، قد تم تكليفه بإجراء تحقيق وسوف يرسل تقريراً ردا بذلك. وقد استجويت

بعضهم بنفسى. سأقول لك إنه الشيطان والبحر الأزرق العميق. أنا لا أحسد أحدا منا؛ رغم كل شىء فنحن جميعا فى الهم سواء، لو أخذنا القرار الخاطىء... وحالما يقدم جـوون تقريره، سوف نعمل شيئا، وليكن الله فى عوننا إذا أخطأنا".

فى الحديث عن القرارات ماذا يحدث لأولو وكو؟"

"نحن جميعا موافقون أن نطلق سراحهم، لكن حسان مصمم على الاعتراض، ليس لأنه ضد هذالكنه يقول يجب أن ننتظر وإلا فسوف يتهمون الحكومة بالعداء للشمال. فهو يقول إنهم قد إبتدأوا فعلا يرفعون الشكاوى بأن الانقلاب كان ضد الشمال على وجه التحديد. على أى حال، إنه يريد منا أن ننتظر اللحظة المناسبة".

سلمت برأيه، "الشمال مهم. لأنها حدثت هناك فى الغالب. لكن الشمال الجديد فقط، ليس القديم. لايجب إعطاء أى تنازلات للشمال القديم ولا بد من عمل سريع لجعل الشمال الجديد قوة ملموسة".

"كيف يمكننا أن نفعل ذلك؟"

"سوف أدعك تعرف ذلك لأنك تستطيع أن تساعد. فنحن نعلم أن كل المبادرات يجب أن تأتى من الغرب. لسنا متهمين بذنب من قتلوا فى أحداث ١٥ يونيه لذلك فنحن نملك إحدى المزايا. هناك مجموعة لنا تخطط للقيام بجولة فى الشمال فورا- أتعشم أن أجد وقتا للذهاب بنفسى".

بعد أن راقبته عن قرب، وصلت إلى فكرة عاهدت نفسى أن أطرحها أمامه. "أرى أنك بصدد الوصول إلى اتفاق مع رولزرويس...".

قاطعنى وقال "آه، أعرف ما ترمى إلى قوله، وأعترف لك بأننى لا أحبها أيضا. لكن ليس لدى شىء أستطيع عمله فى هذا الوقت. لقد تأخرنا تقريبا ورجال الأمن هؤلاء قد خصصوا لى السيارة. لقد دفعونى إلى ذلك دفعا. لكننى أتفق معك تماماً. إنه من المخجل أننا نحن العسكريين يجب أن نقلد مظاهر السياسيين العاطلين. ما هورأيك فى نوع السيارة التى يجب أن أركبها؟".

قلت "سيارة جيب".

تراجع إلى الخلف فزعا "سيارة جيب مفتوحة؟"

"مقفولة أو مفتوحة، جيب".

هز رأسه. لا، هذا يبعدنا كثيراً عن الصواب. بداية فإن رجال الأمن لن يقبلوا. وأنت تعرف، أننى مضطر للقيام بجولات كثيرة. لتغطية آلاف الأميال".

"تمام، بالنسبة للجولات هناك شىء يريح أكثر".

"مثل...؟"

وقبل أن أتكلم مضى هو يكمل "ما هو الخطأ فى ركوب سيارة مرسيدس بنز؟ إنها منتشرة بدرجة كافية فى هذا القطر. كل محام يستطيع أن يقتنى سيارة منها".

تظاهرت بالتفكير فى الأمر، مما جعله يضيف سريعا "سأخبرك بما يمكننى عمله، سوف أنتقى واحدة من الجراج – هناك أسطول كامل من السيارات – وأطلب أن تدهن بلون السيارات العسكرية. بهذه الطريقة لن تبدو فارهة جدا وهو ما يزعجك".

ضحكت "حسنا!، لقد كسبت أنت الرهان".

"أما فيما يخص بقية السيارات فسوف أعرضها للبيع. الكاديلاك، الرولزرويس، بل كل الغواصات. تستطيع الحكومة أن تنتفع بمواردها".

مايو ٦٦، تلقيت رسالة منه تدعونى للقاء عاجل معه. كان ذلك بعد صدور المرسوم ٣٤، مرسوم التوحيد. لقد هاجمنى بمجرد دخولى المكتب: "أيها المثقفون كلكم سواء. لماذا ذهبت فى هذه الجولة إلى الشمال"؟ "اعتذرت لنفسى". لم أكن قادراً على الاستمرار. لقد أصبح القسم يعانى نقصا فى هيئة التدريس. لكننى حافظت على علاقتى ببعض الزملاء من الشمال. ونحن نخطط لإقامة مؤتمر بمناسبة انتهاء الفصل الدراسى".

"طلبت منك أن تأتى إلى الغرب". كان يجب على أن أحضرك بمرسوم. متى تستطيع ترك موقعك؟

"أترك الجامعة؟"

"لا، متى يمكنك أن تقوم بالجولة. تعال إلى المكتب لترى تقارير المخابرات الآتية من الشمال. أتظن حقيقة أن الأمور يمكن أن تنتظر حتى تسمح الجامعة بالإجازة الدراسية؟".

عندما اطلعت عليها قلت: "إنه ليس فقط مرسوم التوحيد، هذا مجرد اعتذار".

"أعرف. هذا هو السبب الذى يغنينى عن وجهة نظر الشرطة".

كان كل شيء على مايرام خلال فصل المحاضرات. لكننى أكدت له أننى سوف أترك الجامعة خلال الأيام الثلاثة التالية.

لقد واجهنا أعمال الشغب عند بيركين لادى التى تبعد حوالى ثلاثين ميلا من مدينة جوس. وعلى طول الطريق نحو الشمال، كنت فى صحبة صديقى فرنسيس مدير إحدى شركات السينما. وكان الموضوع المفضل هو مرسوم التوحيد الذى ألغى الأقاليم شبه المحكومة ذاتيا واختزلها فى مجموعة مقاطعات. كان قرارًا ثوريًا جسورًا. لكن هناك طرقا عديدة أخرى لمحاربة الفساد والبيروقراطية المتفشية، للقضاء على القبلية، وإثارة إحساس وحيد بالقومية.

مرسوم التوحيد هو بداية واحدة فقط من بين إمكانيات كثيرة، وقد نال استحسان الجميع باستثناء الاحتكارات الإقطاعية فى الشمال والموظفين ذوى المراتب الرفيعة ممن يكرهون اختفاء الوظائف المدنية

الكبرى ذات الرواتب العالية. الهتاف لهذه الحركة العنيفة أغرق أصوات المنشقين؛ بعضهم يحملون مخاوف حقيقية من دوافع قد تكون غير مثالية، كهيمنة الإيبو. على أساس هذا الاشمئزاز الرجعى. كانت مافيا الشمال فى حالة عمل يعاونهم بعض الحلفاء من الجنوب. تحرك الكثير منهم محملا بالمال الكثيرمن أجل هذا العمل القذر الذى وضعوه نصب أعينهم. نحن لا نسعى وراء حدودهم القابلة للبيع بل نحن نسعى وراء جيل مختلف مفترض من ذوى الاستنارة. لم أكن أدرى أن التمييز بين الاثنين قد صار أكثر تشويشاً.

مواجهة غريبة فى مساء الهولوكوست، ثم تلك الفنتازيا فى التوتر التاريخى الذى أكد بالصدفة الدلائل الأولى لزوال الوهم عندما جاء. فى فندق حمدلله عرض للموضة كان هو الحدث الرئيسى للزوجة الحديثة فى الشمال بمساندة طبيعية من المركز البريطانى. المصممة البريئة لهذه الحفلة هى شادية، التى كلفها المجلس البريطانى بتقديم محاضرات مصورة عن أدوات التجميل والماكياج والموضة والوظائف الأولية للمرأة، وذلك لزوجات الطبقة الوسطى من الصفوة الجديدة فى كادونا. وبعد ذلك ذهبنا مع شادية إلى ملهى ليلى، تصحبنا صحفية جاءت إلى كادونا لتكتب تقريراً عن هذا الحدث لصفحة المرأة فى الديلى تايمز.

اتصلت بزميلى الشمالى تليفونيا من الفندق. وافق على اللحاق بنا فى الملهى. وصل فى حالة توتر مكبوت. وظل وقتا طويلا لايقول شيئا أكثر من المشاركة بغموض فى الحديث العام. فى التليفون أحسست

ببداية نذر الشك ولكنى طردتها من ذهنى. الصوت الذى أجابنى لا يمكن أن يكون علامة ترحيب، لكن هذه كانت زيارة ألحت على طويلا من جانبه هو ونظائره الشماليون. فى النادى انتظرت أن يأخذ دوره ويخبرنى عن الموقف فى كادونا فيما يختص بفشل أو نجاح بعثته التعليمية. وعلى اقتراح منى بأن ننفصل عن المجموعة أجابنى بأن لديه موعدا وسوف يعود فى وقت لاحق. وأخيرا تركنا فجأة، وهوفى حالة قلق كما كان جالسا على الطاولة، على وعد بأنه سوف يعود فى ظرف ساعة. لم يتطلع إلى وجهى ولو مرة واحدة أثناء اللقاء. ومنذ ذلك الحين لم أره.

عدت إلى الفندق. أجريت محاولة خالية من الأسماء للوصول إلى الأسماء الأخرى. عندما كنت أستجدى توصيلة من فرنسيس وكنت مرتبطا بجدول مواعيده لم أجد شيئا أفعله سوى ترك ملاحظات قلت فيها متى سأمر بكادونا مرة ثانية. لقد عدنا بأسرع مما نخطط.

نفحة من العنف كانت ظاهرة فى الجو بين جوس وبيركين. امتدت فى بيركين لادى لدرجة نشم منها رائحة الدم المتوقع. فقد تجمع الناس فى مجموعات، وهم يدورون ويدورون حول أنفسهم مثل كثبان الرمال اللولبية نحو دوامة العنف. لم يبذل أى جهد لإخفاء السيوف والسكاكين، الأقواس والسهام المسننة النصل. لم يبذل أى جهد لإخفاء كوة الموت فى العيون التى قامت بمسحنا كغرباء. النشرات، سيكلو ستيليد، توزع علنا. التقطت إحداها؛ كانت مكتوبة بلغة الهوسا لذلك ركنتها جانبا لترجمتها فيما بعد.

كان لفرنسيس عم يعمل جيولوجيا فى مناجم القصدير. لديه بندقية ورخصة. ذهبنا بالسيارة إلى شلالات كورا بل وقمنا ببعض أعمال الصيد. لم ندر أننا قد اندفعنا إلى الأمام بعيدا عن صيد مهلك فى القرية التى غادرناها توا. عدنا بعد الظهر إلى قرية هادئة هدوءا لا يوجد مثله على الأرض وأحسسنا بالعيون خلف الشيش والأبواب. فى بيت الجيولوجى علمنا أن أعمال الشغب قد وقعت وسقط فيها بعض الضحايا. تذكرت المنشورات السيكلوستيليد وسألت الرجل وهو متحدث فصيح فى لغة الهوسا، أن يترجم لى المنشور. كان دعوة صريحة تحرض بحماس على الجهاد ضد "اليمنرين". كانت تدعو المدرسين إلى إغلاق المدارس والآباء إلى حجز أبنائهم داخل البيوت وكل أبناء البلد الحقيقيين أن يمكثوا داخل بيوتهم حتى" نفرض إرادتنا على الجنوبيين الكفرة".

قلت لفرنسيس "لابد أن أنصرف فورا بالقطار. أنا لا أعرف ماهو موقفى مع الأمن فى لاجوس ولكننى لا أستطيع البقاء حيث يكون الشغب. فقد يفكر رجال أيرونسى أننى جئت هنا لإثارتها".

قرر فرنسيس أيضا أن يلغى بقية جولته فى العمل واتجه للتعقل.

أسرعنا هربا من موجة الرعب الثانية. كتائب القتل بدأت تعيد تجميع نفسها. وفى آذاننا تتردد صيحة الهجوم – أرابا! (الانفصال)

عند أطراف كادونا وجدنا "بوكا" أى كشكا للأطعمة حيث توقفنا فى رحلتنا الخارجية بحثا عن الطعام. كان الجو هادئا بدرجة كبيرة، فالشغب لا يبدو أنه قد امتد إلى كادونا. طلب منا أحد الأشخاص أن

نمسك أنفاسنا ونقف هناك ثانية من أجل وجبة خفيفة. وفيما كان فرنسيس ينطلق على الطريق نحو الأرض الخشنة هاجمنى انطباعان متزامنان: باب ... بمسمار قلاووظ واحد فى المفصلة السفلية. حائط الكشك الداخلى متفحم؛ شخصيات صامتة، وساكنة تراقب المكان من حولنا. حتى حين صحت فى فرنسيس لكى يسرع قبض على يدى وأشار: هناك ساق آدمية ملتصقة بين الشجيرات.

المسافة الصامتة إلى كادونا ذاتها، أخذناها بأقصى سرعة، تذكرت أن الكشك يديره شخصان من الإيبو.

كان من حسن حظنا أن ندخل إلى كادونا. فبعد دقائق حل الظلام وأغلقت أبواب المدينة. ولايمكن بعد ذلك لأى سيارة أن تدخل أو تخرج منها. قبل ذلك كانت الشوارع مهجورة، والمتاجر على جانبى الطريق مقفرة من الناس. لقد أغلقت المدينة، لكن الغريب أن حظر التجوال لم يفرض أثناء الليل. ويمكن لأى انسان أن يتحرك بحرية داخل المدينة.

لم يتحرك أحد سوانا. ربما لأنه رغم توقعاتنا إلا أننا فشلنا فى القبض على الحدث، فشلنا فى معرفة السرعة التى تتدحرج بها الأمور نحو الاكتمال. وفجأة أصبح من المهم لى أن أعرف كل ما يجب معرفته عن هذه المقدمة التمهيدية – لأننى لم أخدع نفسى مرة واحدة بأن هذا هو الفعل المنتظر – وبدا لى أن رحلتى المتأخرة لن تكون فشلا كاملا لواستطعت أن أعرف شيئا عن النمط الذى سوف تأخذه الاضطرابات مستقبلا فى ضوء هذه العلامات الحالية. قلت لفرنسيس سوف آخذ

السيارة وأتجول بها فى المدينة، ونتيجة لشعورالآخرين بالملل والضيق من البقاء محبوسين فى الفندق قرروا جميعا أن يأتوا معى. بل حتى مصمم الأزياء رفض أن يبقى وحده. اتجهت بالسيارة إلى نادى فندق الأميرة، الذى يملكه رجل من اليوروبا يسمى أديجيمو. كان لى رفيق هناك يعمل بارمان، وهوعضو سابق فى اتحاد التجار. كان قد وقع ضحية الخيانة منذ إضراب لجنة مورجان. لم أخطط للقائه لما أصابه من يأس منذ فشل هذه الحركة القومية الواسعة. والآن لايبدو أن هناك أحدا آخر.

لم يعد ثمة شىء اسمه فندق الأمير. الجدران مازالت قائمة لكن لاشىء آخر. فمثيرو الشغب غادروا المكان قبل وصولنا بساعة واحدة؛ جارسون وحيد برز من خلف كومة من الكراسى والترابيزات المهشمة. سألته أين يمكن أن أجد صديقى لكنه لم يعرف. والمدير؟ بدأ يتهرب من الإجابة المحددة لكننا أكدنا له من جديد أننا أصدقاء أديجيمو من إبادان؛ فإذا لم نره كيف يمكننا أن نطمئن أهله فى البيت؟

تتبعنا تعليماته التى تبدو متسقة حتى وصلنا إلى بيت أديجيمو فى قلب كادونا. انفتح جزء فى الباب حين طرقته. أطلت علينا عيون لانراها تحدق من كوات غير مرئية فى البيوت المجاورة. حين وقفت على الرصيف أحسست أننى عرضة للخطر، فنزهة المساء أصبحت تمرينا لا يغتفر فى حالة التهور والغباء. مر وقت طويل دون أن يعترف مدير الفندق بالطرقات على الباب. أخيرا سمعنا صوتا، صوت راح صاحبه يتأكد بدقة من هويتى قبل أن ينفتح جزء من باب بعيد، أطلت علينا رأس حذرة

حدقت فى الآخرين الجالسين فى السيارة أولا. ثم بدأت عملية فحص طويلة لنا قبل أن تمتد الأيدى الأخرى لفتح الباب ويقودنا المدير إلى الداخل.

أقنعت نفسى بالاستماع فقط إلى قصة تخريب النادى، الهجوم على المومسات وحماتهم غيرالشماليين قبل ترك هذا البحث. كنت متلهفا على استعادة الأمن للفندق. فى رحلة العودة كانت سيارتنا هى المركبة الوحيدة فى شوارع كادونا. فى طريق العودة وصلنا إلى مركز البوليس، الموضوع تحت حماية مشددة. وقفت مرة أخرى وتحدثت مع الضابط النويتجى.

عندما تحركت ثانية خطر لى أن أسأل شادية إذا كانت قدهرعت إلى زميلى خلال فترة الاضطرابات فقالت "لا" ثم أضافت، أعتقد أنه كان فى وسطها. كان يحمل سيفا طويلاتحت ثوبه، فى تلك الليلة بالنادى. لقد سقطت أكمامه ورأيته قبل أن يخفيه بعيداً".

لقد تحول من رفيق مناضل إلى مرتد. فلم يعد يخامرنى شك فى أننا شاهدنا المقدمة التمهيدية لحالة فوضى مرعبة على نطاق واسع.

فى إبادان راح فاجوى يحدق فى المنشورات التى أحضرتها معى وفى النهاية سألنى، "ماهى الخطوة التالية؟"

الحالة حتى الآن غيرميئوس منها تمامًا. قلت إننى سوف أقوم بجولة فى الشرق بأسرع ما يمكن.

تنهد وقال. "أتمنى لو أستطيع التحدث مع أيرونسى. لسوء الحظ فإنه لم يعد يثق بى. هل تعلم كيف يخاطبنى فى هذه الأيام منذ أن توليت منصب رئيس القضاة" مرحبا أيها الراديكالى". قد ينحنى للضغوط كما تعرف، لأنه يفضل ألا يعادى أحدا بالاسم. فلو أخبرته أنا بكل هذه التطورات فسوف يشك فوراً فى دوافعى. فالناس المحيطون به... "هز كتفيه قائلاً".هل تنوى المضى فى موضوع المؤتمر".

"لقد أصبح ذلك أمراً شائكًا. سوف أحدد لك تاريخا بعد جولتى فى الشرق". لم يستطع أن يريح نفسه من الندم المتسبب عن فقدانه لثقة أيرونسى، "كان من عادته أن يكلمنى كل مساء لكننى أخبرتك عن كل ذلك من قبل. ألا تعرف، أول شىء عرفته عن قراره فى تدوير الحكام كان على الراديو. هل نتخيل ذلك؟ أنا كلى ندم من أجل ذلك طبعا".

"أنا لا".

"لماذا لا؟" كل شىء تمام على أساس المبدأ".

طبعًا، المبدأ شىء رائع. لكن ليس بعد، لقد أخذ شوطًا طويلاً من سوء الحظ فى القيادة، والآن أنت معنا من أجل التغيير. من الذى سوف يأتى هنا؟ هذا الغندور الرسمى فى الشرق، أو لاعب الهوكى السكير فى الشمال. وانا لا أهتم كثيرا برجلك فى الجزء الأوسط من الغرب أيضا".

لكى أقول لك الحقيقة فإن ذلك لا يسعدنى كثيراً . أود لو ننتهى مما بدأناه، أعنى، أننا لم نكد نبدأ! مع ذلك، فإننى أذكر نفسى دائمًا بما أنتقده فى الآخرين – لا أحد يريد أن يترك مكانه أبداً. لقد بدأت أخشى ألا يعرف الجيش متى ينبغى عليه أن يرحل. لو شك الناس مرة واحدة فى ذلك...!"

إن زيارة الشرق، قد أعادت التفاؤل إلى قلبى، لكن عودتى مزقت ذلك. ففى الشرق يوجد انضباط، تبريد لحالة الغضب وأفكار الانتقام، هناك أيضا بداية لتأكيد الذات، ليست كثيرة ولكنها أكثرمن الكفاية لخلق المواجهة العلنية. وهو الشىء الوحيد الذى يؤدى إلى ميلاد جبهة قومية. لقد ابتدأ السخط بسبب الصفوة المتعالية فى إدارة أوجوكو. الأضرار التى نجمت عن أحداث الشمال دفعت الراديكاليين فى الشرق إلى الانطواء. وهى ظاهرة غريبة وغير منتظرة، وإمكانياتها غير محدودة.

وفى ليلة عودتى من الشرق وقع فى يدى ملف ملىء بالنذر. أنهى فترة الابتهاج القصيرة. لقد ركز التقرير على أنشطة المافيا التى تقوم بها بين الجنود، وعن مبالغ ضخمة يقتسمها بعض الجنود الموجودين فى الثكنات الشمالية والغربية. من زوجات الوزراء السابقين من جماعة (N N A) ودورهن الذى يقمن به فيما بين الجيش والسياسيين. يبدو أن فاجوى كان ينتظر مكالمتى. جلسنا فى اللوج بدار الولاية وأخذنا نقارن الملاحظات. لقد صدمت فجأة بالسكون والفرا غ. لعل شعورى بالفرا غ

فى داخلى قد أصاب حساسيتى الخارجية بالتبلد نحو البيئة المحيطة. هناك ساعتان على الأقل قبل موعد لإغلاق الليلى قبل أن أسأل.

"أين الناس كلهم هنا؟"

لوح بيده فى توتر. "لقد طردتهم. فى كل مرة أزيل فيها شيئًا من التفاهات الرسمية يطلع على شخص منهم بتفاهة جديدة. خصوصا رجال الأمن هؤلاء".

قلت، "أنت لا تستطيع أن تتجاهل هؤلاء كلية".

"إنهم مصدر قلق. منذ أسابيع قليلة نظرت حولى ووجدت كل هؤلاء الحراس". قلت لنفسى يا للهول، إذا أراد شخص أن يطلق علىّ النار فلن يفعل ذلك هنا. سوف ينتظر حتى أخرج إلى العراء". - ضحك ضحكة ساخرة -" فى واحدة من سياراتك الجيب المفتوحة".

حل الظلام. رأيته يدخل فى فترات صمت أكثر من المعتاد. تغريك أن تظن أن لديه إحساسا بالموت الوشيك. أرى رباطة جأشه ثانية، لحظات الخمول الفكرى الطويلة. شربت ولكنه لم يشرب. لقد توقف عن تعاطى الكحول بصفة مميزة لإرادته - فهو يشكو من كثرة المهام، كثرة حفلات الاستقبال الرسمية، وكان يشرب بشراهة. لكنه منع حفلات الاستقبال الرسمية نهائيا فى دار الولاية.

أعاد ذكر اعتقاده بأننى أتكلم مع أيرونسى". يعرف أنك لست حزبيا لذلك فهو يستمع لك.

"لا أعتقد أنه قادرعلى فهم شىء. بل إنه لا يحس بالأشياء. أى قائد، خصوصا أى قائد عسكرى يترك زوجته تذهب إلى الكوافيرمع سائق عربة وسرينتها تدوى...".

ضحكته مزقت سكون البيت الفارغ. "أيها الناس لا تعبثوا كثيراً".

"الحقيقة ليست هى المهمة. فالمهم هو ما تشير إليه هذه الأعراض المخيفة. الرجل يسرع نحو الانتحار لكن الطريقة التى اختارها سوف تهبط بالأمة معه إلى الحضيض.

"تكلم معه، على أى حال. يجب عليك أن تنبهه". ران عليه الحزن ثانية" إنه لا يثق بى كثيراً كما تعرف. وهذا شىء محزن. أوه – أنا لم أخبرك أبداً – فى أحد لقاءاتنا حاولت أن أقدم له بعض الأفكار، عن السيارات والبيوت وهكذا. والأرض، هل تعرف، الطريقة التى بدأ بها كبار الضباط من أجل الحصول على أراضى التاج. قلت يجب أن نسير حسب المثل، ضحك. كان ينبغى أن تكون هناك. لقد تخليت عن ذلك. بمجرد أن ينظر الناس إليك وأنهم يقولون، إنه يحاول.

.... "على أى حال" – لوح بذراعيه حول الفراغ وقال – "لقد حاولت أن أعيد النظام إلى بيتى".

"إنه مكان جيد مثل أى مكان آخر من أجل البداية...".

لقد نفض الإرهاصات غير المتوقعة لما بدا وكأنه تعليق غير إرادى، وأصابه هو فجأة للمرة الثانية. "هل تكلم أيرونسى؟"

هززت كتفى "سمعا وطاعة".

لقد تذكرت توا أنه فى هذه اللحظة موجود فى الشمال. لكنك تستطيع أن تتصل بمكتبه وتحدد موعداً "توقف فجأة" أوجنديب! لماذا لاتتصل به؟ إنه رئيس هيئة الأركان، إنه الرجل الثانى فعلا فى القيادة... نعم، وجدتها. سوف يفهم أكثر كثيرا، تكلم مع أوجنديب".

افترقنا على درجات سلم دار الولاية. فى حوالى السابعة مساء، ٢٦ يوليو. قدت السيارة إلى لاجوسِ فى اليوم التالى، واتصلت من مكتب فرنسيس بأوجنديب فى مركز القيادة العليا. طلبت منه موعدا، وشددت على الضرورة الملحة. وبعد مرور خمس عشرة دقيقة اضطررت إلى إعادة سماعة التليفون بسبب الوضع غير الواقعى المبهم. سألنى فرنسيس عن الأمر. حتى الكلمات بدت لا تكاد تصدق عندما تخرج من لسانى: "إنه يصمم على أن أكتب له مذكرة" بعد أقل من ست وثلاثين ساعة كان يبحث عن ملجأ فى مراكب الأسطول وكان فاجوى قد تم قتله.

الفصل الثالث والعشرون

كادونا

وفيكتور بانجو

لو أن تاريخ الثورات شهد ضياع ثورة، فلن يكون ذلك فى لحظة من اللحظات المشهورة بل سيستغرق بضعة أيام! ربما أربع وعشرين ساعة كاملة، أو بعد يومين أو ثلاثة. بل حتى بعد أربعة أيام سيظل هناك أمل لهذه الحركة. أما بعد اليوم الخامس تكون الفرصة قد بدأت تنزلق بعيداً. وفى نهاية أسبوع واحد تضيع الفرصة إلى الأبد.

ما الذى منعه؟ ما الذى حجزه فى بنين، بينما الفاسدون يرقدون فى لاجوس، لا حول لهم ولا قوة بعد أن تعرت عوراتهم، وهم ينتظرون فقط من يخترقهم؟ فى إمكانى أن أخمن الجواب، لكن ليس فى هذا أى عزاء. ففى انتظاره لأول بادرة تأييد فعالة، كان قد أكدها له أولئك الذين لا تتماثل دوافعهم فى مثاليتها، مع دوافعه تعنى أن بانجو قد نسى أن أمته هى أمة جلساء الحاجز، ذلك أنه فى وقت الأزمة، تبدأ السلطة المستقرة بميزة تؤدى بالجميع، باستثناء القلة المداهنة، إلى حالة شلل سيكولوجى.

لأنه كان قد أعلن أن قواته الغازية هى ضد انفصال الشرقيين. لقد تخيل بانجو أن هذه إجابة كافية لمواجهة أزمة المتخاذلين. وهكذا - خطب فى الراديو، وفى اجتماعات طويلة مع قادة أشرار فى الغرب الأوسط، ومحادثات تليفونية طويلة مع رفاق مفترضين من الجيش فى أجزاء أخرى من القطر. لقد أخذت القاعدة الثورية المفترض أنها "مدعومة" بوجوده المتواصل فى الغرب الأوسط فى التفتت.

لقد دفع حياته ثمنا، ومعه رجال مثل ألالى، وإيفيجونا، وأجبان... وحتى مع الاتفاق على أن الأمة ليست فقط ماهى فى لحظة معينة، ولكنها فى إمكاناتها الكلية، فإن الخطريبقى بالنسبة لهؤلاء جميعا الذين يتساءلون، كما أفعل كثيرا، إذا كانت الأمة التى يعرفونها ليست هى التى فى خيالهم. لأن إمكانية المستقبل المهدئة هذه هى سلاح ذو حدين، لكونها يمكن أن تكون خيرًا أو شرًا، إما للانتكاس أو للتقدم نحو تضامن رجعى أوتجديد راديكالى. يثبت التاريخ باستمرار أنه لا يوجد تأكيد لما سوف يكون عليه الاتجاه النهائى، حتى إذا تطابقت مجموعة الظروف والملابسات جزئيا لأن العامل البشرى هو أكثر العناصر المحددة، فإننى أحتاط لنفسى وأحاول استبدال الأمة بالناس، فمن الأفضل أن نؤمن بالناس أكثر من الأمة. ففى لحظات الشكوك الكبرى يصبح التعلق بواقع الشعوب هو الشىء الأساسى؛ لأن هذه الشعوب لا يمكن أن تتلاشى. أولوية هؤلاء ليست موضع تساؤل. - كونهم موجودين. بالنسبة للمفكر المستقل حقيقة فهذا سهل دائمًا - ومما يتصل بالموضوع

غالبًا – أن تتذكر التصنع، وغطرسة الفرسان، والدوافع الاستغلالية التى اتجهت إلى الاستغناء عن الشعب الأفريقى وتحويله إلى جنسيات. فالمرء يتغلب على الإحساس بالمهانة التى تصاحب ذكرى هذه النشأة، بتأسيس هويته الأساسية كتلك التى تذهب إلى حد خلق هوية شعب. لا يمكننى أن أرى هذا الجوهر على أنه جزء من هوية الحدود الخاصة بالدولة. الحكم يمكن تطبيقه فقط على الشعوب، أى الحكم الذى يعنى، فى معناه الأخلاقى الأساسى، أن يطبق فقط على الشعوب وهو: الولاء، التضحية، المثالية، بل حتى الأيديولوجيات باعتبارها فضائل تتغذى وتطبق لصالح الشعوب. وأى ممارسة لفناء الذات دفاعا عن حصانة تقسيمات حدودية مؤقتة تسمى أمما هى صورة لا عقلانية للمثالية. الشعوب ليست مؤقتة لأنه يمكن تحديدها عن طريق الأفكار غير المحدودة. أما الحدود فغير ممكن.

المركبات البديلة لسيارات الإسعاف "كيا – كيا"، مرت خلف نافذة الشقة فى إنيجو، حيث كنا جالسين نناقش موضوع الحرب، وهى تحمل الجرحى من جبهة نوساكا. بعد كم من الوقت سوف تحمل هذه المركبة جثمان كريستوفر أوكيجبو، الذى انفصلت عنه قبل ساعات قليلة، اتجه هو إلى أصوات البنادق، أما أنا – ففى أى اتجاه بالضبط؟ أما أنا فسرت فى اتجاه يدعو للحياة فى المستقبل متهما بتقديم تنازلات؟

سأل بانجو للمرة الخامسة "ماذا فى الرسالة الآتية من الغرب"؟ أعنى، ماذا يقولون؟ ما الذى يقولونه حقيقة عن هذه الحرب؟

"أنا أعرف فقط ما نشعر به جميعا بسبب الانفصال".

•

"عاد إلى الخلف: "نعم، ونحن جميعا متفقون على هذا. لماذا لم تستطع مواقفهم أن تتساوى إزاء المذبحة؟ لم يكن الإيبو يشكلون خطرا على أحد. إن جرائم القتل فى مايو ويونية أنهكت قدرتهم على إثارة أى متاعب. فماهى التفسيرات التى تمنعكم من الكلام فى وجه تلك الأيام الملعونة من سبتمبر وأكتوبر؟"

قال ألالى: "إن جوهر هذه المواجهة هو رفض أو تجاوز الدافع النفعى للمذابح الجماعية، أو الشوفينية القبلية".

المذابح الجماعية هى العلاج المختار لتثبيت الأصول المالية. ففى لاجوس بقدر ماكان الوزراء الفيدراليون، ورؤساء المؤسسات إلخ، بقدر ما كانوا معنيين، فإنهم لم يبدأوا أبدا. فملايين السياسيين الشماليين المحميين ظلوا فى أمان لم تمسهم يد الحكومة، على الرغم من الصيحات الصاخبة للصحف الجنوبية، والجيل الجديد من أهل الجنوب. الأمثلة كثيرة -، هناك أمير شمالى كان رئيساً لإحدى المؤسسات لديه ستة ملايين فى حسابه الخاص غير محسوبة. فجأة تأجل التحقيق. وباستثناء وقفه عن وظيفته، فليس هناك عواقب أخرى. ثم بدأت تصدر بيانات غريبة عن الحاكم العسكرى حسان، مثل طلبه التركيز على إصلاح الشروخ فى الوحدة الوطنية، أكثر من ضياع الوقت فى البحث عن الأخطاء السابقة. ظلت لاجوس محصنة بطريقة غريبة؛ المنتفعون بالجهاز المدنى المطرودون

الذين يستحسنون العمل الخاص يختالون عبر البلاد، آمنين وغير معرضين لأى خطر. الغرب فقط حافظ على التزامه القوى بالمبادىء الثورية، علنا وبدون مهادنة.

لكن أصوات المنشقين لن يتم إسكاتها. فاتحادات التجار، والمثقفون وكتاب الأعمدة أدانوا الخيانة، وطالبوا بأن تقوم الحكومة بتنفيذ أهداف حركة ١٥ يونيه، خصوصا أن تلك الأهداف قد أيدتها وتعهدت بها حكومة انقلاب يونيه. وفى نهاية المطاف فإن المنتفعين من المدنيين والسياسيين اعترفوا بالخطر الذى يهددهم هم أنفسهم. وكان لابد من التشويش، وكان يجب أن يحدث على هذا المستوى بحيث يعتم على أهداف المجتمع الأخرى تعتيما تاما. فالمافيا الشمالية اتفقت مع نظائرها فى لاجوس، وساهمت بالاستثمار اللازم للمحافظة على النفس. فقد تم التخطيط للمذبحة بدماء باردة، تم تخطيط كل مرحلة، ووزع المال على المراكز المختلفة لارتكاب الجرم لتشويش الإيبو، ضحايا مرتين، كان واضحا أنهم للمرة الثانية، هم ضحايا هذه المذبحة الجديدة التى تهدف إلى الربح. لكن لكى يكتمل الدرس، وحتى لاتبقى هناك فرصة لعودة خطرالتدخل القديم بين الأقاليم فى شأن هذه القاعدة لصالح كل المؤامرات الرجعية، فإن الجنوبيين من "صانعى المتاعب" بصرف النظر عن مناطقهم تم ضمهم فى الاكتساح العاصف. وكان الإيبو هم الضحايا غير المؤهلين.

أقول إنه "عندما انفصل الشرق، تركوا لنا المافيا والعسكر فى تحالف لا ينفصم عن الجريمة المربحة، وعلى أساس فلسفة الإبادة الجماعية الناجحة. لأنه لو أن الشرق ذهب حينذاك لن تكون هناك جريمة فى الكيان الجديد التى مازالت تعرف باسم نيجيريا. وسوف تكون الأمة مشغولة جدا بإصلاح الحواجزبحيث لاتشغل نفسها - حينذاك - بالمطالب الملة من أجل تطهير أخلاقى. وبالنسبة للأمل فى بناء أى شىء يقترب من دولة اشتراكية...".

انفجر ألالى ثانية، "هل توافقنى على أن هذه هى الفرصة الوحيدة لنيجيريا؟"

"لا يوجد بديل آخر. فالجيش يجب أن يعود إلى وضعه كجزء من البروليتاريا. فعقلية بطاركة السياسة قد دمرت فعلاً، لكنها بدأت حياة جديدة بتسللها خفية إلى داخل جيش ساذج يتحرك بدوافع غريزية خالصة. نحن فى حاجة إلى قوة ثالثة تفكر فى أسس ذات مقام مشترك بالنسبة للشعب. فإذا توقف الشرق، فاطلب وقف إطلاق النار واعط القوة الثالثة وقتا للانتشار فى كل المفاتيح الرئيسية... حسنا، الوقت مناسب. أنا لم آت كل هذه المسافة لأطلب من الشرق أن يستسلموا. لكن لا بد من وضع نهاية للانفصال".

هز بانجو رأسه. "أوجوكو لن يوافق أبداً. وإنصافاً له سأقول إن هناك شيئًا آخر يمكنه عمله. لقد شاهدت المظاهرات، فإذا لم يستسلم فسوف يسقطونه جسدياً".

"أخبرني هو بكل شيء عن هذا الموضوع. عن مشاهد عاطفية عنيفة رآها أمام دار الولاية. أنا مستعد لأن أوافق أن يده قد أجبرت؛ رغم ذلك، فأنا أظن أنه بارع بدرجة تكفيه لأن يجد مخرجًا، لو أراد هو ذلك حقا".

"بالطبع هذه هي المعضلة. إنه لا يريد طريقا للخروج من المأزق، وسوف أخبرك لماذا. لأنه مولود رجعي. إنه يعرف رأيي أنا فيه. لقد قلت له هذا في وجهه".

تذكير آخر بأعداد الذين ماتوا في الحرب التي وقعت على بعد عشرين ميلا منا، إذ جاء به ضابط شاب دخل الشقة، وناول قصاصة ورق لبانجو. قرأ بانجو الورقة وأعطاها لألالي ثم استدار نحوي.

"هل تعرف جوي أخاهان؟"

"نعم".

"لقد مات. حادث سقوط طيارة. إشارة اعتراض فيدرالية".

ظل الضابط الشاب موجودًا، قال، "كنت أنا الضابط المراسل له خلال حملة تيف".

أبدى بانجو ملاحظة "حسنا علينا ألا نقلق الآن من أي جانب سيكون هو فيه".

قال الضابط بصراحة، "لا أصدق أنها كانت حادثة عارضة".

هذا الحوار أشبه شيء بذلك الحوار الذى دار حول زيارتنا لإنيجو، يجب أن يظل جزءا من اللغز الأكبر وهو الحرب. حيث كان حضورنا فى تلك الشقة، وهى مركز عمل بانجو التى كان يستخدمها كمكتب. لأن أحدا منا لم يكن من الإيبو، فيكتور بانجو كان مثلى من اليوروبا. أما ألالى أجاوى فكان من الوسط الغربى. ، وهو ماركسى تدرب فى موسكو، وعمل مع نيكروما فى الحزب الشيوعى (C P P)، إلى أن أحس بحرج متزايد بسبب دعوته لتقليل عبادة الفرد، ونقده للانفصال المتزايد بين النخبة الحزبية وبين الجماهير، وقد اكتسب لنفسه قدرة سحرية فى عمليات الاعتقال الوقائى. كان ألالى، رشيقاً وقلقاً راح يذرع الحجرة فى خطوات واسعة مرنة، ينفجر من وقت لآخر لكى يسأل:

"كيف يمكن لنمط جوون هذا أن يفكروا فى بناء أمة على مذبحة إبادة ناجحة، أو أوجوكو على أساس رد الفعل العاطفى للمذبحة؟ ماذا يفعل هؤلاء المثقفون جميعا الذين نسمعهم كثيرا يرددون رطانتهم الاشتراكية الزائفة؟ لقد اعتدنا أن نضحك على هؤلاء المزيفين حين كنا مع نيكروما. لذلك فما الذى حدث عندما وقع شىء معاد للاشتراكية مما يهدد بتفجيرَ الوطن. لماذا لا نسمعهم الآن فى وقت الحاجة؟"

قلت، "أنت لاترغب فى الاستماع إليهم، إنهم يستمتعون بشجن الاختيار بين اثنين من الشرور".

قال بانجو، "إن الأمة لا تواجه فقط الاختيار بين اثنين من الشرور. أيا كان الطريق الذى تأخذه هذه الحرب، فالنتيجة هى فقط ترسيخ أسوأ ما فى الشرين.

فقد خاض السوفييت حربهم الأهلية وبنادقهم فى أيديهم والأيديولوجيا فى رؤوسهم. كان ذلك منذ نصف قرن مضى. لكننا نقذف بجنودنا الآن إلى الميدان بشعارواحد فقط هو: اقتل أبناء ياينمرين أو أبناء الهوسا. ولمصلحة من؟ إنه مطلب البرجوازيين الرأسماليين الذين بدأوا يحصدون أرباح الصناعات الحربية الناشئة. كيف يمكننا أن نتخلص من تحالف المغامرين الرأسماليين وبرجوازية العسكر بعد الحرب؟ ألا يعرف هؤلاء المثقفون تاريخهم؟ ألم يسمعوا أبدا عن أسبانيا؟"

"وكلما طال زمن الحرب. "بدأ بانجو يتكلم فقاطعته لأسأل إن كان يظن أن الإيبو سوف يقاتلون حتى آخر خندق. لقد طافت فوق أفكارى ملاحظة جورج أورويل:

"إذا كان من الصواب... أن تشجع الأسبان على الاستمرار فى القتال عندما يعجزون عن إحراز النصر، فهذا سؤال من الصعب الإجابة عليه. أنا نفسى أظن أنه الصواب، لأننى أعتقد حتى من وجهة نظرى أن يعيشوا لكى يقاتلوا ويواجهوا الهزيمة أفضل من الاستسلام بدون قتال".

بناءً على ما رأيته وسمعته، كان من غير المحتمل أن يستسلم الإيبو.

تنهد بانجو. "من يستطيع أن يخبرنا بما سوف يفعله الإيبو؟ الحكاية كلها جنون من البداية، لكن من سوف لا يجن بعد أن وقعت الكارثة! لقد أشار مراراً وتكراراً، كما فعل ألالى، إلى لب الفشل ذاته،

وهو الإحباط المزعج النابع من انحراف أخلاقى لا يصدق باتت الأمة بسببه مذنبة". لكن ما الذى حدث لكم أيها الناس فى الغرب؟ أوتيجباى وكل هؤلاء الناس الذين لا تختفى صورهم من الصحف. لم تصدر عن أى واحد منهم كلمة إدانة واحدة للحرب، ولا أى احتجاج على جوون، ولا حتى مظاهرة من الطلبة، ولا أى عمل من أعمال التضامن مع الضحايا. كيف توقع بقية أبناء القطر منهم ألا يغذوا المقاطعة؟"

"قلت، "ربما كانوا يريدون قطيعتهم. هناك أسس متبادلة على كلا الجانبين لأصحاب المصالح المكتسبة".

"المقاولون!" بصق ألالى الكلمة من فمه باشمئزاز شديد.

"سوف تجدهم فى مجال الأعمال والخدمة المدنية. الواقع أن الأخيرة أسوأ. على الأقل أنت تعرف رجل أعمالك. أما رجال الخدمة المدنية فهم أخطر. إذ يدعى كل واحد أنه لا يحمل سوى مصلحة الدولة فى أعماق قلبه". شق الهواء فى تقطيعات كاراتيه دقيقة، يسار، يمين، أمام". إنها ليست الأمة فقط هى التى تحتاج إلى تقطيع. إنها عقلية الشعب ككل. تحتاج أن تقطع إربا ثم تجمع مرة ثانية".

ما جمعه الله (الرجل الأبيض)، لن يسمح لأى رجل أسود أن يفرقه. إن تعقيدات سياسة الاستعمارالجديد فى التدخل، تفرض على الإنسان أن يتقبل مثل هذه التعاليم الملعونة الآن كضرورة براجماتية. ربما فيما بعد تستطيع الأمم السوداء الجلوس مع بعضها البعض، وبناء على اتفاق،

يضعون البوصلات والسطور المربعة على الورق ويعيدون تشكيل نفقات الحياة، مستخفين، بقيود هذه السلطة المقدسة المفروضة عليهم.

فما هو واضح، بطريقة بائسة، ومهينة أن حربا يتم خوضها بدون برنامج متزامن للإصلاح، وإعادة تحديد الهدف الاجتماعى. إنها حرب صمود؛ لأن الصمود كلمة أكثر دقة من كلمة الوحدة فى وصف حرب يمكن فقط أن تعزز القيم الأساسية التى أشعلت الحرب بالدرجة الأولى، لأن هـذه القـيم لم تختـبـر فى أى مكان أو أى زمـان. لم يظهـر أى برنامج تم تصـمـيمـه لضـمـان القـضـاء على المظالم التى أدت إلى الصراعات الأولية.

سوف تكون هناك انتصارات بالطبع، لكن المنتصرين لن يكونوا من ضحايا الجماهيرالشعبية، سواء فى بيافرا أوفى بقية الأمة. وبعد أن أتخـموا وشـبـعـوا، فـإن هـرم النخـبـة سـوف يندمج فـى آليـة الإغـراق الطبيعى، فى مجال سوف يمتص قطاعات أخرى من النخبة، خالقا كتلة مافيا متضامنة ذاتيا من العسكريين والسياسيين القدامى والمقاولين. بعد ذلك كله، فـإن إرادة الأمـة القـتـاليـة ليـست بلا حـدود. فـإرادة الحـرب وضـعـتهـا فى توتر عنيف، حـتى إنه لن يتبـقى منها سـوى القليل الذى يمكنهـا من تحدى قوة المنتفعين بالحرب، عندمـا يأخذون فـى دفع الأمة إلى الموت. وكمـا يشـاءون، وبعد أن انتـفخـوا بـريح النصـر، سـوف يظل المنتفعون بعفونة الموت حكاما مقررين. بحكم الأولوية فإن القوة القتـالية لأى شعب ترتبط بالعمل الحاسم للثورة الداخلية. فإن ترهقهـا أو تبددها

بغير احتياج، معناه أن تضع الشعب تحت رحمة الانتهازيين بعيدى النظر من أصحاب نظرية الاندفاع والفوضى.

المقاولون العسكريون والديكتاتورية المتعددة: هذا هو الميراث المحتوم لحرب تمت إدارتها على أساس الشروط الحالية. الفراغ في القاعدة الأخلاقية – لأن الحدود القومية ليست قاعدة أخلاقية أو أيديولوجية لأى صراع– هذا الفراغ سوف يتم ملؤه بأخلاق عسكرية – هى الإكراه القسرى. والتكوين النخبوى للجيش، العقوبة الاستعمارية العالقة التى بقيت بسبب العجز القومى عن إعادة التقييم سوف يستمر بذاته ويرقى بالتراث الطبقى للمجتمع. إن التشعبات فى تحالف الطغمة العسكرية الفاسدة والمافيا المغتصبة لا حدود لها فى المجتمع، وهى مسألة تكاد تستعصى على العلاج. الحرب تعنى تعزيز الجريمة، والقبول بسلك القيم التى خلقت الصراع. إنه فى حقيقته ولاء وتقديس لسلم القيم هذا، لأنه الآن صار مرتبطا ارتباطا حميميا بمعنى الهوية الوطنية.

كل شىء يتم تعريفه عندما يجلجل شعار الهوية الوطنية. كل شىء يتوحد فى الترحيب الهلامى بالوحدة القومية. التفكير (لا أستطيع أن أجد كلمة أخرى، لكن العملية كلها غير عقلانية) التفكير فى أن القيم التى كانت سائدة عند تحقيق النصر، هى القيم التى تخلق النصر. فى جو الضباب المشوه للغبطة القومية، فإن الانحراف الأخلاقى والعقم الأيديولوجى الذى أدى إلى الصراع لم يعد نراه هكذا، ولا نراهم كأشياء مستمرة فى هوية الأمة حيث إن هذه الهوية لم تتغير، ولم تجتز أى

تطهير ثورى سواء فى أحشائها أوفى رأسها. فأى حرب، بما يتخلف عنها من معاناة إنسانية طويلة، لابد، حين يصعب تجنب ذلك الشر، أن تؤدى إلى مزيد من التجزئة لا البناء: لا بد أن تمزق أسس التفكير والإبداع. بهذه الطريقة فقط يشارك كل فرد فى الكارثة ويفهم الهدف من التضحية.

أظن، بعد كل ذلك، أن هناك تعريفًا واحدًا مشتركًا لكلمتى شعب وأمة – وحدة من البشر مرتبطون معا بأيديولوجية مشتركة. لابد أن يكون الشعور بهذه الهوية أو بفقدانها هو الذى أحس به فى لحظات اليأس عندما تطوف بى هذه السطور من (أفلاطون).

"وهؤلاء الذين يكرهون الشر من أعماق قلوبهم.

سوف يطردون من وطنهم، عندما يتأتى للشر.

أن تعبده أمة من العبيد.

من الحكمة أن تنبذ هذا البلد وهذا أفضل كثيراً.

من أن تحمل نير رعاع أعمته الكراهية.

فى انتكاسة شعب يعود إلى مرحلة الطفولة.

أو فى لحظات أكثر بهجة عندما، "أتذكر سطور كاسترو بكل ثقة".

هذه الأرض أرضنا.

والهواء.

والسماء.

سوف ندافع دفاعا عن هذه الأرض، وذلك الهواء والسماء التى تشكل رؤيتنا إلى ماوراء الحدود التى رسمها سادة الماضى الاستعمارى أو أعيد رسمها بفعل هبة الغضب الغريزى للمنتهكين فنحن ننطلق، كل إلى مصير مختلف.

الفصل الرابع والعشرون

أخطر لحظات الضعف هى تلك اللحظات التى تسبق اليقظة، هى اللحظات التى تقع بين الصعود إلى قمة الوعى، وحالة التسلق الفعلى نحو الشاطىء. هكذا أفكر أنا فى الصباحات الخطيرة: ربما يكون هناك أنواع كثيرة من الوعى تحوم فوق سطح مشترك فى تلك الساعة، وعلى الشاطىء أكوام كثيرة من الملابس وعقول مخدرة تنجرف إلى الداخل وإلى الخارج، فلو قدر لإنسان فى مثل هذه الحالة أن يختار لباسا خطأ، أو انجرف حول نفسه إلى الأبد لأنه لم يجد شيئًا. فكل شىء يختفى بطريقة غامضة.

فى كل يوم أقضى وقتًا طويلاً بحثًا عن الملابس، قطع غريبة تحملق فى وجهى. قميص ملوث، بنطلون طويل، شبشب غريب. ثم إننى أقع فى أخطاء وأواجه نظرات غريبة، وأحيانا ضحكة ساخرة. كم من الوقت تستغرق؟ بريقا كما فى حلم؟ أو تدوم دهرا؟ كم من الوقت يأخذ البحث؟ كم من الوقت يطول اليوم؟ لمن هذه الوجوه التى لا أكاد أتعرف عليها فى العتمة؟ كيف يتأتى لاستعارة مجردة أن تأخذ مثل هذه الأصول؟

من غـيـر الممكن أن ترى نفس الحلم عند الفـجـر كل يوم. ربما أنجب التفكير حالة من الرعب، وراح العقل يقفز بدافع غريزى نحو الخوف المدفون فى وقت اقتراب اليقظة.

تعود أحلامى النهارية إلى تلك البحيرة، تعود مراراً وتكراراً بحثاً بين الوجوه الغريبة، التى تجر أقدامها فى خوف متزايد، خوف الرعب، خشية أن أصحو فأجد نفسى غريبا عن نفسى.

أنا أعرف السبب. أعرف أحداث الأيام السابقة التى أتهرب من تحديدها. من الواضح أنها مفزعة، لكن ماهو السبب المباشر؟ البوابة. دق المسامير فيها. إننى أشخص هذه التجربة غير المسبوقة: تجربة الخوف من الأماكن المغلقة.

نوبة زائدة من القمع عمياء ساحقة. اندفاع عنيف لرائحة سموم فى الرواسب المحبوسة داخل كبسولتى العازلة... فجأة فى جنح الليل أرغمت على اليقظة، كما لو كانت كبسولتى الذاتية مجرد فقاعة فى بركة الوعى. لكن الكبسولة صمدت وأبت الانفجار، قبضت بمخالبى على السطح الأملس وتوسلت كى يدخل فيها الهواء. كانت يقظة رطبة فى ليلة عاصفة. البرد يضاعف حدة العزلة داخل الفقاعة، يأتى الخوف من طعنات الضغط الباردة كالثلج. لماذا؟لماذا تنسد رئتاى فجأة؟ اضطراب وحشى ابتدأ فى نبضاتى، أسمعه يدق فوق رأسى بمطرقة وأصبحت قبضتا يدى المنطبقتان شيئاً حياً. طائراً مفزوعاً يضغط ليسد راحة يدى.

إنه النبض، نبض خالص. شعرت أن قلبى يوشك على الانفجار. الكبسولة تنفك. وقطيع من الفحول تلطم خدودى.

سألت إن كان يمكن احتمال هذا، جمجمتى توشك على الانفجار. البحيرة الساكنة انفجرت فجأة وأخرجت أنا منها نظيفًا، فقاعة من الزجاج فى قفص من البلاستيك، كبسولة مبهرجة، حشرة مشبوكة بدبوس، صعدت نظيفا بفعل الانفجار الذى قذفنى من جانب إلى جانب فى موجات تموجية ضخمة. امتدت يد طويلة من بين الموج فى انحراف شرير، وشدتها ثانية إلى قاع النهر، وانزلقتا من قمة إلى قمة حيث لا ضوء ولا اتجاه. البحيرة مغارة تحت الأرض مغلقة بإحكام من الطرفين، لا يوجد شىء يمكن لليد أن تقبض عليه. مجرد زئير فى آذان القبو، جنون فى قلب الأرض العارى – قنبلة من المياه تنفجر وتتناثر منها كرات قاتلة نحو مراكز النبض فتحدث دمارا.

لكنك تعرف ما هو الغرض منها! إحداث الفزع! أنت تعرف أنها من أجل هذا فقط! شىء بلا معنى!

سمعت صيحتى واستيقظت. قفزت وحدى من سطح البحيرة نحو الشاطىء واتجهت دون خطأ نحو ملابسى.

لكن الكبسولة تم امتصاصها ثانية. والآن فقد كافحت فى فراشى وجلست ساقا فوق ساق. هذا ما تريد أن تفعله كما أنذرتك: اقفز، امسك هذه القضبان وهزها كما يفعل قرد هائج. وأصرخ! لأن هناك هذا

الشئء، هذا الانقباض الحديدى أسفل القلب والتنفس صار عذابا. وأخذ الجسم ينكمش حجمه إلى سمك قرص لعبة الهوكى، ليقفز طائرًا كى يصطدم بالحائط ويمزقها مكتسحا أمامه، كل شىء بتلك القوة غير الإنسانية التى هبطت علىّ فشعرت بقوة تيتانيك الجبار. حاضرة هناك! قوة ملموسة. لو تركتها تحكم جسمى، حتى لكى يتحرك بخفة من ذلك القيد الرقيق لساقى المربعتين تحتى، فسوف تنطلق قوة التدمير الذاتى.

لماذا، لكن لماذا؟ ألست أنت سيد هذه البيئة؟ ألم أتوجك ملكًا للعزلة؟

اضبط. اضبط. خذ نفسا، أخرجه. لا تترك صوتا آخر يفلت منك. استند على الحاجزين المتوازيين للباب، درجة تعادلك تؤهلك لهذه العلوم الغريبة التى تشغلك الآن. أمامك قضيبان، معادلة واحدة. وازن السماء بالأرض والأرض بالسماء. اقبض عليهما بشدة لكن فى صمت. تلمس الحديد ودكه فى داخل روحك. واحفظه هناك.

لكن متى وصلت إلى الباب؟

الأرض. الأرض. اجلس على أرضية الزنزانة. بطانية. إذا لم تصل البرودة حد التجمد. توسد إذن. اجلس على الوسادة لتحمى مفاصل قدميك. لف البطانية حول جسمك ثم تنفس. أدرج أشياءك فى قائمة بادئا بفرشة الأسنان الموجودة على الرف. ما فائدتها؟ والصابون؟ عد القطع واحدة واحدة مستبعداً درجات التعادل لا، من خلال الأنف. تنفس فقط من خلال الأنف. كل ما تحتاجه من الهواء يمكن أن يأتيك من الأنف.

لا تلهث. أنت لم تكن تجرى، ليس لهذا متسع هنا. لا تترك الشياطين تدخل هنا. والآن أفرغ ذهنك. وضع المرساة.

فى هذه الليلة القارصة البرودة تغطينى بحيرات من العرق. وربما يكون من الأفضل أن أبقى فى الفراش، مستلقيا. هناك سطح أكبر يغطيه التراب. افرد ذراعيك على الأرض. أدخل كعبيك فى كتل من الحشو. أنا انتظر لحظة إهمال فى هذه الهجمة، لكى أحشد قوتى فى لحظات الصفاء. كيف تصفها؟ إنها تستقر فى نمط معين، بإيقاع مقبول من المد والجذر، بين سوء الحكم والوضوح. هجوم وحشى بقطعان من الذئاب، ثم لجوء فترة قصيرة تحت مظلة. أصابعى على منحدر صخرى آخذة فى التراخى والإعياء. قطرة فى فراغ طويل، سكون محير فى قلب الاستنشاق. استلقيت ذات مرة على وجه صخرة منتصبًا تمامًا، لا يحملنى غير القوة التى رفعتنى فوقها لأول مرة. متى؟ لا أعرف، لزقة يحميها توزيع للقوة خبيث لاحيلة لتركها طليقة، ولا ثغرة لدق خابورمن العقلانية فيها. بعد كل غسلة عميقة بالماء ينكمش الحجم ويتقلص البعد. ثم لقد تآكلت بفعل الغسيل حتى صارت فى سمك الورق الحساس. هل هذه هى صورة الأشعة الخاصة بى فوق الصخرة.

قصاصات.

لا يمكننا أن نمسك بها.

تعترض ومضات البصيرة.

خطوات نعبرها ثم نعود لنعبرها ثانية نحو عتبة الإدراك.

تثبت ذاكرتى على الأقل أنها واعية حافظة. تلك التسبيحة تؤدى الغرض. انطق الكلمات، اطلب حالات، إن لم تصمد الأفكار مرة أخرى.

مراراً وتكراراً تتدحرج الكلمات فى الفم. نتذوق نعمة النبيذ، ونكهة حبوب اللقاح، تراب الروح. الرحيل إلى ما وراء الحاضر، دع الكلمات تعد طريقها ثم ترحل عبرهذا الطريق وهى تنشر رائحة البخور حولها. ابسط خياشيمك بنهم. لكن بنهم! وابتلع ما يفوق حد الامتلاء.

هل هذا انتصار؟ لا بل، جزر ومد. لكن قد يكون واحد منهما هو القمر، ويحلق عاليا فوق الأخطار، رغم أنه قد تم قذفه واجتياحه فى أعماق مظلمة، تفصل ما بين الذات الأصلية وتوأمها المنعكس، وتجعل كل الوجوه الجارحة أشد تعاطفاً على المستوى الحسى. ظلى واقع فى مصيدة لكن جوهرى لا. أكرر. ظلى واقع فى مصيدة لكن ليس جوهرى. والآن أقذف تعويذة جديدة إذا تجدد الهجوم.

أيتها الأقمار الدهرية.

افتحى عينيك الحوراءتين.

فوق معابرى.

مشطى.

أعراف الريح البحرية على رمالى التى جرفها المد.

لقد شفى كبدى. وأنا أنتظر النسور حيث لا وجود للصقور هنا.

الفصل الخامس والعشرون

وصل أمبروزو للعمل، متأخراً. فإذا لم أوقفه بسرعة أو أجمده بطريقة معادية، فسوف يقدم لى شرحاً مطولاً عن أسباب تأخر دقيقة، أو عن عدم حضوره مطلقاً فى نوبته السابقة. وغرضه الحقيقى أن يرى إذا كان هناك أى متروكات يريد أن يحصل عليها قبل عامل النظافة.

صباح الخير! أنت لم ترنى - لقد ذهبت إلى المحكمة. فى المساء عدت متأخراً قليلاً. نحن نحظى ببعض التملق بسبب الوظيفة. حدث فى هذا الصباح. "صباح الخير صه. كلنا نحن السجانين أخذنا حقن التطعيم. هذا سبب تأخرى. الحمى الشوكية منتشرة فى المدينة، ومات كثير من الناس. كشفت قليلا من رد فعلى وأخذ هو فرصته" نعم، أظن أنهم يقولون إن الحمى الشوكية وهذا اسمها. إنهم يديرون رأس الرجل إلى الخلف. كل شخص داخل السجن يجب أن يأخذ جرعة الطعم اليوم. كل السجناء والمعتقلين. لذلك فعليك أن تجهز ذراعك وسوف تشعر بقليل من الألم.

كل شيء نرحب به فى السجن، حتى تهديد الحمى الشوكية ووخزات الحقن غير المحببة. هناك ساعات انتظار دخول الإبر، لحظات وقوع الحدث، ثم بقية اليوم عندما يتجسد ذلك الحدث فى فتح فجوات فى جو خانق لحياة لا هدف لها. أنا لا أحتاج إلى أمبروزو لكى يخبرنى متى جاءوا إلى فناء المجانين، فهناك الطرقات السلطوية المألوفة على الباب، مدخل الفرقة الطبية، إعلان الأوامر، الأنين الذى يعقب كل صيحة ألم. لقد اندفع أمبروزو وأعلن، "لقد أتوا!" ثم عاد إلى موقعه.

مرت ساعة. وسمعت البوابة تفتح والفريق يغادر المكان بنفس الطريقة التى أتى بها. لم يصدق أمبروزو ففتح بوابته قليلاً ليرى ماذا حدث، ثم أغلقها ثانية وعاد أدراجه. قال "أنا لا أعرف. أظن أنهم نسوا أن يلقوا عليك تحية الصباح أو ربما غدا يلقونها عليك".

نزلاء السجن، بمن فيهم أولئك الذين فى زنزانة الموت، قد حقنوا ضد الالتهاب السحائى.

حاولت أن أتذكر ما أعرفه بشأن هذا المرض. أساسًا هو مرض سريع العدوى، ولكن ليس عن طريق الاحتكاك المباشر بالمرضى، فالجراثيم تنتشر فى الجو عن طريق الهواء. أثناء سيرى بخطوات واسعة فى السرداب. وجدت نفسى ألقى نظرات لا إرادية تجاه الحائط، كأننى أفتش وأراوغ بذور هذا الخطر الأخير الراكبة بلطف فوق الأسلاك الشائكة، لتحقيق آمال أولئك النفر من الناس الذين أمروا بعدم إعطائى حقنة التطعيم.

لأننى أعـرف أن هذه لم تكن رؤية مـبـالـغ فـيـهـا. بل إنـهـا إمكانيـة "طبيعية" جداً نحو الحل النهائى.

(*) حوالى أغسطس ١٩٦٨، انتظرت الحكومـة أكثر من شـهرين قبل أن تنكر التقارير المستمرة التى تنشـرعن مـوتى، إعـلانات الوفـاة كـانت تكتب وتذاع، لكن، هناك صـمت من جـانب الحكومة. فهى تنتظر، كنوع من الاختبار.

الفصل السادس والعشرون

لم أمارس أبدا فى حياتى عملية نشل الجيوب - الآن، تمهل لحظة، فربما أكون قد فعلتها. فى المدرسة يمارس الأولاد كل أنواع اللعب مقلدين أدوار الجاسوسية المثيرة والروايات البوليسية، وتصوير الأفلام الخاصة، أى من هذه الألعاب كانت كافية لوضعنا فى اختبار عما إذا كانت أصابعنا أو ردود أفعالنا أكثر رقيا منهم، أى من الأطفال.

علاوة على ذلك، هناك معرفتنا المكتسبة فى علوم الكيمياء والفيزياء. الآن سرقت أنا أقفالا، ليس بقصد اللهو. إنها حافظة مفاتيح مفقودة. إلخ، ناهيك عن عدد المرات التى أستعمل فيها مفتاح الباب الخلفى لإدخال صحيفة تحت عقب الباب - وهذا ما استفدته من خبرتى المدرسية. لكن القيام بنشل جيوب، لا، لم يحدث هذا على ما أتذكر. أقصى ما كان يحدث هو سرقة شىء بقصد المزاح فى وقت اللهو بالمدرسة.

لكن، منذ أسابيع قليلة مضت - هذه، حقيقة، إنها أول سرقة يسجلها هذا القلم - أديتها بكفاءة وسلاسة كأى تلميذ من الفائزين

بجائزة فاجين، فقد سرقت جيبا، وليس أى جيب، ليس الجيب الخلفى لبنطلونه، أو جيب المعطف الخارجى لكن جيب القميص الموجود على صدره. كون هذا العمل البطولى لم يبد لى شاذا فى ذلك الوقت، فإنه أدهشنى بدرجة غريبة. إنه برهان آخر على كيفية تحول الإنسان يوميا، لا، بل لحظيا إلى مايشبه الثعلب، بسبب حبسه بعيدا عن الوجود الحضارى العادى. إن الذى استدعى هذه الحادثة إلى ذهنى هو أن القلم – وهو قلم جاف رخيص – قد بدأ فى عرض البوادر الأولى، ووجدت ذلك بطريقة غير واعية تماما، فأخذت أتمنى عودة الطبيب. متحيراً لماذا، تذكرت حادثة القلم الرصاص لعملى الأول كنشال جيوب.

أخيراً، حدث أن قام الدكتور بجولة روتينية فى الزنازين، إلا أنه فى حالتى لم تكن زيارة روتينية أبداً. لقد مشى الدكتور بين المساجين لم يره أحد، يصحبه فقط ممرضة وأحد موظفى السجن الصغار. ذلك، بالإضافة إلى الثقة المرتبطة بالصيدلى أكملت الفريق كله. ثانية، فإن أى نزيل جديد للسجن، لا بد أن يرى طبيب السجن فى الحال، وهذا يتم بالتأكيد فى الثمانى والأربعين ساعة الأولى. لسبب واحد أنه هو الذى يصف له نظام الغذاء، ويقرر بعد الفحص الدقيق ما هو العمل المناسب له. ورغم طلباتى الكثيرة، فإننى لم أشاهد طبيبا لعدة شهور. عند إقامتى تولى المشرف العام نفسه وصف النظام الغذائى لى. جاء فى الصباح وسألنى ما هو الطعام الذى اعتدت على تناوله. لقد حصلت حتى الآن على نوعين فقط، بينما أشار هو إلى كميات كافية. ومنذ ذلك اليوم، حتى وصول المشرف العام الجديد كنت أكل اليام فى فترة بعد الظهر

والأرز فى المساء وفى الصباح يأتى اللبن، السكر، الزبدة، والبيض معظمه ليزيد وزن عامل النظافة وحراسى، وأمبرزو بشكل ظاهر جداً.

والآن ودون سبب مفهوم، ظهر الطبيب فى صحبة المشرف العام، واثنين من الضباط الصغار. سجان كبير، وكتيبة من صغار السجانين. أما المرضات فقد انتظرن فى الخارج. خضعت للفحص، أجبت أسئلته ثم سألته بدورى سؤالاً.

"أنا هنا منذ شهور. وحيداً ليس لدى كتب، ولا شغل أيا كان. هل تظن أن هذا مفيد لصحتى؟".

دفع إصبعه الابهام فى صدرى وضحك" ها، ها أنت تبدو لى بصحة جيدة جدا".

"لكن هل تظن أنه إجراء صائب؟ هل تظن أن هذا تصرف إنسانى؟ فإذا كنت لا تظن ذلك، فينبغى عليك أن تفعل شيئاً. لقد تعودت على استعمال عقلى وتغذيته، فهل من الصواب أن أتعرض لهذه المجاعة المتطاولة؟".

اتضح لى أنه أبله. لم أكره أبدا اللهجة الآسيوية كما كرهتها فى تلك اللحظة. وفيما هو يتكلم، تذكرت تاريخ التدخل الهندى الباكستانى فى الخدمة المدنية النيجيرية، وفى مصلحتين على وجه الخصوص - السكك الحديدية والخدمة الطبية. كان الراحل ساردونا سوكوتو هو المسئول الأول عن جلب هذه المواهب الآسيوية الضعيفة إلى بلدنا.

فضيحة بين آلاف الفضائح تشمل موظفا بأحد المستشفيات، هو ابن أخ مضيفه المسلم أثناء بعثة من بعثاته الإسلامية التبشيرية فى باكستان. ففى إحدى لحظات توسعه على حساب الأمة، منح ساردونا لهذا العامل منصبا رئيسيا فى شمال نيجيريا، قبل أن يعود معه. لقد فعل هذا وتم تعيينه ضابطا طبيبا. ومارس الجراحة وكانت النتائج يمكن التنبؤ بها. وأخيراً فى ١٩٦٣، نتيجة الانزعاج الشديد من كثرة عدد الوفيات فى الجراحات التى يجريها، تم التحقيق معه. وتم الكشف عن سوابق هذا الصنيعة الخطير. رغم هذا فإن القرار النهائى كان مجرد: يمنع من إجراء أى جراحات أخرى. هذا الجزار احتفظ بوظيفته ضابط طبيب برتبة رفيعة، واستمريعمل بانتظام فى استقبال المرضى بالعيادة الطبية.

لقد رأيت طبيب السجن وسمعته، بلهجته الكاريكاتورية فبدا لى أشبه بواحد من حثالة الواردات الساردونية الأخيرة. البداية ظننتها مجرد نكته رديئة المذاق، عندما أصر على ترجمة شكواى من الفراغ الذهنى بمصطلحات الطب الطبيعى، ثم أدركت أنه فاقد الوعى.

كنت أشكو "من عينى، إعصار هارماتان أو ربما شىء آخر قد أحدث فيهما إصابة. إننى أحتاج إلى علاج".

وفى طرفة عين ضغط بإصبعه السبابة على جفونى السفلية. بسرعة، الواحد بعد الآخر. "نعم، نعم" وأضاء كشافه مرة فى كل عين "ماذا فى عينك؟ إنها تبدو طبيعية جدا".

"لكن هناك بقع تظهر أمام عينى". نظرت إليه وعينى فى عينه. على أمل أن يفهم ويمارس سلطته. "لابد أنها من قلة القراءة" أحسست بأنه أبله.

"لا، لا" قال وهو يركض حولى، وأخذ يفحص كل مقلة عين بجدية صارمة. ربما تكون قد قرأت كثيراً جداً فى الماضى. الأفضل أن تريح عينيك!"

قبضت عليه فى اللحظة التى استدار فيها إلى اليمين حولى. هو الآن بينى وبين أعضاء إدارة السجن. أمسكت بيده التى تحمل الكشاف وأوضحت كل كلمة ببطء" إنها تحتاج إلى القراءة".

حقا، حقا......... آسف، هل ذلك يزعج؟

فككت معصمه برقة وقال "سمعت الآن أنك لم تكن تأكل جيداً. أنت تعرف أنه يلزمك أن تأكل جيداً".

وفى تلك اللحظة فكرت أنه من المؤكد أننى لن أخرج بشىء من هذه الزيارة من ذلك الرجل، حتى أن ذهنى علق على قلم الحبر الجاف من جيب الصديرى. للكتابة! لكى أتمكن من عرض أفكارى على الورق، ربما لبداية مسرحية، أو رواية، أو قصة قصيرة، أو حسابا لنفسى...... كل ذلك كان، لكن الأهم من ذلك، الشغل" أنا والقلم سوف نفعل شيئاً. سوف يجرى الوقت بسرعة أو يتم قرضه ببطء.

أخذت أكرر "بقع، مثل الآن، هناك" وأشرت إلى السقف، لكن خلفه بدرجة ما، فوق كتفه الأيمن. كان الجيب على الشمال. كنت مدركا أن رجال السجن ينظرون ولكنهم يحاولون ألا يشاهدوا، ينصتون ولا يستمعون، مدعين أنهم تركوا أحد النزلاء فى استشارة خاصة مع طبيبه. التفت الآسيوى فى اتجاه إصيص، فملت عليه إلى الأمام، خطفت القلم حين استدار صدره الأيسر خلفى أطبقت عليه كفى، ثم بسطت كفى على المنضدة، فاستكان فى داخلها".

قلت "بالطبع أنت لن تراها".

"هذا سببه أكلك بطريقه غير منتظمة" بدأ يجمع أوراقه، أما أنا فقد ثبت عينى على عينيه لأرى إن كان قد لاحظ، دافعا إياه لأن يلعن نفسه بصورة مطلقة، كواحد مفروض فيه أنه عضو فى مهنه إنسانية بسبب خداعه لى. لكنه لم يلحظ شيئًا. تأكدت أنه لم يظهر أى رد فعل من جانبه، "يجب أن تأكل جيداً، تتغذى بطريقه صحيحة، ولن ترى بقعا أمام عينيك": هذا كل ما قاله.

عدت إلى التفكير، أظن أننى تمنيت أن يعرف أمر السرقة. لكان ذلك يعنى وجود ضمير إنسانى، مما يقلل من واقع العزلة. ربما كان ذلك هو السبب الذى حرمنى من الفخربدقة تلك العملية الصغيرة غير المعدة سلفا. كنت مهتما جدا بمتابعة كل لحظة تظهر فيها ردود فعله، آملا عكس الأمل فى أن يعرف، أن يدرك احتياجاتى وأن يتحرك لتلبيتها.

لماذا الشىء الآخر الذى أتمناه الآن، والحبر قد بدأ يجف من القلم، هو أن يزورنى ثانية؟ لكننى حسب معـرفتى بحقيقتـه، فإنه لن يعود ثانية ومعه قلم بارز من جيب قميصه. فإذا عاد فربما لأنه عرف وجاء عمدا لكى يسرق مرة ثانية.

الحبر أخذ يجف.. لابد أنه يمكننا أن نحسب حسابيا (أو هندسيا) سرعة جفاف الحبر فى قلم. أو الأنسب أكثر سرعة الارتداد النفسى لأى نزيل تحت رعاية من طبيب ساردونى.

الفصل السابع والعشرون

بدأت أنات الحزن تسمع بعد العشاء مباشرة. كانت تأتى من ناحية ذلك الجدار الذى يواجه مدخل زنزانتى. الجدار به فتحتان للضوء، تغطيهما شبكة من الحديد تسمح بمرور قط، ومن نتف الفراء التى تبقى عالقة على الشيش الحديدى أعرف دائمًا متى استعمل الممر بالليل. ثم انطلق فى الفضاء المتسع عاريًا مرعوبًا، ليختفى خلف الكوخ بحثًا عن فتاتة يأكلها . هناك مجرى ماء مباشر خلف الكوخ. يربط هذا المجرى فناء المجانين عن طريق سرداب بحظيرة النساء. هذا المجرى هو الخط الذى يجرى تحت الأرض ويربط قبور جهنم كلها .

أشم رائحة الموت الآن فى الهواء. لا يمكننى أن أخطئها، لذلك فإنه يتوجب على أن أفكر فى الأشياء الحية، أطرد هذه الرائحة بعيدًا عن أنفى، ومعها تضرعات الأيدى المعروقة بسبب عجزى وقلة حيلتى.

منذ أسابيع ولد لنا طفل هنا - سمعت صرخات رضيع، وتساءلت كيف يمكن هذا . أيوجد طفل فى هذا الجحيم؟ كان الوقت مساء، نفس الوقت تقريبًا الذى بدأت فيه الإناث الحالية المقتحمة. ربما تكون زوجة قد جاءت لزيارة زوجها السجين ومعها طفل حديث الولادة.

ليس هذا غريباً. لقد سمعت أصوات النساء من قبل لكننى ظننتها أصوات أطفال. لقد مرت عدة شهور قبل أن أعرف أن القبو الذى أقيم فيه، يقع بين فناء المجانين وعنبر النساء! كانت أصواتهن خافتة كأنها خارجة من فجوة فى مغارة بعيدة، ففى المساء يلعبن ألعاباً صبيانية - ومن الأصوات والضحكات أتبين أنها لابد أن تكون نوعا من ألعاب الأطفال. وهذه النغمات هى التى كنت أتخيلها آتية من خارج السجن؟ فى إحدى الأمسيات الهادئة كتبت بعض الكلمات:

أخى جونى.

أخى جونى.

هل تنام.

هل تنام.

أجراس الزفاف تدق.

أجراس الزفاف تدق.

دينج دونج دينج.

إنهن يغنين هذه الأغانى فى نغمة غيرمعروفة وغير ذات معنى، نغمة كان أطفال المدارس يرددون الأغانى الأجنبية مثل: أجراس اسكوتلاند الزرقاء، وغابة الرماد، والفتاة ذات المظهر الرقيق، تلك الأغانى التى فرضها على المنهج الدراسى عديمو الخيال من أعضاء البعثات التبشيرية.

إذ تنطق هذه الكلمات بنغمة مسطحة حتى حين تصحبها ألألعاب. فالكلمات لا تحمل معنى بالنسبة لهن لأن المجال مختلف، والعواطف غريبة، وهكذا فإن هذا الأداء الهزيل هو كل ما يمكن لمدرسة الموسيقى التى أسىء توجيهها أن تحصل عليه منهم. لابد من تذكر هذه النوعية التى جعلتنى أتخيل لوقت طويل جدا، أن الأصوات التى سمعتها فى الغناء واللعب جاءت من أطفال يلعبون فى الخلاء الخارجى تحت أشجار المانجو. ذلك العالم يقع فيما وراء حائط العنبر حيث تشرق الشمس خلفها مباشرة.

هناك طريق يمر بطول حائط العنبر Amber Wall، لا يبدو مزدحما بحكم الأصوات الآتية منه. أو ربما لأنه يجرى بعيدا جدا عن الحائط، بدرجة تجعل أصوات المركبات تبدو مكتومة. هناك قدر معين من التشويش خصوصا فى هذه الناحية، المؤكد أن هناك مساحة واسعة من الحشائش تفصل بين الحائط وبين الطريق. وهذا الفضاء تشغله غابة من أشجار المانجو التى تبدو هاماتها ظاهرة للعيان. أشاهد البراعم تبرز، عملية الإزهار وبوادر القرون الخضراء على الأغصان. أسراب من الحشرات تطير خلف أفراد اللصوص الذين يتسللون لسرقة الفاكهة، عندما تظهر بوادر النضوج ككل الأشياء الموجودة فى كتالوج المقذوفات العريض التى تقذف بها حبات الفاكهة. وهى كثيراً ما تسقط فى القبو وأنا أسمع الحارس يقسم ويتوعد ويعيد قذف بعضها للخلف.

أنا لا أهتم. حتى خطر إصابة المخ مصادفة بأحد المقذوفات فى فصل المانجو يبدو كنوع من التوابل المثيرة للنشوة التى تجعل الحياة تدب فى جو الملل الذى أعيش فيه. أى كسر مؤلم فى الرأس هو علامة على الحياة، والحيوية. لا أظن أنه كان يمكننى أن أهتم مطلقاً.

ذات صباح نظرت إلى أعلى - مشيتى فى الصباح المبكر تبدأ بعد ساعة الافتتاح مباشرة. هناك فوق قمة غصن، منطقة لا تكاد تقوى على حمل ما هو أكثر من وزن الفاكهة، كما كنت أظن دائما، إنها تحمل ثقلا أكبر من الفاكهة، حيث يجثم صبى محاولا الوصول إلى حبات المانجو فى أعلى الغصن. كانت رأسه أعلى من قمة الشجيرة ذاتها؛ كان يتأرجح قليلا تبعا لحركة الغصن. كنت متأكداً أنه لا يوجد سوى هذه الحزمة من المانجو على الشجرة. ففى أغلب الأحيان يتحرك تبعا للشجرة ويهتز بعنف، حين يأتى واحد أو أكثر من اللصوص ويتسلق الأغصان السفلية، لكن لم يجرؤ أحد منهم على تسلق هذا الغصن العالى من قبل. كانت يد الطفل موضوعة على الهدف عندما التقى بعينى تحملق فيه. فتوقف. وأخذنا نحملق بعضنا فى بعض. ابتسمت له استجابة كانت تدل على الحيرة والارتباك. حينئذ أدار عينيه إلى بعيد ونظر فى الجانب الآخر. رأيت عقله النبيه يسرع ويتساءل لأنه كان يطل على الحوش المزدحم لحظيرتى. أخذت الشمس ترتفع ببطء من خلفه، كانت ساطعة بدرجة كبيرة. لا أستطيع معها الاستمرار فى الحملقة. فواصلت مشيتى حول الكوخ. عندما عدت وجدته قد رجع ليحملق فى داخل القبو وعندما عدت ثانية وجدته قد ذهب، ومعه حبات المانجو.

عندما سمعت صوتا ثلاثيا فى ذلك المساء. تخيلته بين آخرين من أقرانه، يلعبون فى ضوء القمر. لأول مرة استحضرها، حاولت بقدر ما أردت أن أكتبها، ذكريات الطفولة، دار كاهن ملىء بالأطفال. بذلت جهدى النهائى وأغلقت هذا المشهد، بعنف. فى مكانه جاءت رائحة الزهور، وشروق الشمس، رجع صوت الجيتار، النهاية الوثنية الشهوانية لمسرحية أورفيوس الزنجى لجان كوكتو، رقصة الربيع للطفلين، ورثة شروق الشمس السحرى المثير، بذرة تسقط فى التربة تحت أقدام الأبرياء.....

لأنه قد ولد لنا ولد.... إنها صيحة طفل وليد، أصوات القهر المحزن الذى صنع عالمه الجديد كله. عقل برئ لكل ما فى جسده الضئيل من حدة. سمعت أمه تدندن وكنت متأكدا. انضم إليه صوت أنثوى آخر عصبى ومتألم بشكل واضح. المشهد كله إنسانى، صوت الأم العادية القلقة كان يقدم نصيحة، وهو مهموم إلى جانب الطفل. لكن الأصوات ظلت مكتومة، النساء غير موجودين فى الواقع لم يكونوا أبناء للشمس، لا يشتهون تزاحم حبات المانجو فى وجه شروق الشمس. إنهم أشباح، أشباح كاملة لا وزن لها تنجرف فى مغارات الضباب. فى عالمهم السفلى الطفل هو معجزة كاملة الحنجرة. بدليل إننى أفكر الآن بحزن، لأن مولد الطفل قد جاء فى الموسم الخاطئ – كان ينبغى أن يكون الفصل ربيعا. لكن، إذا كان بنتا فيمكننا أن نتغافل عن التوقيت ونسميها بيرسيفون.

لكن لا عزاء عند حائط المبكى والمغلقة حتى منتصف الليل. إننى أغلقت عقلى عن الأصوات الأخرى التى بدأت منذ ساعتين، الأصوات

التى سرعان ما لزمت الصمت. النزلاء الآخرون، رفاق الرجل الذى يئن أطلقوا صيحة استغاثة. سمعت أصواتا هيسترية تنادى، يا سجان، يا سجان ! واستمرت لمدة نصف ساعة دون أن يهتم بها أحد، ثم زادت بالدق على الأبواب، والشبابيك، والجرادل، ثلاثون صوتا على الأقل تطلب المساعدة الآن. وتحتها جميعا وباطراد استمر الأنين، بنغمة ومسافة لا تتغيران كأن آلامه قد تصاعدت تلقائيا، حتى وصلت إلى ذلك الصوت. سمعت صوت أحذية عديدة تجرى. سمعت صليل الحديد عند فتح البوابات، سمعت التهديدات والصيحات، سمعت الاستجابة، المحددة للأسئلة. سمعت هؤلاء يصمتون. سمعت وطء أقدام طويلة للسلطة تقترب من فراش المريض، سمعته ينحنى ويكشف عليه ولا يقول شيئًا. سمعت الخطوات تعود. فقاعة من الأصوات المنفعلة تعنى أنه كان يغادرالمكان دون أن يقول ما الذى يجب عمله. لو أن شيئًا سوف يتم عمله. إذن إننى سمعت الكلمة التى تتكرر - دكتور كتمها بسطحية وغضب، صلصلة الأبواب، وشخللت الأقفال، ومشيت الأحذية بعيداً. تمتمة الحراس العائدين كأنما تعبر عن احتجاجات رجال مظلومين، رجال قطع وقت فراغهم دون حاجة ماسة.

لم يتوقف الأنين ولم تخف حدته. واستمر صوت هذا العذاب الإنسانى غيَر الدموى بصورة مطردة وهو الجانب المثبط للعزيمة فى هذا كله. فهو لا يأتى باختيار إرادى، وإنما ناتج عن قصور ذاتى وهبوط للنبض. وكأن الرجل قد ترك فمه مفتوحا وصار الصوت يخرج مع حركة التنفس.

وقرب الفجر توقف الصوت. فجأة حتى دون أن يضعف، وازدادت حدته. أعرف أنه انتهى.

إن جسدى يتوتر نتيجة لأقل صوت أسمعه. لقد نهض أحد الرجال، اقترب من الصمت لكى يسأل. آخرون جلسوا فى سريرهم، قلة انضمت للأول بجوار السرير. بعد دقيقة أسمع تمتمة الصلوات. واستمرت الصلاة حتى انفتحت الأبواب، دخل أحد الحراس، توقف، وصاح منبها لقدوم رئيسه.

وسرعان ما حانت الساعة التى "يستيقظ فيها جميع الموتى" وعندما دار المفتاح فى قفل بابى سألت السجان ماذا حدث للرجل الذى كان يتعذب.

قال: "الرجل مات".



الفصل الثامن والعشرون

أطلقت على الحوائط الأربعة أسماء. أما "حائط المبكى" فإنه الحائط الذى تأتى من فوقه أصوات التسابيح الدينية، ثلاث مرات يوميًا، وفى بعض الليالى، تأتى أنات حزينة لمريض يتألم أو يحتضر، هذا الجدار يوفر أحد الممرات النادرة الاستعمال. هناك تحت الحائط فتحتان صغيرتان لخروج مياه الأمطار. وفى الحالات التى تصفو فيها هذه المياه كنت أرى وميض كاحل قدم لأحد السجناء، أو حذاء سميكا عاديا لحارس، أوحذاء خفيفا لعسكرى أو لضابط كبير. وهنا ابتدأت هلوستى أيضا.

نتيجة خداع الضوء والضعف الجسمانى فى اليوم السادس لصيامى الانقطاعى، رأيت خلال أوراق النباتات المتسلقة، هيئته بوضوح. وبصورة لا تخطئها العين، بخصلة شعره فى مقدمة الرأس وشاربه الذى يشبه فرشة الأسنان، إنه وجه أدولف هتلر.

جلست بلا حــراك لعدة دقــائق، تاركًا الطيف ينمــو كمـا يهـوى، لم يحدث أى تغير غير أن مقلة العين السوداء زادت حدة، فأغلقت عينى وحولت عينى تجاه الحائط، تنفست ببطء، وبعناية، ثم أدرت وجهى لأنظر فواجهنى نفس الوجه البارد بتعبيراته التى لا تتغير. أعرف أن صرخة أفلتت منى، وأننى قفزت إلى داخل الزنزانة. لقد كنت جالسا فى الممر، فى أول المســاء، وقفت فى الظلمـة حتى جاء الحـارس لإغلاق البـاب، ثم ذهب للفراش. أغلقت عقلى، ورفضت كل الأسئلة. لقد مضت ساعات قبل أن أنام وبطريقة مدهشة دون أحلام.

فى الأمسية التالية، وأنا أقيس الوقت بدقة، عدت إلى نفس الموضع. هذه المرة ظهر وجه ألبرت شفيتتزر. بتغير الوضع وجدت أنه بالإمكان أن أحصل على ذخيرة من الوجوه. رفضت ومشيت ببطء ناحية الشبكة الحديدية، شــاهدت الظل ينصـهـر. رأيتِ النبـات المتسلق يرسم خطوط ارتفاعاته، وتستعيد صحته العقلية فترة قصيرة من الصعود. اليوم التالى خفضت كمية الصيام كله فقبلت الفول السودانى والبرتقال. فيما بعد اضطربت بسبب استمرار اليقين بأن الوجوه انقلبت، تراجعت وأطلت بصورة هائلة. فيما بدا أنه تليسكوب من الأثير يواصل ضبط الصورة باستمرار يتراجع أحيانا، فتطفو متناهية تمامًا دون سيقان أو أجساد، تتحـرك، تتكلم وتشيـر بإصـرار متزايد، ظللت أراقب بحثًا عن لحظة مناسبة بالنهار لأقطع النبات المتسلق. منذ ذلك الحين عادت الفتحة لما كانت عليه، مجرد بقعة ضوء. وفى النهاية اختفت من الوجود، لكنها كانت

تخطط لبعث مزيد من الصحوة العقلية المتعمدة. لقد حررت نفسها من الظلال، من أجل إحدى مسرحيات الظل المحزنة.

موكب هذا الصباح فى الجانب الآخر من بقعة الضوء. شىء لاسابقة له. فحصتها لمدة طويلة وبوقار، كاحلا بعد كاحل، قيدا بعد قيد، صوت القيود حقيقى. هذا أيضا فى وضح النهار، عبر شبكة الحديد تظهر أطراف البشريبطء وبالتدريج - حركة، رنين، حركة، رنين، حركة، رنين. أقدام حافية، القيود كلها ظاهرة، والكواحل. إنها من نفس النوع الذى كان مثبتا فى أقدامى أثناء استجوابى فى لاجوس، قيود السلاسل الثقيلة أقفالها كانت تعض فى عظمى مع كل حركة. الحركة المكوكية هى الحركة الوحيدة. وضع القدم اليمنى فوق اليسرى، واليسرى بعد اليمنى بغير استعجال. أى رفع للأقدام أو الجلد فوق الكواحل إلا ويقشط الجلد، وحتى المراوحة فى المكان تصبح عذابا. إن أحذية الحارس اللامعة تحاول فى تناقض أخرق أن تتبارى مع رقصة الموت التى يؤديها السجناء منطرحين أرضا، لكن كيف؟ إنه ينقصهم التفوق المعدنى. أحد عشر سجينا واثنان من الحرس قد أحبوا الصور داخل الإطار الضوئى، مبدلين أقنعة الموت فى أول الغسق بمهرجان جديد يتحتم علىّ اكتشاف سره.

حالات صعبة؟ حالات هروب مزمن أو جنون القتل؟ يبدو غريبًا أن يتحدث الحراس إليهم. أصوات الحراس، لها وقع هادئ عادى يبدو مفروضا عليهم. فلا أسمع كلمات، بل أصواتا. أشك فى أن هناك من

يعيد حكاية تحكى، وهى شىء مضحك تماماً. أنا متأكد من أن الأصوات التى تضحـــك هى أصـوات السجـانين؛ لكـنتى لا أحس أى قســوة. بهذا الإدراك التعسفى الذى يبرز مفاتيح الجسم العارية، والإحساسات فى السجن يجعلنى أستنتج أنه شىء على حساب الوظيفة الرسمية، وربما يكون ضد راوى القصة نفسه. بعد الضحك، والصمت، وهو جهد مألوف فى أثناء الوقفة قبل استئناف الأصوات.

لماذا إذن نبذل هذا الجهد لكى نكون عطوفين؟ فالنوايا الحسنة تنتقل عبر حواجز الجدران، حتى من خلال الممثلين المقنعين الذين لا تظهر وجوههم. أعرف أصوات الحراس المستبدة والضوضاء السادية التى تهدد وتبتز. حتى النغمات الهزيلة المهدئة. سمعت أصوات هؤلاء جميعا، الذين يزاولون سلطتهم الخاصة، أعرفهم جميعا. أصوات المساء بعد رحيل الضباط الكبار، عند وضع الحواجز والقيود المفاجئة بأمرالضابط الكبير أو مساعديه، فالحدود بين السجانين والمساجين تنمحى وتبدأ بينهما مشاعر ارتياح إنسانية، فهم رجال يتقاضون مرتبات ضئيلة - ولهم مشاكل كبيرة فى الحب، ومسئوليات ورغبات فى الحياة. لقد ميزت بين أصوات يهوذا الخائن، عندما أخذت تواسى السجناء الذين خدعوهم هم أنفسهم.

فقواعد الثقة بين السجان والمسجون تراعى بدقة وفقط، عند الضرورة تتم المواجهة بين السجين ومن غدر به. أعرف صوت يهوذا الذى يرحب بعودته من المطهر، صوت المنافق الذى يوبخه لأنه شديد

الثقة بإخوانه المساجين. إن أصوات الحراس فى هذه المشاية المظلمة تلوثت بظلال نغمة النفاق، لكنها صادقة فى شعورها بالحياء. إنها أيضا ليلة تبادل الأصوات المريحة لكنها مرهقة، كما لو أن الزيارة السرية كانت متوقفة لكن من خلال مدخل بالغ السوء ينذر بالشؤم بدرجة لا شك فيها.

لكننى مازلت غير قادرعلى الفهم، فبعد ساعات، انسحب الموكب راجعا، فنبضه المميز يكمن فى الصوت إلى أن تنسحب أصابع الأقدام الأولى إلى داخل إطار الصورة. أستقر فى المركز حتى يتم الهجوم عليه ببطء من قدم آخر، كعب متعب يستريح فى داخل الإطار وثقل متعب. أسمع هذه المرة استجابة أو استجابتين من السجناء. لقد أصبح الحرس يتصرف بصورة طبيعية، لطيفة، استرخاء بسبب العلاقة التى ربطت بين من يعذبون وبين الذين يفرض عليهم الواجب أن يتحللوا من جريمة التعذيب.

لقد مر أسبوع قبل أن يعود الموكب. بنفس النمط كما كان من قبل، كما كانت سابقا الآلية الدقيقة أشكالا ثقيلة، متعبة ومنبسطة وملصقة على لوحة خلال الضوء. أغلقت عينى وأيقظت مسامعى لهذا الفيضان منذ مروره الأول، لكن للمرة الثانية هناك فاصل من الأيام. ثلاثة أيام على ما أظن.

هذه المرة هناك سلسلة من المواكب تمتد ثلاثة أيام متوالية، واليوم هو الثالث والأخير - لأننى الآن أفهم - ! إنه يبدأ بطريقة غريبة ومبكراً.

ما هى السدادات التى وضعتها فوق حدسى أو فطنتى، لكى أفوت حتى الآن هدف هذه المواكب! أن أبقى مخلصاً هكذا متنبها للعبور يعنى، وأنا أعترف، هو وعى بفعل لم يكتمل، إحساسى بتمثيلية لم تكن فى الحقيقة سوى مقدمة قاسية. استيقظت بطريقة معجزية فى وقتى المعتاد، لأن الأصوات كلها التى تستفزنى غير موجودة. يبدو للوهلة الأولى أننى استيقظت متأخراً، لكن ميل الشمس يبطل هذا. أدرك أننى يقظ فى جو من الصمت. افتقدت كل الأصوات التى تدعو للإفطار والتى تمر خلال السجن، عمال النظافة، العصابة الأولى موكب الحراس وصيحات الأوامر. أنها نوبتجية أمبروزو هذا الأسبوع، لكن عندما دخلت الفناء وقابلت شابا لم أره من قبل حتى هذه اللحظة. لم أحدد تحديدا كاملا غرابة الصباح الصامت، فقط كتغير فى نغمة اليوم التى سوف أتأملها فى وقت الفراغ. (يتعلم الإنسان كيف يختزن التجارب الهاضمة التى لا يسميها الحدس تهديداً بخطر مباشر) أبعدت الهدوء غير المعتاد، وأطلت فى أخذ حمامى، ثم مشيت بلا هدف حول الفناء. فى هذه المشية المبكرة لا يسمح بشىء إلا بتطفل النمل، الذباب، والفراشات وبعض الحشرات الأخرى - لم يبدأ النهار فى الانسحاب حتى ساعتين قبل الظهر، وترك ذخيرة كل يوم لهذه المحاكمة" وهذا التكيف فقط هو الذى تسبب فى إخفاقى فى تفسير الصمت المطبق فى ذلك الفجر. وقع الأقدام الثقيلة للحراس والضباط، والأخيرين بصفة خاصة، ووجود اثنتى عشرة قدما على الأقل غريبة كلها مكفهرة الوجوه، وأخيراً، بالنظر للخلف، هناك انفعالى اللا واعى بالخوف من ممارسة بعض الشعائر التى لا يمكن تسميتها.

الأقدام المقيدة لا تعطى تحذيراً عند مرورها. ولا حتى حقيقة أنهم أقل من خمسة. اليوم ستة أزواج من الأرجل تنجر عبر الإطار وهذه المرة تعلو أصوات الحراس، مغلفة بقسوة عصبية. والمؤكد أن ابتهاجهم مزيف وغير محتمل، ونتيجة توتر أعصابى مشيت مرة أخرى حول الكوخ فى مواجهة الحائط المليء بالفتحات - حائط المبكى - هو حائط العنبر الذى تشرق عليه الشمس. وبوقوفى أمام حائط العنبر، يمكننى أن أرى حائط المبكى، وأرى أعالى النوافذ فى الطابق الأعلى لأقرب بلوك فى السجن. فى لحظات نادرة عندما يقوم النزلاء أو المعتقلون بتسلق حافة الشباك لأسباب غير مفهومة. لقد رأيت فعلا وجه إنسان وبجسارة، ولحسن الحظ استدار الحارس للخلف، لوح ثانية بيده، بل وبإيماءة من رأسه أشار له ولى. تقوية للعزائم.

واليوم أغلقت كل الشبابيك، وأنا أفسر الآن الأصوات الأخرى الصادرة من الشبابيك البعيدة التى تفتح وتغلق. لقد ران الصمت على إحدى الخلايا الإنسانية الضخمة وحل عليها ظلام مطبق. ولكنى لا أفهم.

دام الصمت ثلاث أو أربع ساعات. وكما يفتح شريط الصوت فى أحد الأفلام، فإن عودة الصوت جاءت فجأة وبطريقة تعسفية. والرجال الستة المقيدون بالسلاسل قد عادوا الآن. ولا أستطيع أن أعلن فى أى لحظة وافقت على أنى أفهم، ولأن أثر هذا التنوير أسكننى فى الفراش حيث رقدت فى صمت ودون تفكير أو حراك. إن عودة السلاسل، فى لحظة تزداد ثقلا، ثم تخف بطريقة مربكة، فأين موقعها بالنسبة للحظة التنوير.

خمول مخدر، وشلل فى الأحاسيس على إثره شل الفكر الذى امتص الساعات الأولى من الصمت بدقة شديدة. فجأة، نهضت دون مبالاة بقانونى الذى يفرض علىّ عدم الاتصال، لا شىء إلا الاتصالات الأساسية مع الحراس. هرعت إلى الخارج بحثا عن تأكيد لا أحتاجه من الحارس الصغير، لكنه ذهب ووجدت أمبروزو فى مكانه، محمر العينين تفوح منه رائحة الموت ملتهب الأنف، مثقوبا ثقوبا واسعة. لم أتوقف لتقدير نبضاتى، ولكنى تحديته مباشرة" هل شنقت هؤلاء الرجال؟ أومأ برأسه موافقا، وكأنه بحاجة ماسة لكى تتدفق الكلمات منه بحرية، بين قرصات الشمشمة أو الاستنشاق.

"لابد أن يكون الإنسان قويا ليقوم بهذا العمل. إذا لم يكن قويا فلن يستمر. إذا الرأس لم يكن لائقا، فالإنسان يصاب بالجنون. هذا يكفى لمساعدتى. آخذها قبل وبعد. كل سجن يأخذ هذا الشىء، لكن هذا لا يكفى لمساعدتى، إننى اليوم أشرب زجاجتين كبيرتين من الخمر أشربهما جميعا بعد الظهر. نأخذ فترة بعد الظهر إجازة عندما نقوم بعمليات الشنق. بعض الناس لا يحبوننى، ولكنى لا أهتم عندما يقوم الإنسان بقتل شخص آخر شنقا، أنا لا أحس بالشفقة. القاتل ليس رجلاً شريراً. لا يوجد معنى للشفقة على العمل، الأفضل هو أن نقتلهم جميعا مرة واحدة...".

إنهم يأكلون طعاماً خاصاً، وأى شىء يريدونه. تماماً كشخص من ذوى الأهمية. الحشرات الهامة جدا مثلى يجب التخلص منها، عندما تزداد

سمنة؟. لقد أومأ أمبروزو برأسه، ثم فهم المعنى وصحح نفسه، ليدحض بعنف هذا الاقتراح. لا. لا أنت لم ترتكب جريمة يمكن لأى شخص أن يكون سجينا سياسيا ويمكن أن تكون غدا رئيسا للوزراء.

عدت به إلى موضوع الشنق. إنهم يأكلون ما يريدون. ولهم طباخون خاصون من بين من يثقون بهم. ويزورهم الطبيب بانتظام ويغير لهم قائمة الطعام على هواهم - ألعاب - هوايات - كل المفارقات اللاواعية التى تلوح ذات أهمية فى الكتالوج حقوقهم المشروعة. فقط عندما يخرجون للفحص الطبى فى الصيدلية. أو عادة فإن الطبيب يزورهم فى عنبرهم عندما يطلبونه، لكن حسنا، إنهم ليسوا حقيقة ذاهبين للعلاج. إنهم يذهبون إلى صيدلية، وهذا صحيح، ولكن لا أحد يهتم بالنظر إليهم. إنه جزء من التدريب. إن الخروج مفيد لهم على أى حال هذا ما يحدث إنه أمر بسيط حقيقة....

عندما تتم كل العملية القانونية، ويتأكد الحكم النهائى بالإعدام عن طريق السلطة الحالية يتسلمه السجناء. يبدأ التدريب الواضح للتحايل. الرجال المحكوم عليهم يعرفون هذا الفعل. بعضهم كان فى عنبر الموت من أربع سنوات، دخلوه مرات عديدة دون أن يعلموا. بعد أول خروج من الصيدلية لا أحد منهم يلمس طعامه وقد هجروا اللعب - لعبة القرص - لا أحد يقترب من اللوحات. لا يتكلمون بعضهم مع بعض. كلما زادت مشاركتهم فى الكوميديا السوداء، كلما زادت خبرتهم عن الموت. لأن كل من فاته دورمع وصول نزلاء جدد فى عنبر الموت يجعله

يتخيل مجيء الدور على النزيل القديم. قانون بسيط للاحتمالات. إنهم يأخذونهم إلى الصيدلية فى جماعات، لتكون الجماعة نفسها أبدا، فى عملية فحص طبى دورية - هذا مايقولونه لهم - لكن لأنه لايتم فحصهم، وإن ما يجرى من فحوصات هى مسألة شكلية، فهم يفهمون ما تنذر به هذه التدريبات.

فقط هوية المشنوق التالى تبقى لغزا يتطلب حلا، كل يوم ربما يكون هو الأخير. أن يؤخذ الفرد إلى الصيدلية اليوم لا يعنى تأجيل تنفيذ الحكم. وأن يترك خلفهم فهو أمر أكثر رعبا - بالنسبة لكبار السن. إنهم يعرفون - لكن أن يذهبوا مع كتيبة المرضى، فقد يكون اسوأ إن هذا يعنى فقط أنه ليس اليوم لكن ماذا بشأن الغد؟ لا يعلمون شيئا حتى يعودوا. إذا لم يفقد واحد منهم، فربما يكون الأسبوع التالى، حتى شهر أو شهور. ربما يكون الجلاد مريضا.

حتى القانون يطلب موتة واحدة للمجرم. هؤلاء يموتون، فرض عليهم أن يجتازوا حركة الموت عدة مرات زائدة فى الآلية الغريبة للتعذيب القانونى والذبح القضائى.

اليوم مجموعة من تسعة وغدا أو الأسبوع القادم مجموعة مختلفة. قد يكون موكبا لثلاثة أيام متتالية. البعض يترك فى الخلف. يقول لمبروزو لا يكون العدد أحد عشر أبداً. لكن الرقم يتغير كل يوم ما بين تسعة واثنى عشر. ربما كنت أحسب أحد عشر فرداً كل مرة حتى هذا الصباح.

فى اليوم نفسه حتى الرجال المحكوم عليهم تركوا فى الخلف. بقيت زنزانتهم مغلقة. عند مغادرة كتيبة المرضى، دخلت كتيبة الإعدام. حارسان لكل رجل، يوثقان يديه خلفه، قلة تقاوم بعنف لكنهم مضطرون للاستكانة، البعض ينهار ويحُملون دون وعى إلى المشنقة. خذ يوليفيموس.

هذا الانكشاف لم يدهشنى. يوليفيموس نال الترقية كجلاد فى خدمة الدولة، للقتل الفردى فى مكافحة. أى سجين.......... لا يريد أن يمشى إلى المشنقة. مشهد هياج عنصرى، جزء منه شعائرى وجزء منه تقليد ارتجالى لطقوس العصور الوسطى. أحد الرجال ألقى بقفازه. فى وجه الموت وأعلن حقه فى محاكمة جديدة، عن طريق المعركة. وقام يوليفيموس بالتقاط القفاز نيابة عن الدولة والموت.

بيتر نادين هذا انتظر فى زنزانته فى عنبر أنيجو للموت. سلح نفسه ضد الموت بغطاء صفيحة تراب كدرع وعكاز قاتل مدعم برؤوس معدنية طراز لم يتم اكتشافه، لم تشك كتيبة الموت فى شىء حتى واجهت شبحا شيطانيا فأصابهم الجنون وولوا الأدبار. المتحدى تحصن فى مكانه وانتظر. لا أحد يجرؤ على الاقتراب منه. يوليفيموس مجرد حارس صغير، ولأنه يجهل القراءة والكتابة، فمن المحتمل أن يبقى هكذا معظم حياته. لكن المطلوب الآن ليس التعليم بل رصيده من القوة المؤثرة، الجسدية. دعاه المشرف الابيض، فأثبت أنه فدائى مستعد متطوع، سلح نفسه بطريقة أشبه بالدرع والسلاح وتقدم. قام الحراس بتمزيق الحواجز وانسحبوا.

اقـتـرب يوليـفـيـمـوس من غـريمه، اثنان مـن الجـلادين فى صـراع الموت. بطولة الدفـاع عن القانون والخـروج عن القـانون فى فـقـدان الحيـاة. لا أحد يتدخل، لا أحد يستطيع، من حيث السرعة أو المستوى للمواجـهة الذاتيه الشعـائرية، ولا حتى المشرف الأبيض الذى يرفرف بأجنحته ويحمل مسدسه فى يده، وقد حافظ على توازنه النفسى بقلق، حتى لا يطلق طلقة عند الحاجة للدفاع عن الدولة.

يوليفيمـوس فـاز فى الصـراع. فقـتـل خصـمه بأن خنقـه بيديه. لكن على الأقل فإن برنادين أفلت من حبل المشنقة بفضل يوليفيموس.

لكن فى المعتاد لا توجد مقاومة.

نحن نقبض عليهم من أذرعتهم - هكذا - والكلبش خلف ظهورهم ثم يأتى المشرف. يقرأ لكل شخص الخطاب الذى أرسله الحاكم ويخبرهم، بأن هذا هو اليوم المحدد. ثم يأتى الكاهن للحديث معهم، أو إمام المسجد إذا كان المحكوم عليه مسلما. يقول له استعد لقد قتلت حياة الناس بيديك، والآن المجتمع يطلب منك أن تدفع حياتك ثمنا لهذه الحياة. لقد انطلقنا إلى ساحة الإعدام. إنها على اليمين بعد عنبرهم ولكنهم لا يعرفون. أنت ترى أن البقية فى مكان بعيد. إنهم لا يعلمون أبدا أى طريق أخذناه، قيل أن يتم بناء ساحة الإعدام فى مكانها الجديد، كان لديهم ممر طويل. بعد ذلك تذهب مباشرة خلال العنبر، وتخرج من البوابة الرئيسية. أحيانا يتجمع الأقارب لرؤية جثة ذويهم، وفى أغلب

الأحيان يكونون هم أقارب المقتول. تذكر أن قلة من الأقارب يأتون ليعلنوا صلتهم بجثة أى رجل أعدم بسبب جريمة قتل، لأنه أمر مخز، لكن أحيانا أقارب الرجل المقتول يأتون لذلك، فإن المشرف العام يخرج لهم ويقول، ها أنتم ترون جثة قاتل قريبكم. إن الدولة اقتنصت حياة بحياة، لتنهى كل الثرثرة أو الوشايات معه.

كان هذا منذ سنوات مضت، أما الآن فهناك بالطبع مدخل خاص تنقل الجثث عن طريقه بواسطة لوريات. المشنقة، لا، المشنقة لا تنصب فعليا إلا فى صبيحة يوم الإعدام. وهذا هو سبب الوقت الطويل الذى تستغرقه، تصل أحيانا إلى ثلاث ساعات قبل أن نستعد للمحكوم عليه...... . فى هذه المهمة هو ومساعد الجلاد. فنحن نسير بهم نحو المنصة، عندئذ يتولى الجلاد المهمة. المنصة تأخذ اثنين فى كل مرة، يأخذ الرجل الأول وضعه وتلف حول رقبته الخية فإننا نجهز الرجل الثانى، ويشنق فى الحال عندما يشد الجلاد الذراع ينفتح باب المصيدة ويسقط من خلاله الاثنان. الرقبة تنكسر كما ترى فى الحال، ولكن لابد من تركه معلقا ثلاثين دقيقة.

هذا ما يفرضه القانون. أما الجلاد فلا ينتظر بجوار المشنقة. نحن ننتظر. هناك حجرة استراحة قريبة خاصة به يذهب إليها هو ومساعده. هناك مشروب قوى يشرب منه فى فترة الانتظار. يذهب إليها الطبيب أيضا وكذلك كبار الضباط. لا، إنهم لا يشربون أتذكر أننى عرفت طبيبا

واحدا يستعمل زجاجة مفتوحة فى جيبه. لا أحد يعترض عليه، لماذا؟ نستطيع نحن أيضا أن نشرب أى شىء، لكن علينا أن ننتظر بجوار الجثث. هل تسرق الجثث؟ لا ليس هذا هو سبب بقائنا هناك.

لا أحد يمكنه سرقة الجثث هناك، نحن نبقى هناك لحراسة المحكوم عليهم الذين ينتظرون دورهم. إنهم يرون طبعا ما يحدث. لكنهم لا يستطيعون منعه. نعم، يرون أول شخص يذهب، وهذا درس مفيد لهم. ذات مرة شنقنا أحد عشر رجلا فى نفس اليوم - هذا صحيح، قتلة أبالارا لقد شنقوا هناك فى كادونا. جميعا فى نفس اليوم. لا. الجلاد لم ينزل الجثث. نحن الذين فعلنا ذلك عندما انتهت الدقائق الثلاثون ذهبنا أسفل المنصة وفككنا الحبال. أنزلناهم فى أكفان من الخشب الخشن، ثم جاء الطبيب وقطع جرحًا صغيرًا فى الرقبة، فى المكان الذى ترتبط فيه بالرأس. لقد أخرج شيئًا ووضعه فى زجاجة، كتب اسم المحكوم عليه على الزجاجة ثم وضعها فى جيبه. ما الذى أخذه؟ ذلك ما أردت دائما أن أعرفه. بعض الناس من أهلنا يقولون إن هذا الشىء يحتوى الحياة. فهل هذا الشىء حقيقة؟

الفصل التاسع والعشرون

لقد اكتشفت شيئًا غريبًا هذا الصباح وهو أننى حامل. لقد ظللت وقتا طويلا أنظر إلى هذه العلامة، متسائلاً كيف يكون هذا. لأن هناك شيئًا مستديرًا بإحكام وصرامة، بيضة منتفخة لا علاقة لها بخصرى.

كونى رجلا، فالمفروض ألا يحدث هذا مطلقا. من المعروف أن أشياء غريبة حدثت وتحدث. فالتغيرات الجنسية يمكن أن تزحف ببطء على الرجل، دون أن يلحظها أحد فى جو غياب الأعضاء التناسلية، ومياعة الجينات الذكورية، ثم التعايش بين الأعضاء الأنثوية والذكورية. معركة بين الهيرمونات والبقاء فيها للأضعف، أو للأقوى؟ من المفروض أن جينات الأنثى هى أقوى، أو ربما إنها فقط أسرع فى الوصول إلى الرحم؟ شيء ما يجرى على هذه الخطوط. على أى حال، ليست هذه هى المسألة: فقد عشت حياة عزوبية صارمة لمدة تربو على العام.

فهل يمكن أن يكون حملا كاذبا؟

لا. إن صور الحمل الكاذب، كما رأيتها، عبارة عن حبات قرع ضخمة تبدأ من المنطقة أسفل الصدرفى شكل بالونة مستوية من الخارج -

ثم دخول حاد نحو كيس الخصيتين. لكن حملى أنا بادىء تحت الصرة مباشرة، إنه صلب كالحجر، صغير الحجم ومضغوط. يبدو وكأننى أفرزت بيضة كبيرة تحت الجلد مباشرة، لكنه مناقض، فبقية جسمى عبارة عن جلد وعظم – فأنا فى الأسبوع الخامس فى دورة الصيام الخاص بى.

لقد تغلبت على هزال الجسم والهلوسة، لم يعد هناك إجهاد عقلى أو بدنى. إن جسمى يتضاءل لكن دون أن أفقد قوتى، عقلى يتسع دون أن أفقد شيئا من وضوح الذهن، بل اننى استعدت القدر الأكبر من روح المرح التى فقدتها من قبل.

لقد قررت أن أتمشى، وأن أفكر فى هذه الأعراض الغريبة التى طرأت على جسدى. وقد ساعدتنى عملية النهوض على حل المشكلة فى الحال. فتمالكت تلقائيا ونفخت بطنى لكى أملأ الفراغ الكبير فى البنطلون. وكلما طال وقت الصيام، اتسعت الفجوة طبعا، وزاد الإجهاد على الجزء الأسفل من معدتى لكى يملأه. يبدو أننى تضخمت على مدار الشهور، وبالنسبة إلى حجم جسمى فيبدو أننى كونت أكبر مجموعة من عضلات المعدة فى العالم كله، إن ضحكاتى استرعت انتباه السجان الذى جاء متباطئا لكى يعرف ماذا حدث. أشعر وكأننى دعوته ليأخذ حزمة من هذه العضلات غير الشاذة. ففوق هذه العضلات تلتصق الضلوع كل بطريقة بارزة، أشبه بضلع آدم الأصلى قبل أن يكسوه اللحم. ألواح كتفى وعنق الرحم محددين بوضوح، حتى يمكن غمسى فى صبغة ووضعى

على سطح مستو لعرض رسوم فى أى كتاب من كتب علم التشريح. لكن هنا، يتجمع تحت الصرة، حشو من العضلات الغزيرة الثرية المستعدة للدخول فى مباراة جامعية لدراسة المعدة.

لماذا أصوم، كلما تحركت نحو المواجهة التى يجب علىّ ألا أتراجع عنها، من الضرورى أن أكون صافى الذهن. لأن السبب يكمن وراء الخطابات التى شرعت أكتبها عند بداية هذه المبارزة الجديدة. ففى هذه الخطابات التى أرسلتها إلى حراس السجن، طلبت كتبا وأدوات كتابية، وملابس بدلا من الهلاهيل التى أرتديها فوق جسدى. طلبت أيضا وضع نهاية لهذه العزلة غير الإنسانية.

فى مارس ١٩٦٩ مكثت فى السجن ثمانية عشر شهراً. منها خمسة عشر شهراً هنا فى كادونا بمفردى فى عزلة. وفى ديسمبرمن العام الماضى تم توقيع قرار بالإفراج عنى. كما أعرف، لأن معلام المحقق فى لاجوس جاء ليرانى.

بالطبع كان اللقاء غريباً. لم أتحقق من وجهه فى البداية. لقد أتى، كما أتذكر، فى النصف الثانى من ديسمبر فى صحبة كبير المراقبين ويوليفيموس. قال لى: لقد أحضرت شخصا ما يريد أن يراك ودخل الزائر: إنه معلام د.

"كيف حالك؟ كنت فى طريقى إلى كانو – لقد نقلت إلى وظيفة هناك. ولكن علىّ بعض الواجبات التى يجب أن أؤديها هنا، وفكرت أنه يجب ألا أترك المكان قبل أن أقول لك أهلا بك".

لا أتذكر كيف أجبته ولكنها كانت إجابة ودودة.

"عمومًا فالأحوال أفضل الآن... وسوف تكتشف هذا بنفسك في وقت قصير، الواقع أنني هنا الآن أتفقد أحوال المعتقلين، لقد أفرجت عن بعضهم بالأمس، واليوم سأفرج عن عدد أكبر من الأمس. لقد أفلت الزمام من بين يدي. حسنا، أنت تعرف أن السجون أصبحت تفيض بالمساجين. هكذا يصاب كثير من الأبرياء بالبلاهة لتعطلهم. على أي حال، اسمع يا وول، حاول أن تنسى كل شيء حين تخرج من السجن، فهل ستفعل؟ اعتبر هذا شيئًا مما يحدث في وقت الحرب. لم أشأ أن أصدق ما سمعته بوضوح وراء كلماته، ولا التأكيد الذي استطعت أن أقرأه في وجه المراقب الكبير، الذي يبتسم في بهجة خالصة. حتى يوليفيموس، أشرق وجهه بالابتسامة. في كل جزء منه. قلت" بعض الأشياء ينبغي على الإنسان أن ينساها، ولكن لا أتوقع أنني أغفرها أو أنسى أنني مسجون.

"أنا لا أطلب ذلك...". وأضاف المراقب الكبير بشغف

"لا، لا، بالطبع لا. لا أحد يطلب ذلك لأنه ليس أمرا سهلا".

فجأة تساءلت عن D. لم أتوقع إجابة ولكنني أستطيع على الأقل أن أقرأ وجهه. سألت D. هل تعرف لماذا سجنت أنا؟

بالنسبة لـD فقد حصل على أعظم نعمة فريدة كرجل بوليس، كان يمكنه أن يرتبك بشكل واضح. لقد أظهر مشاعره العاطفية كإنسان عادي.

خصوصا هذه المشاعر التى تبدو وكأنها تنبــع من عدم ارتياح أخلاقى. لو أنه كان أبيض البشرة لأحمر وجهه خجلا. لقد انفجر فجأة فى هجوم مضاد. "لكن لمـاذا حاولت أن تهرب؟ أنت لا تعرف كم كنا نشعر بالمرارة، وخيبـة الأمـل!"

لقد نظرت إليه باهتمام جاد. لقد صدق ذلك. لكننى اجتزت من وقت طويل مرحلة الرغبة فى استنكار تلك الأكذوبة. لم أعد أتقبل أخلاقيات القاهر المستبد. فأجيب" لتفترض أن هذا حقيقى. وأن لى الحق الأخلاقى فيـمـا يجب أن أتـخـذه من إجـراءات ضـد نظام منحط أخـلاقـيـا يسـمـح بسجن رجل برئ. لو أن الهروب كان ممكنا لجعلته أول واجباتى. والآن، أجبنى، هل تعلم لمـاذا وضعت أنا فى السجن؟"

قال: "كانت الأمور تسير سيرًا حسنا. وظننا أن كل شىء على ما يرام، ثم تدخل السياسيون فى الأمر".

"السياسيون؟"

"أوه، وول، أنت لا تـعـرف مــا الذى يجب أن نتـدبره. إننى سـعـيـد لخـروجى من لاجـوس. قـبل أن أذهـب على الأقل، لم أكن أسـتطيع أن أكشف شيئا مما كان يجرى هناك. لو عُرف كم كان عدد السجناء الذين أفرجنا عنهم مؤخرًا، فى لاجوس وفى السجون الأخرى، إنه الآن فقط قد وجدنا الوقت للنظر فى هذه القضـايا، أقصد، المئات والمئات، مـعظمـهم هنا. ولا أحد يعرف لمـاذا؟ ليس لهم ملفات. لا أحد يعرف شيئا عنهم فى

أقسام البوليس أو فى الجيش بخصوص هذا الأمر. "شوف، لا داعى لمناقشة هذا الأمر.... فقط حاول أن تنسى كل شىء".

"وهو كذلك".

"لقد انتهى كل شىء، الآن - حسنا، وسوف ترى بنفسك. لكن أرجوك حاول وانس".

لقد رحلوا. أما أنا فقد بقيت حيث كنت، الزيارة، وكلماته، وسلوك موظفى السجن.... شعرت أننى لم أكن أمينا. ليس فقط مبالغا فى الحذر، لكن بوضوح، لم أكن أمينا حين رفضت قبول المعنى الواضح لكل هذا. لقد أغلق الحارس البوابة خلفهم وجاء نحوى منشرحا.

"هذا حقيقى. لقد أفرجوا عن حوالى أربعين سجينا بالأمس، وذلك الرجل وبعض الآخرين من أمن كادونا يقومون هنا بوظيفة المراقب، ويفحصون سجل كل معتقل. فى الحقيقة. أنا لم أشأ أن أخبرك بذلك من قبل. قال الرئيس بنفسه هذا الصباح إن ملفك وصل. سوف تخرج بعد يومين أو ثلاثة..؟"

ذلك معناه، بكلمات واضحة، الحرية.

لقد تعلمت من الأزمات السابقة أن أسيطر على نفسى، لقد أحسست بالانفعال قد أوشك أن يتسارع. فجمدته عند المستوى العادى "اثبت، كن هادئا امحُ شبح هذا الصباح. لكن المراقب الكبير عاد. لقد شعرت

فى نفسى بعاطفة حب لهذا الرجل الذى. أفاض شعوره بالسعادة فأغرق الآخرين دون خجل. كان يحمل صحيفة اليوم فى يده.

"سوف تشغلك هذه الصفحات فى فترة الانتظار" وقف بعض الوقت ثم ظهر عليه الوقــار"، مســتر ســوينكا "كل ما أريد أن أقــوله هــو، أن تسـامحنا. نعم، سامحنا حتى من أجل السجن. سامحنا بكل ما فعلناه وكل ما فشلنا فى فعله، بسبب عجزنا عن مساعدة أنفسنا وحجزناك هنا".

أغرورقت عيناه بالدموع.

"أنت تعرف - ويمكنك أن تسأل الرئيس فهو الوحيد الذى أطلعه على سرى، أنا أثق به. قد يكون غير متعلم، لكنه رجل حكيم. إننى أناقش الأمور معه حتى تغلبنى الحيرة. وقد أخبرته بذلك، بعد وقت قصير من قيامى بالعمل هنا. كل ما عرفته عنك كان مما قرأته فى الصحف، ومن التقارير التى يرسلها المركز الرئيسى. إننى متأكد أن هذا الرجل برئ. اسأله قبل أن تتركنا، سوف يخبرك بهذه الحقيقة. فأنت تتذكر أننى جئت بنفسى لأسأل عن قصتك بعد شهرين من استئناف عملى هنا؟ حسنا، كان فى اليوم التالى الذى استقر فيه رأيى على أنك برىء. أظن أننى قد قلت لك فى ذلك اليوم، أننى أصدق قصتك. لم أقل شيئا عن الأسباب الخفية وراء ذلك سوى وقائع استجوابى لك". فى هذه الوظيفة يتعلم الإنسان كيف يدرس البشر، وليس فقط المجرمين.

كل السياسيين الذين سجنوا خلال أزمة الجماعة بما فيهم (أولوو نفسه)، قد مروا عليّ فى وقت أو آخر، واستطعت أن أتعرف على المخلصين، والانتهازيين الذين وجدوا هناك حبا فى المغامرة والإثارة السياسية - وهكذا. فالإنسان يعرف بعض الشيء عن الطبيعة الإنسانية. بصراحة، لقد اقتنعت أنك لم تكتب أبدا ذلك البيان. هذا هو السبب الذى جئت لأسألك من أجله. لكنك تعرف أننى شعرت أن هناك خطأ أساسيا قد حدث فى مكان ما. أنا لم أصدق أن أى أنسان فى مركز رفيع مسئول يقبل أن يزور اعترافا كاذبا. لابد أن أعترف بذلك. لقد شعرت بأن الأمر كله ناتج عن خطأ. وواصل قوله "حتى الآن، حتى لو أننى لم أسمعها مباشرة من معلام D".

توقف ثم قال "يجب أن أعود إلى المكتب. هل تريد أى شيء؟ أظن أنه من الأفضل أن نرسل حلاقا. فشعرك طويل - هل حدث أن حلقت شعرك منذ أن أتيت إلى هنا؟" هززت رأسى "شمشون فقد قوته بهذه الطريقة، ثم ضحك. هل تريد واحدا الآن؟ الدنيا أصبحت غابة يا مستر سوينكا".

قلت: ليكن، أرسله، الذى فكرت فيه فى تلك اللحظة ويا للغرابة لم يكن شعرى، بل وجهى فأنا لم أنظر فى المرآة لمدة عام أو أكثر. وأن الوميض الذى جاء عند ذكر الحلاق كان شكل شخص فى زى سجين يقص شعر سجين آخر، وأن ذلك السجين يراقب تقدم الحلاق بدقة فى مرآة. ربما كان ذلك آخر مشهد رأيته قبل دخولى فى الزنزانة. لقد غمرنى حب استطلاع مفاجىء لكى أرى وجهى.

"سوف أطلب من الرئيس أن يرسل لك حلاقا فى الحال. وملابسك؟ لابد أن هناك بنطلونا احتياطيا فى المخزن".

سوف أرى إن كان نظيفا. فإذا لم يكن فسوف يتم غسله بسرعة. بأفضل طريقة "سوف أبحث لك عن بعض المجلات القديمة وأعطيها لك أيضا".

انصرف. وأخذ الرئيس مكانه بعد وقت قصير، ملقياً إليه بابتسامات طولها سبعة أقدام وغمزات ماكرة وإساءات أكثر صراحة وظل يكرر. "فى بعض الأحيان يبدو أن الوقت لا نهاية له. إلا فى اليوم الذى يسمع الله فيه الجميع، اليس كذلك؟".

أومأ الحلاق برأسه. لقد جهز كل معداته. وضع يوليفيموس الكرسى أولا فى ركن ثم فى الركن التالى. وسأله. هل حرارة الشمس شديدة هنا؟ لا. أظن أن هذا المكان أفضل؟ أخيراً انصرف: نعم، ليس كذلك. فجأة فى يوم ما فى يوم ما".

جلست على الكرسى، وشعرت بقماش أبيض تحت ذقنى، مربوطا بمؤخرة رأسى. وتوصلت إلى المرآة ببطء وأدرتها ونظرت إلى وجهى.

كان منظر شعرى لا يصدق. كنت قد أعددت نفسى لذلك، ولكنه فاجأنى، كان طويلاً وغزيراً. وتساءلت كيف تمكن مشطى من اختراقه لمدة طويلة. أخذت المشط من الحلاق وقلت "من الأفضل أن تتركنى أفعل هذا بدلا منك".

لكنى حتى وأنا أمشطه كنت أنظر إلى وجهى فى المرآة. تسمرت عيناى على المنظر، لأننى لمحت فيها ما يهمس فى عقلى، منذ أن سمعت أول إشارة للإفراج عنى. شكوك وشكوك أعمق. الأمر لم ينته بعد، وأن المرحلة القادمة سوف تكون أكثر صعوبة بسبب هذا الأمل الكاذب.

لقد وضعت المرآة، وفككت القماشة من حول رقبتى وقلت "سوف أترك شعرى كما هو".

عدت إلى زنزانتى واسترخيت على سريرى. لماذا؟ فقط الحذر؟ لا، لقد ازداد عمقا. لم أستطع أن أحدد ذلك، لا ولا أحد يمكنه أن يفعل، لكننى عرفت أننى لن أستطيع ترك السجن فى عيد الكريسماس.

"التعبيرات الخاصة بإطلاق سراحى من السهل التنبؤ بها - إعفاء بمناسبة عيد الميلاد".

وكذلك جزء من العقل كان يفكر من الناحية الإنسانية فى اتجاه آخر. لو أنهم أطلقوا سراحى ماذا سوف أقول أو أفعل؟ أيا كان الذى عرفته، فالواجب على أن أصب احتقارى على مساخر عيد الميلاد. خطر على بالى مشهد وسمعت نفسى تصرخ بغضب حقيقى: "أتمنى أن تكون هذه آخر مرة يحاولون فيها تمثيل بابا نويل مع العدالة". وجعلنى هذا أكثر هدوءا. بعد ذلك أغلقت جانب التفاؤل العقلى وانشغلت بالتفكير فى كيفية الحياة فى عزلة مستمرة بعد تسرب هذا الضوء العنيف.

لقد أتى حارس المخزن. نعم هذه هى بنطلوناتى وقمصانى؟ هل تراهم معلقين هناك؟ نعم أغسلهم أو كومهم فى الصرة كلها. أنا لا أهتم.

الزنزانة مليئة بإنذارات كاذبة. الأمين الذى أحضر طعامى نظر إلى كرجل معزول، كائن ممسوس ومميز بعصا سحرية من آلهته المفضلة. تعقبه السجان كالعادة لكن هذه المرة، بدون مراقبة شديدة على الاتصالات السرية، كأنها صادرة عن رغبة فى الاعتماد على العناية الإلهية، وعلى الصبر والعدالة والشجاعة، بالإضافة إلى عدد من البنود فى تقواه غير المفهومة. عندما انصرف حاولت أن أتناول طعامى لكنى لم أجد شهية. لقد اشتدت المحاذير فى كل ثانية.

نهاية الوردية الصباحية. هرع اثنان من الحراس إلى داخل الساحة وهما اللذان اعتادا المجئ للسرداب فى حالة الإغاثة.

"عندى إجازة من الخدمة غدا يا سيدى. فقلت أن أقول لك وداعا خشية ألا أراك حين عودتى: قال الثانى نحن جميعنا سعداء جدا لخروجك. لكن إلى اللقاء. والله يرى كل شىء"، وجاء الحراس المختصون منذ وقت طويل فى السابق. الذين خدموا أسبوعين أو ثلاثة، أحيانا أربعة أسابيع أو شهورا، ثم اختفوا. لقد ظننت أن هذه التغييرات المتكررة ما هى إلا احتياطات أمنية. قد اندفعوا سريعا لمصافحتى، قائلين، أنت تعرف لماذا لن نراك ثانية؟ نحن لا نحب هذا المكان أبدا. الإنسان

يمضى ثمانى ساعات هنا لا يفعل شيئا، مع السجناء الآخرين نستطيع أن نتكلم وأن نلعب، ولكن هنا نحن فى حبس انفرادى. لذلك فإننا جميعا نطلب نقلنا إلى القوة الخارجية".

ثم ذهبوا. هناك ساعة من الهدوء بعد الظهيرة فى نهاية وردية الصباح. فالمساجين محجوزون فى زنزاناتهم فى سلام وسكون. تركت نفسى تنجرف فى هذا الصمت لتواصله لأسابيع وشهور. يا ليتنى أنقل إلى مكان آخر! مكان جديد، رائحة جديدة، مناظر جديدة بيئة جديدة.

نداعب أوهام النجاة. نعم، ربما ينبغى على الإنسان أن يتجه إلى هذا. خلال نزهتى القصيرة صادفت فى الطريق إلى المستقبل، رحلة من المعاناة لاعلاج لها، انتشار فطريات رمادية تعد المسكنات ذاتها أعراضا لهذا المرض. لا يوجد خلاص، نهائياً، من هذا الملل الخبيث لا جديد يشد انتباه الإنسان بعيداً عن التأمل فى هذه الهاوية. الشهور الاثنى عشر الأولى استهلكت ما هو أكبر من القوة الإبداعية للعقل الذى لا يتلقى غذاء من مصادر أخرى.

كان يوليمفيوس أول من ظهرت عليه الحيرة. لقد جاء يتجول فى جولة تفقدية. بثقة العالم بأننى سوف أخرج. كانت عشية الكريسماس وكان متأكدا أننى سوف أقضى عيد الكريسماس فى منزلى. لقد تخيل رحيلى بنفس الطريقة التى جئت بها فى طائرة خاصة تهبط بى فوق بقعة خضراء أمام منزلى فى عشية عيد الميلاد نفسها. جاء فى الصباح ليودعنى وتمنى لى حظًا طيبًا، والآن اقترب حلول الليل وسمعته عند البوابة،

فى حيرة لأنه وجد حارسا لا يزال واقفًا أمام السرداب، والسجين ما زال منتظراً.

حك ذقنه بغضب إلى حد ما". على أية حال، لا تهتم، فعيد الميلاد لم ينته بعد، ستذهب إلى بيتك غدا. يوم واحد أنا متأكد. أتوسل إليك، ألا تبدأ فى القلق مطلقا، وقت قصير وستصل إلى بيتك. سوف تذهب. لا هذا الإحساس الخاطىء. أنا لا أظن، أن رجال البوليس، أنفسهم غير مفيدين".

فى عيد الميلاد لم يأت أحد إلا الحارس فى خدمته، ورأيت الدهشة على كل وجه. بداية الشك. ثم المواساة. التى طالما رفضتها.

مباراة الملاكمة يومى ٢٧، ٢٨. بدأ الوجوم يختفى من وجوه هيئة العاملين الذين أصبحت المسألة شأنا خاصا بهم. فكلما اقتربت بداية السنة الجديدة ازدادت شجاعتهم. لابد أن الإفراج تحدد له فى بداية العام الجديد. رغم كل شىء، فالعفو. واضح "عيد السنة الجديدة".

"إنك لن تقضيه فى كادونا".

المراقب الكبير ظهر من جديد

لقد ظهر كبير المراقبين من جديد فى اليوم التاسع والعشرين منكسر النفس." كل ما أعرفه هو أن تعليمات الإفراج عنك قد تم توقيعها. رجال الأمن أخبرونى بأنفسهم لقد سمعت بنفسك؟ أليس كذلك؟" كان صوته يطالب بالبراءة".

قلت: نعم، لقد سمعته.

هناك رجلان تم إرسالهما بالأوامر من لاجوس. سمعت أن هناك عقبات عن كيفية رجوعك إلى لاجوس. أظن أنهم عجزوا عن الحصول على طائرة. أيا كان الأمر، فلندعهم يفرجون عنك رغم كل شيء، فأنت تستطيع أن تجد طريقك للعودة. لماذا لا تبدأ في الاستمتاع بحريتك الآن؟

لقد جاء دورى لكى أواسيه. "كلما طال زمن السجن ازدادت حلاوة النهاية. لا تقلق فسوف أخرج فى يوم ما".

ليس فى يوم ما. إننى متأكد أنك لن تكون هنا فى عيد رأس السنة الجديدة. نفس الشيء أجده مقلقا" وفجأة ارتفع صوته محتجا... نحن نريدك أن تخرج يا مستر سوينكا. صدقنى نحن نريدك خارجا من هنا أكثر مما تريد أنت؟ لا تسئ الظن بى. فنحن نحبك. كنت أتمنى لو أننا تقابلنا فى ظروف أفضل. وأنا آمل بالتأكيد فى أن نلتقى ثانية. لكنك أكثر الشخصيات إزعاجا بالنسبة لأى ضابط سجن يأمل فى أن يجدك ضمن مسئوليته. أنا لم أتسلم فى حياتى كلها مثل هذه المذكرات الكثيرة بخصوص رجل واحد. مذكرة من المركز الرئيسى، مذكرة من البوليس، جواسيس سريون من كليهما، شائعات. اتهامات. ببساطة أنت لا تعرف ما هى. أنا لا أستطيع فعل شيء. لا أستطيع أن أقدم لك حتى طبقاً جديدا قبل أن أبلغ القيادة الرئيسية. وبالطبع لا أتلقى أى إجابة.

وإذا حصلت فإنهم يعرفون عنها وتجرى مساءلتى. صدقنى فى وقت من الأوقات فكرت فى التقاعدأو طلب النقل. كان التوتر فى تصاعد كبير شديد. عندما تترك هذا المكان هنا سوف نعود إلى الروتين المعتاد. الروتين المعتاد! لو تعرف كم أود أن أراك سريعا خارج هذا المكان".

لقد جاءت عشية السنة الجديدة ورغم أننى أوصدت الأبواب لكى أمنع أى بصيص من الأمل للدخول إلى قلبى. ، فقد ضبطت نفسى أنصت إلى وقع أقدام، تشير إلى فتح بوابة على بعد عدة ياردات. أجاهد باستماتة لكى أسمع أى صوت من المكتب البعيد أو من بوابات السجن الرئيسية.

عندما انتهى كل شىء، عندما انتهت فترة الرحمة، نهائيًا، وبطريقة محددة، كنت شاكراً لتوقف هذه العلاقة عن طريق هذه الإنسانية الجديدة المفعمة. يوليفيموس فقط يأتى من وقت إلى آخر. كنت أسمعه عند الباب يعطى التمام" كل شىء على ما يرام؟ ويتلقى الإجابة.

"كل شىء، تمام، ياسيد". بمجرد أن استجمع شجاعته لكى يقترب من الزنزانة، أظن أن الرغبة فى أن يرى كيف أنظر إلى الأمر الآن. تحرك كأن شيئًا ما قد شده إلى ما وراء مدخل زنزانتى، وبعد أن قام بعمل ضوضاء وفحص ذلك الشىء. وهو فى طريق عودته يبدو أنه قد عقد العزم على أن يتحدث معى. كنت مازلت مستلقيًا أنظر إلى الشبكة. تردد، ثم تلعثم وفر هاربا.

بعد مرور الأيام الثلاثة أو الأربعة الأولى، توقف مجئ الصحف. للمرة ثانية، تم إغلاق العالم الخارجي عنى. لم يعد هناك سوى أن تمتد الأيام مستقلا. لم أستطع أن أبين أى تحديد أو علامة. رغم تذكيرى لنفسى بدقة فطنتى، وبالرغم من الاستعداد الذى زودتنى به رواسب من أمل محترق بدرجة كافية لتوليد اليأس.

كم من الوقت أعد نفسى له؟ سنة؟ وكلها فى عزلة؟

ليس فى ظل نفس الظروف السابقة. أريد ملابس، وأريد شغلة. أشياء يجب أن أحصل على أدنى احتياجاتى كإنسان! لقد مر السجان بى. صحت بصوت مرتفع. إنه خطأ. السؤال هو إذا كان يمكن لى أن أحتمل ذلك أم لا. الموضوع هو، هل ينبغى على أن أحتمله؟ إذا كان الحد الأدنى للمُطالب، حاجة مضمونة لمجرم محكوم عليه، ثم إن إنكار وسائل طريقة استخدامى لعقلى هو نوع من التعذيب. أن تطعم جسدى لكن أن تنكر عقلى فهذا تحقير متعمد لإنسانيتى، إن تقبل هذا بوداعة هو نوع من البلادة. وإن تقبل بصورة مستمرة هو أن تقبل أن تخاطر بنهاية لا يمكننى أن أتنبأ بها. إننى فى حاجة لتبادل أفكارى، ليس فقط مع نفسى، بل مع مجتمع من عقول مختلفة. لا يمكننى أن أنحصر فى اجترار أفكارى فقط. إنه أمر سيئ. هؤلاء الشياطين تخرج بعقلى خارج نطاق التسامح الإنسانى.

يجب أن أتخلى عن الاعتماد على نفسى. يجب على أن أخرج من السجن العقلى الذى حبسونى فيه.

طلبت قلما وورقا، وكتبت أول خطاب عن احتياجاتى فى السجن. كتبت للمرة الثانية أطلب كتبا وأدوات كتابة، طلبات وملابس وعلاجا خصوصا لعينى ووضع نهاية لعزلتى أو نقلى إلى سجن آخر... لقد أصبح الطلب الأخير حاسما فى تفكيرى بسبب آخر. بعد ضياع أملى فى الحصول على الحرية، عرفت أنه حيثما كنت محاطا فى وقت سابق بمزيج من الخوف، والعداء، والريبة، وهو الشرط المناسب لتقوية إرادة المقاومة، أنا الآن محاط ببركة من الحنان سوف تنتهى بالقضاء على. رأيت عزيمتى تضعف، ورأيت قبولا متزايداً واستسلاما لقدرى، رأيت نفسى منجرفا إلى داخل شرنقة من الحب والشفقة، لكن لا حول لى ولا قوة. حنان أناس عطوفين لا سلطة لهم. غير قادرين على إصلاح، ليس هناك شىء أخبث تدميرا للنفس من هذا. أريد أعينا من الكراهية والخوف تحيط بى لكى أظل يقظا. فإذا تحتم على أن أختار مواصلة استكشافاتى للنفس، داخلا مرة بعد مرة فى تلك المنطقة التى تهيئ ظروفا ملائمة لإطلاق سراحى، عائدا لمناقشة وقائع الألم والظروف المؤقتة. كان من الضرورى الحصول على دليل صلب لعودتى إلى الأرض، نزعة الحيوان إلى القسوة فى عيون المأجورين، سرعة بعض العقول فى اختلاق ما يعادى الإنسانية. أولئك المحيطون بى تحولوا إلى مكوكات مليئة بالذنب، فى انتظار أن يخففوا محنتى بما فى أيديهم من إمكانات مادية لمساعدتى. لا يوجد سوى القليل فى محيط حركتهم. والعطف بديل هزيل لأنه يستطيع فى النهاية أن يفتت الإرادة، لكن الكلمة هى السلطة.

وجاء الرد بعد مرور شهر على الأقل، لكن المراقب لم يرنى ذلك الرد ولكنه استشهد بعبارة منه. لقد استرعت تلك العبارة انتباهه، لكنه لا يعرف سبب ذلك بوضوح. كانت نبرته مليئة بالاحتقار والبهجة. فكرت ما عسى أن يكون هؤلاء الناس؟ وكيف جبلوا؟ لم تكن لهجة الشخص يمارس التعذيب بل نقمة لشخص المفوض بعمليات التعذيب. موظف حقود تأتى صلاحيته من سلطة تمارس على ملفات وأشكال عاجزة. إنها نغمة سوداء توحى باليأس من الناحية الإنسانية، وصغيرة حتى إنها أعطت وميضا. إنه شاب فى مثل سنى تقريبا له وجه نحيف، وشعره ينسدل قليلا على صدغيه. بشرته شديدة السواد وأصابعه طويلة تنتهى بأظافر مقوسة كالمشبك. انتهى الوميض لكننى كنت مستمرا فى تصويرى له، وهو يمسك باحتجاجى فى يده ويقهقه بنفس راضية. رأيته يندفع فى خنوع نحو رئيسه متشفيا، سمعته يقول "أظن أنها بداية الإيقاع به يا سيدى". أما رئيسه فقد صفعه على ظهره وتركه بعبارة ملائمة للرد عليه.

ولكن كان هناك شىء ما – مفرط. شىء ما لم نطلبه كلية، غير مبرر بتلك النغمة. كانت هناك مشاعر فرح لم تخرج عن حدود اللياقة، لكن يبدو أنها استحضرت بدون سبب. لم أستطع فى بداية الأمر، أن أفهم معنى كلمة يشتاق. لم أستطع أن أفهم أن ذلك هو حق السجانين فى استخدام هذه الكلمة. أصبح استحواذاً صغيراً مماثلاً للإذلال، لقد نظرت إلى المراقب الكبير، لكن ملامحه فضحت شرحه، فسألته:

"هل أرسلت خطابى أو أنك أضفت للخطاب توجيها من عندك".

لقد كتب خطاب توجيه وليس فى هذا أى خطأ، لكننى رأيت أى نوع من الخطابات كان يكتبها. تذكرت ثانية نظرة عينيه عندما زارنى لأول مرة فى زنزانتى. نظر إلى أسفل وركز عينيه على بنطلونى الجينز المهلهل الذى ارتديته الملئ بالخروق والرقع. ولم يكن القميص أحسن حالا. رأيت فيه إنسانية كبيرة فى تلك اللحظة، واستطعت أن أقرأ كل كلمة غامضة فى خطابه، وصفا باكيا لحالتى والتماسا بإصلاح الأمر.

ثم واصل كلامه قائلاً "ليست المرة الأولى التى أكتب لهم فيها. لقد كتبت لهم منذ أن شكوت بعينيك. بل إننى تحدثت إلى مسئولى الأمن هنا لكى يأخذوك إلى المستشفى ولكننى لم أتلق ردا" هذه هى المرة الأولى التى أتعبوا فيها أنفسهم بالرد".

إن هؤلاء الرجال ليسوا فقط أشرارا، بل هم روح الشر المتجسدة فى شكل بشرى، فيجب على الإنسان ألا يقع فى أيديهم، بل يسعى للحصول على القوة لتدميرهم. إنهم عبارة عن قيح، عفن الموت فى أشكال حية. لقد أصابوا كل من اتصل بهم. بهذه العدوى ومن هذه العزلة، هنا أشم رائحة فساد العقل فى رنين كلماتهم، إنهم يربون أنفسهم، أنماطهم، والتفسير الذى يطرأ عليهم كطفرات. فالسعى إلى القوة من أجل تدميرهو مهمة أخلاقية.

وفى شىء من الغموض، كان بحثًا محمومًا للوصول إلى هذا الهدف، شىء لابد أن نجريه حتى لو خاطرنا بالحياة. يجب على أن أصل إلى

تلك الدرجة حيث لا يمكن أن يمس عقلى أو جسدى أى أذى، أتحرك إلى ما وراء هذه العقول الصغيرة وإمكاناتها، لتثبيت كيانى فى التربة أو الوصول إلى ذلك. لم يكن الصيام وحده، بل تركت نفسى تتجول بحرية بحثا عنهم، وتعلم كيف أدمرهم عندما يحين الوقت.

إن الدخول إلى هذا الصراع فى حدود المساحة المتاحة لى داخل هذه المعركة، معركة الإرادة، كان سببه أننى كنت متأثرا بالحاجة إلى إضفاء شكل ملموس عليها. لابد أن يكون لها مقدار كمى، ليس فقط عملا بطوليا محتملا (قد يؤدى انهياره الحاد إلى ضياع فرصة الاختيار وإهدار الكرامة كتغذية إجبارية. لو أننى استطعت الإسراع بهذا السلوك لكى أتحاشى أعراض الانهيار ماسكا جسدى بطريقة هادئة حتى يعتاد على القليل فالأقل حتى يصل فى النهاية – إلى لا شىء. وبانغلاقى داخل مدار سلطتهم يمكنهم أن يفعلوا بى الكثير لو أصابنى الفزع. وسألت فجأة عن كبير المراقبين كشخص فى تلك الورطة).

"أرسلت فى طلبه وسألته. ماذا كنت تود أن تفعله فى ذلك الوقت لو أننى تجاهلت التماسك بتأجيل الصيام".

أجاب بعد كثير من التمتمة (لست متأكداً من حقيقة ما كنت سوف أفعله. بالطبع كنت سأستمر فى التوسل إليك".

هل كنت ستجبرنى على تناول الغذاء؟

"كان ذلك يعتمد على رأى الطبيب. بالطبع إذا وصلت إلى الأمور أقصى حد فسوف أستدعى الطبيب، فإذا قال إنك يجب أن تتناول غذاءك...".

قلت "إننى سوف أصوم".

" ليس كالمرة الأخيرة من فضلك. لا أريد أبداً من إنسان أن يضيع على هذا النحو، لا تفعل ذلك أبداً. إنه شيء خطير. كنت أتمنى لو أمكن أن أحدثك عن الإسلام. فالقرآن يعظ الناس بأن الحفاظ على النفس هو القانون الأول للإنسان.

"وأنا حين أطلب شيئاً أطلب مطالب، أقل مطلب من أجل حياة لائقة، أليس هذا أيضا من دواعى الحفاظ على النفس؟"

"لقد فعلت كل ما يمكننى وأنت تعرف ذلك".

أكدت له ثانية أننى أعلم ذلك".لكنك سوف تعلن أنه ليس فى سلطتك أن تفعل شيئا من أجلى".

حتى وأنا أتحدث معه نزل علىّ الإلهام للقيام بفترة صيام تدريجى. أما هو فقد استمر فى طلب تأكيدات منى، على ألا أتركه دون أن أعده بعدم تكرار الصوم الانقطاعى مرة أخرى. أكدت له العكس، ليس كبداية، ولكننا قد نجد أنفسنا نتجه بسهولة نحو ذلك.

الفكرة التى راودتنى كانت فكرة بسيطة. سوف أمضى الأسبوع الأول بدون طعام، وفى الأسبوع التالى يومان والتالى ثلاثة... حتى الأسبوع السابع ثم ماذا؟

هذا هو الأسبوع الخامس واليوم الأخير فى دورة الصيام، إننى ملتزم بخرق الأمن الذى ينذرنى يوميا قبل اليوم السابع، آخر مرة فى الصيام المستمر. لقد وعدت نفسى بذلك. هناك شخص بالخارج يجب أن يعلم أن هذه المواجهة قائمة الآن. وإلا لو أثبت هذا الكورس خطورته على الحياة. فسوف يخرجون صورة نحيلة من ثقب بكتلة صلبة غير متجانسة للمعدة، حالة حمل غير محتملة سوف يتم تشخيصها على أنها التهاب فى المخ.

الفصل الثلاثون

انطلقت صفارات العربات فى حوالى الساعة الرابعة أمس. تتبعت الأصوات وخططت للقيام بتحركات فوضوية جيئة وذهابا. لا يبدو لها اتجاه محدد، وقد ظللت لوقت طويل أسلى نفسى بما هو متاح حولى من إمكانيات. لم تكن أبواق إنذار أو كوارث طبيعية. فلم يكن شعب بيافرا قادما لغزونا بل على العكس تماماً، كان الإحساس بالتخبط وسقوط القنابل. وقد تساءلت ما عسى أن يكون هذا. هل هى شخصية أجنبية رفيعة المستوى؟ أم هى منظمة الوحدة الأفريقية؟ وكان تقديرى بأنه ربما يكون ذلك وفدا من إحدى اللجان، أو شيئا ما مثل هذه المصائب البروتوكولية. البعض منهم جاء عبر الطرق البرية والبعض الآخر جاء جواً، وهناك من تقطعت بهم السبل وتشتتوا فى عرض البلاد. يبدو هذا معقولاً. فلم تكن أصوات الصفارات ترشدهم إلى مراكز الإنقاذ والحماية فقط، بل كانت تحذر المواطنين من وقوع المدينة فى يد حماة السلام بحجة هذا الغزو. الأبواق بالنسبة لنا تساوى هدفا وتعطى معنى الاتجاه. ورغم كل هذا فإن العربة تتحرك من لامكان إلى مكان ما، وإذا حدث تدرج للصوت

فى الارتفاع ثم فى الانخفاض، فهذا يعنى أن الاتجاه أصبح ملموسًا ومن ثم يتم ضبط إيقاع الحياة جيدًا فى هذه الأمة.

إن سيكولوجية الصفارات تحولت إلى نظام من أكثر الأنظمة إكراهًا، ليس فقط هنا بل تقريبًا فى كل دول القارة الأفريقية الشقيقة، فقد استطاع بلطجية باندا أن يجعلوا المخاطر والعقوبات البدنية المتضمنة فى تقديس الأبواق شيئًا لا ينسى. شاهدت النسخة السنجورية المفصلة برقة ونعومة واضحة فى موكب سنجور على طريق داكار. وعلى المستوى المحلى، رأيت ذات مرة عند تقاطع الكاتدرائية الواقعة عند مارينا موكب يعقوب جوون وهو يتوقف فقفز حراسه وسحبوا سائق سيارة ورموه فى الوحل. هذا لأن عربته كانت بطيئة جدا ولم تستجب لصفارات الإنذار التى تأمرها بإخلاء الطريق. . لم يفهم ذلك قائدها المسكين ! فمن يجرؤ على عدم الفهم؟ لكن الوسائط الميكنة عمدا كثيرا ما تهزم الإنسان المفكر، لذلك، لم يكد يضع جسمه على المقعد ويحرك مفتاح الموتور بيده حتى هبطت عليه دوامة وأغرقته. أحمق! كان ينبغى عليه أن يترك سيارته البالية ويلوذ بالفرار. حدث هذا فى غضون الشهور الأولى التى كان فيها جوون يسعى لتعزيز ثقته بنفسه. فلم يحدث مثل هذا الاستعراض العلنى أبدًا فيمًا بعد. وقد مر موكب الزعيم فى عظمة وأبهة لاتشوبها سوى هذه الوقفة. وقفة لمدة دقيقة أمسكت بتلابيب المذنب المسئول و"أخفته" فى لمح البصر لعدة شهور، أما العودة – إذا كان محظوظا وقدرله أن يعود – فسوف يعود أكثر حكمة وأشد حزنا.

لقد انتشرت الأقاويل، بأن مساعد مفتش الشرطة كان فى طريقه لافتتاح مباراة كرة قدم بإطلاق صفارة البدء ومعه أربعة من الحراس وأربع عربات محملة بجنود مكافحة الشغب. وتقابل موكبه عند مدينة شاجامو بسيارة طبيب فى المستشفى الجامعى. كان قد أبطأ فى تشخيص هذا الداء اللعين (المقصود صفارات السيارة) فتوقف الموكب وقام البلطجية المجرمون ذوو الزى الموحد بالهجوم عليه وأوسعوه ضربا. وانتشر هذا الخبر. وو

عندئذ أخذت أشك أن هناك تنافسا غامضا على الشهرة، بين قادة النظم الديكتاتورية. وبالأخص الوصوليون منهم. كم ساعة أحتاج إليها لكى أنفذ من هذا الطريق، هل توقفت حركة المرور كلية؟ بين باندا، وموبوتو، وجوون. لا يوجد سوى اختيار ضئيل. لقد شاهدتهم وهم يتصرفون. أما سنجور، فهو طبقة خاصة وحده.

لم تكن أصوات الصفارات محل ترحيب فى استقبال أو توديع أى زائر لهذه الشواطىء. استمرت أصوات الصفارات طيلة اليوم التالى وحتى المساء، فخرجت أتمشى لكى أسأل الحارس عن المناسبة العظيمة، التى استوجبت هذه الضوضاء. غريب، للمرة الثانية كان وجهًا غريبًا.

"ألا تعلم؟ جوون يتزوج اليوم؟"

"خير له . هل سيتزوج اليوم أم أن هذه مجرد بروفة؟"

لا، سوف يتزوج فى لاجوس. هذه الحفلة من أجلنا نحن لأننا لن نذهب لرؤية الاحتفال فى لاجوس. وبعد يومين سوف يذهب لزاريا لعمل احتفال آخر".

أنا لا أفهم ذلك. هل هذه عادة محلية لم أسمع بها من قبل؟

"لا، ليست كذلك إطلاقا. فكل أعضاء الحكومة جاءوا هنا لحضور الحفل، وكل مجتمع لاجوس أيضا. لقد بدأوا يتجهون إلى لاجوس، ثم يأتون إلى هنا، وبعدئذ يذهبون إلى زاريا. جولة ليست كبيرة. سوف يأتى الجنود لعمل استعراضات فى الشارع هنا. لن تجد مكانا لقدم بين الجنود. الجيش فى جانب والقوات الجوية فى جانب، والبحرية فى جانب، وجنود مكافحة الشغب فى جانب آخر. هذا كل شىء. حتى السجناء سوف يجرى لهم استعراض خاص. اليوم هو يوم زيارة الجنود الجرحى وزوجاتهم بالمستشفيات.

وهل سيحدث نفس الشىء فى زاريا؟

"بالتأكيد. لكننى لا أعرف اليوم الذى يقام فيه احتفال بيافرا".

ثم قهقه وسار بعيداً. هذه نغمة جديدة. نغمة اعتراض عذبة ومتناغمة، مع موكب الزفاف ونغمات الأورج التى سوف تملأ كنيسة المسيح الشهيرة، حيث عرفت دون أن يبلغنى أحد أن احتفال الزفاف لابد أن يكون هناك.

تساءلت إذا كان أفراد النخبة المتميزة الراضية لم تسيء تقديرهذه الطبقة من الناس بعد كل هذا. هل هناك آخرون من هذا الصنف؟ بل هل كان الأشخاص الصامتون مثله؟

لقد أرسلت كلمة إلى زميلى الذى يتصل بى فى السجن قلت له أريد قصاصات الصحف عن كل ما يتعلق بالزفاف.

لكن قبل أن تصلنى قصاصات الصحف، جاء نفس الحارس فى اليوم التالى ومعه نسخة من جريدة "نيجيريا اليوم".

نظرة سريعة هنا. ألا تقولون إنكم تناضلون من أجل عامة الشعب. نحن هنا نعانى كل يوم. لقد طلبنا علاوة، ولم نحصل على شيء. لنا متأخرات، وقد وعدت لجنة ويلنيك بأنهم سيدفعون لنا، ولكن مرعامان الآن ولم نحصل على شيء. يقولون إنه وقت حرب وعلينا أن ننتظر. يقولون إن من واجب كل إنسان أن يقتصد. ونحن غير قادرين على سداد مصاريف المدارس لأولادنا، أو شراء الملابس المدرسية لهم. اليوم حرب، اليوم حرب لكن هذا الرجل أحضر مجتمع لاجوس كله إلى كادونا. إنهم يبعثرون أموالنا ذات اليمين وذات اليسار على الزفاف، فماذا يهمنى أنا من هذا الزفاف؟ الأفضل لى أن أذهب أنا لمضاجعة زوجتى.

لقد ذهب وجلس بالقرب من البوابة، ليحافظ على الباب مغلقًا. ذهب إلى هناك. "أنا لن أشرب كثيرًا اليوم ولن أنام أيضًا" وإذا سمعت صوتًا خبيء الأوراق تحت المخدة. وسوف آخذها عندما تنتهى من الكتابة.

أنا لا أقوم بهذا العمل كى لا أقتل نفسى. فأنا ذاهب للنوم اليوم. لكن إذا أمسك بى الرئيس وأنا أعمل هذا فسوف يطردنى من العمل..

تصفحت الجريدة ورأيت صورة بسيطة لمن يشعرون بالرضا. يحيط بها مجموعة تعرف بكبار الشخصيات المحلية بمن فيهم بعض الأمراء من أصحاب السلطة المطلقة. ولكن كانت هناك أخبارا أخرى أكثر أهمية فى ذلك اليوم. حتى الحارس لم يرها ولم تؤثر فيه. فقد سقط يومايابا. والعريس المنتصر يعلن هذا البند إلى الأمراء بالعبارات التالية: لسوء الحظ فإن سقوط يومايابا تأخر بضعة أيام، كما إنه كان مخططاً كهدية له فى يوم زفافه.

انتظرت وصول قصاصات الأخبار الخاصة بى. فهذا الخبر وحده هو الذى شد انتباهى الآن. وأريد أن أتحقق منه فى ضوء التقارير الأخرى. فقد يكون هناك خطأ فى الاقتباس. فيمكننى امتصاص غطرسة النخبة التى اندمجت فى المشهد الفاخر للزفاف، الذى لا أرى له هوية فى عمليات التاريخ المحيرة. فقد يمكننى أن أتجاهل البلاهة المتأخرة التى كشفت عنها، وهى الفساد المتعمد والمنظم لتلاميذ المدارس، الذين يسهل التأثير عليهم والذين نجد قدرتهم غير المؤهلة للتقييم قد تم استغلالها من قبل الأجهزة التربوية الوطنية، لإغرائهم بالتنافس على الحصول على الهدايا التعليمية من هؤلاء السفهاء المطمئنين. يمكننى أن أتغاضى عن الخنوع التنافسى الذى تتسم به حكومة ولاية لاجوس وسذاجة رئيسها، موبيلاجى جونسون، وهو بالفعل شخص محبوب ولكنه يسىء اختيار معاونيه.

والذى اعتبر من واجبه تخليد هذا العار، الذى يجب نسيانه عن طريق تغيير اسم أحد الشوارع الرئيسية، وأطلق عليه اسم شارع ياكوب جوون تكريماً للزفاف، يمكننى الضحك على واحدة من تلك النكات المرعبة التى يستعيض فيها التاريخ التشويش الدنيوى بالتفكير العقلانى والأحاسيس الإنسانية. أضحك على صورة جوون وهو فى استقبال مجتمع راق فى نادى جزيرته هو يقود الأوركسترا بسعادة بالغة، فى الوقت الذى كان يجرى فيه تدمير إحدى المدن النيجيرية - هناك يقف ياكوب نيرون جوون يلهو ويعبث فى المركز الرجعى للطبقات المترفة النيجيرية، غير مبال بينما كانت الأمة تحترق. كل هذا يمكن أن أتقبله وأكثر. حتى طباعة طابع تذكارى للزفاف. سنتان من السلطة وأغلبها تأريخ للإبادة الجماعية والكراهية الجماعية والدمار والحرب الأهلية، ومع ذلك، كان هذا الفرد فى عزلة شديدة، من الناحية الإنسانية. - ونشكر الله على الأقل - أنه قد أخذ مستحقاته العسكرية قبل ميعادها بأربعة شهور. ولكن الأدهى من هذا وبعيدا عن المحنة الإنسانية، فإنه يطبع ويوزع طوابع تذكارية لهذا الفساد اللامتناهى فى كل سفارات البلاد. ثانيا، فقد كان هذا الفساد يمتد بعيداً حقًا، ولكننى وجدت بطريقة ما أننى أستطيع أن أعلق عليه. يمكننى أن أراجع محدودية حيز الصراحة فى الحكم، والذى هو شأن رجال الحاشية الذليلة المحيطة بالسلطة، والذين يثبتون أهمية وجودهم - وهو إحساس محرج لمن يعانون الفراغ فى حياتهم - بتلميع وإبراز جوانب الإفراط والتطرف فى رئيس السلطة المركزية.

لكن داخل هذا الرجل فإن موت العقل والإحساس، تم تلخيصه فى الإيحاء غير البناء: الذى نجد فيه الاستيلاء على قلعة، بل وحتى الاستيلاء على قرية صغيرة، تدافع عن نفسها بالقوس والسهام فى وقت الحرب الأهلية، لم يكن بالنسبة له هو عدد أرواح القتلى من كلا الجانبين، ولا أعداد المشوهين والضحايا، ولا حتى المحنة الثقيلة والقرارات المقلقة الخاصة بالتضحية الإنسانية إلا هدية الزفاف!. ليس إلا تمجيدا لعلاقة شخصية بينه وبين شخص غير معروف، كمية غير ذات صلة. لا شيء سوى عقلية ملكية إقطاعية يمكنها أن تحمل مثل هذا الاستخفاف. لاشيء سوى خمرالسلطة المسكر، الذى جعله يطفح بكل هذا القيء على التضحيات الوطنية كلها.

أنا مدين كثيراً لزفاف جوون. فقد جاء الحارس فى ذلك اليوم متأخراً ساعات عن موعده من أجل الجريدة. سلمتها له لكنه كان فى انتظار تعليقات منى.

نظرت لأعلى وضحكت "حسنًا ماذا تتوقع منى أن أقول؟"

جاءت لهجته حادة. "ماذا قالوا لك لكى تقوم به؟" فاجأنى فأجبته فى النهاية، " لكن لابد من أنك سمعت. إنهم يقولون أننى أريد شراء طائرة من أجل أوجوكوى".

"هل هذا صحيح؟ أنت تريد ذلك"؟ إن تحوله إلى دور المحقق أفزعنى.. وبدهشة أنكرت التهمة".

قال، "أوافق. فهم يخبروننا بأنك لم تعترف، ولكننى لا أتكلم عن هذا الفعل. . ولكنى أريد أن أعرف بالتحديد سواء قمت بذلك أم لا".

أكدت له أنه لا حقيقة لهذه التهمة ذاتها.

قال، "أنت تعمل من أجلى أنا، أنا سعيد لأنك تعمل من أجلى فهذه مهمة الحكومة، فإنهم لايرون متاعبنا، وممنوع علينا الكلام هذا كل شىء.. أنا كنت هنا عندما قاموا بقتل الإيبو. فقد رأيت ذلك بأم عينى. فالأعمال التى يقوم بها هؤلاء الناس لن يغفرها الله أبدا. وعندما أرى هذا النوع من الناس يأتون حفل زفاف فخما فاخرا، بينما نجلس نحن هنا فى حالة معاناة... وعلى أية حال، فإن الله يراهم من السماء".

طال الصمت؛ لم أكن متأكداً كيف يكون رد فعلى. فالأمر كان مفاجئًا جدًا، فضلاً عن حقيقة جدته. فهل هو جاسوس تابع للأمن جاء ليجس نبض هذه الحالة الصعبة؟ مرة ثانية وسؤال حاد منه "لماذا تصوم اليوم؟"

قلت له: "هذه مسألة يصعب شرحها".

"لا، أخبرنى. أريد أن أعرف. فأنا ما رأيت إنسانا يفعل هذا من قبل. أسبوع بعد أسبوع بعد أسبوع، وأنا أسمع رئيسى يقول أنت لست مسلمًا ولست مسيحياً. أنت لا تؤمن بالله؟ فلماذا تعاقب نفسك؟ فجوون جالس هنا يبعثر أموالنا على الشمبانيا. رجل يقتل نفسه. من أجل الوجاهة وأنت تريد أن تقتل نفسك فى سبيل لا شىء. فلماذا؟"

مضى وقت طويل منذ أن تحدثت إلى إنسان شغوف هكذا بالمعرفة. عقل متقلب فيما يخص وعيه بالأفكار، التى لا تخص حاجاته الوقتية وحدود خبراته.

سقط القناع، قناع السجان. فأنا أقرأ عدم الرضا، أقرأ حتى الوعى الشخصى الغامض بضرورة الاتفاق على المساواة الاجتماعية، باعتبارها المعيارلأى مجتمع بشرى. بدأت أسأله عدة أسئلة تباعًا، ساعيًا للوصول إلى مقياس لعدم رضاه ونقمته. بدا وكأنه مستعد للإدلاء ولكنى لم أكن واثقًا.

قال: هل تعلم، "عندما أتيت أنت إلى هنا، خاطبنا الرئيس بشأن عمل استعراض. ففى أى وقت يأتى فيه شخص جديد، خصوصا إذا كان شخصية ذات أهمية مثلك، فإنهم يأمروننا بعمل عرض فى الصباح الباكر ويعطوننا الأوامر. قال لنا إنك شخص خطير. لقد تكلم كثيرًا عنك. قال، إذا تكلمتم مع هذا الرجل داخل الحجز لا تندهشوا إذا وجدتم أنفسكم فى داخل الحجز.. إنه رجل بارع، رجل كبير لكنه رجل خطير. يقول E إنك تسببت فى مشاكل لأكنتولا ومشاكل لساردونا، وأنت تريد الآن أن تخلق المشاكل لجوون. لقد حذرنا، فقط قوموا بعملكم واتركوا الرجل، ولا تتعاملوا معه. لكن بعد قليل من الوقت عندما كنا نجلس سويًا ونتكلم أثناء الراحة يقول E هذا الرجل المقيم فى الحبس الانفرادى، أنا لا أعرفه. إنه صغير، صغير، صغير، وبدأ E يتكلم وكأنه بدأ يحبك والرئيس ENH قبل E يحب بعض الأشخاص، E يرى شيئا ما...".

تركتــه يتكلم. كان فى أمس الحاجة للكلام، وبخاصة عن نفسه. فقد كانت الصورة مألوفة. طموحات مبكرة تحطمت بقبوله الواقع الاجتماعى والقيود الشخصية. علاقة حميمة قتلت فى الحرب، قاتل من أجل القضية الفيدرالية. أراد أن يسجل نفسه للتطوع، وفى الواقع تم ضمه إلى قائمة الاحتياط، لكن عائلته أصرت ان تحافظ على حياته وتذكره بأنه الرجل الوحيد البالغ فى العائلة. هذه العائلة تمتد الآن لتضم قريبه الذى قتل مبكرًا فى الحرب. بعد مقتله بعدة شهور تمت مطاردته طوال طريق العودة إلى منزله من جانب الغوغاء، لأنه عاش فى مأوى مستأجر ملىء بالجنوبيين وكان هو من سكان الشمال، بالمعنى القديم على الأقل، ولكن صاحب العقار كان من الجنوبيين هو ومعظم المستأجرين أيضًا.

هناك شىء ما غيرصحيح. ففى السجن يخدعنا الوقت بحيل غريبة، لكننى أعلم أن ذاكرتى بالنسبة لتسلسل هذه الأحداث، لم يصبها ضعف. فعلقت قائلاً، "إذا قدمت نفسك من أجل الدفاع عن القضية الفيدرالية بعد ذلك فيجب عليك أن تكون صاحب عقيدة".

ضرب صدره بقوة، "أنا؟ أبدًا!

بعد ذلك قلت. "دع أفكارك الدموية تحارب معركتك فى الحرب".

كان هناك تضارب فى تحديد الوقت، عانيت حتى أستطيع الإمساك به. فسألته أن يحدد لى الشهر والسنة التى وقعت فيها هذه الحادثة..

"ربما كان فى شهر أغسطس من السنة الماضية...".

"السنة الماضية؟

"نعم، السنة الماضية. لم يمر سبعة أو ثمانية شهور على ذلك الوقت...".

"انتظر لحظة، ففى السنة الماضية كانت الحرب قد اندلعت فعلاً".

انفجر صائحا، "نعم بالفعل هذا ما أحاول أن أقوله لك. فقد حدث ذلك فى السنة الماضية. وهذا أكثر ما يغيظنى".

"هل أنت متأكد؟"

"أنا متأكد من هذا. فالمحافظ أديبايو جاء بنفسه هنا، عندما كان أبناء اليوروبا يهرولون عائدين إلى منازلهم.... القائد E هو الذى أذاع هذا فى الراديو".

أخيراً جمعت أطراف القصة بعضها مع بعضٍ. فهناك حادث شغب انفصالى، تم تنظيمه بنفس الدقة التى ظهرت فى أحداث عام ١٩٦٦، والتى ضمت كل الجنوبيين. وكانت الشكوى - أن هؤلاء قد اغتصبوا المناصب التى أخلاها أبناء الإيبو. استيقظت كادونا ذات صباح لتجد جيشا موحداً وحصاراً أمنيًا، على رأسه حاكم عسكرى. تمكن بتصرفه السريع من منع المذبحة قبل أن تبدأ. لكن وقعت جرائم قتل قليلة فى مدينة كانو. وضعت الملصقات العادية على الأشجار والحوائط.

وتم توزيع المنشورات بكل جرأة باليد. وقد كتبت هذه المنشورات بنفس اللغة التى سبقت مذابح شهرى مايو وسبتمبر. إنذار نهائى يدعو الجنوبيين للعودة إلى وطنهم... وإلا. تحرك الحكام العسكريون بسرعة، ولكن فى عديد من الولايات كان الكثيرمن أهل الخبرة - من الأطباء والمهندسين وغيرهم، الذين وضعوا حادثة ١٩٦٦ فى قلوبهم واتجهوا جنوبياً. حتى التشاديون (ويسمونهم جودو جودو) تأثروا وتم فرزهم بوجه خاص. كانت وظائفهم المفضلة هى الخدمات النظامية - فى الجيش والبوليس والسجون.

بصق الرجل تعبيراً عما يشعر به من اشمئزاز." ابحث داخل الجيش، وانظر ماذا تجد؟ فشعب الجودو جودو يملأ الجيش وهم لا يخوضون الحرب، لكن شعبنا يعطى الحاكم إنذارا نهائيا لحشدهم معا من أجل الدولة لمرة واحدة وإلا يمزقون إربا كما حدث لأبناء الإيبو...".

إنذاران صدرا بصفة عامة أثناء الحرب الأهلية. فالتهديد الأخير كان فى سبتمبر (الشهر الحاسم على ما يبدو) فى سنة ١٩٦٨. حدث هذا حين قام الحاكم باكو باستدعاء القوات.

تحدثنا معا. حاولت أن أجس نبضه رغم أننى واثق منه. عرضت أمامه المواضيع التى يمكن أن يتجاوب معى فيها. أخيراً سألته هل سيكون فى نوبة خدمته بالقبو طوال الأسبوع. أجاب، لا، فقط حتى يرحل جوون. كانت السجون تزيد من استعراضاتها الخاصة، ومن أجل هذا كانت هناك حاجة لاستدعاء الذين كانوا فى الخدمة سابقًا، للمشاركة

بعرض الأوسمة والنياشين. ويبدو أن معظم حراسى فى السجن كانوا من رجال الخدمة السابقين. ومن المرجح أن يكون اليوم التالى هو آخر يوم لهم، كان من المقرر أن يتم حفل العرس بعد الغد فى مدينة زاريا. . ومن الناحية العقلية أخذت أقلب العملة المعدنية بين يدى لأقرأ الطالع.

كان القرار يمكن التنبؤ به. فليس لدى ما أخسره. رسالتى الأولى كانت رسالة اختبار غير ضارة. فأرسلت بها قصيدة وطلبت كتباً. قلت للرجل ببساطة" أريدك أن ترسل هذه عن طريق البريد من أجلى" فقد صممت المظروف بنفسى من قصاصات الورق. نظر إلى الرسالة وأخذ يقلبها بين يديه ولكنى لم أستطع قراءة ما كان يدور فى ذهنه حتى خرجت منه ضحكة مدوية.

"هل تقصد أنك صنعت هذا المظروف بنفسك؟"

أريته العديد من الأشياء التى صنعتها بيدى. لقد سمع عن تلك الأشياء من الحراس الآخرين لكن أن يراها بعينيه كأشياء حقيقية.... جعلته يميل برأسه ويقهقه.

"سوف أرسل هذا من أجلك، وإذا أردت أن تكتب المزيد من هذا غدا فسوف أحضر لك ورقا ومظاريف ملائمة".

"قلت له" لن أنسى لك هذا"

"لكن أكتب كل ما تريده غداً. وبعد غد سوف يبدأ الروتين المعتاد. لأننا الآن لا نجد وقتا لنبحث متى سوف نجتمع هنا. فالجميع مشغولون بزفاف جوون".

اتمنى ليعقوب جوون المزيد من شهور العسل. وأخذت الورقة الباقية من الخطابات، وبدأت التخطيط لاحتفالى بهذا الحدث "زفاف هومبو" The Wedding of Humbo وهذا أقل ما يمكن القيام به من أجل الفحش الكثير الذى أدين به له.

الفصل الحادى والثلاثون

فوق قطعة من الأرض لا تزيد على ثلاث وعشرين خطوة طولاً، وسبع عشرة خطوة عرضا، استطاع الحراس أن ينشئوا مزرعة حافلة بأنواع متعددة من الخضراوات. إنها مكان خلوتهم، الملجأ الذى يلجأون إليه ليحميهم لفترات قصيرة من واجبات الخدمة، التى يراها معظمهم كعقوبة عن ذنب ارتكبه فى حياته السابقة - فالله يعاقب الإنسان على القيام بأنواع معينة من الأخطاء - أو كفترة توقف حتى تعود البركات للوطن مرة أخرى. بالنسبة لقلة، بل ربما لمن هم أكثر من مجرد قلة، يعد هذا العمل تشريعا للغرائز السادية، لتجد فرصة للتعبير عن نفسها فى مكان ما وبطريقة ما. لكن حتى بالنسبة لهؤلاء فإن هذه الحديقة تم استعمالها كغرفة لتغيير ملابس، فهى مكان لبس وخلع الأقنعة. فقد رأيتهم وهم يخلعون ويلبسون القناع، إما ببطء أو بلمح البصر.

أما القبو فهو غرفة التعذيب، إنها كلمة قوية لا يصح استعمالها لكن ما هى الكلمة الأخرى، التى يمكن أن تعبر بطريقة أفضل عن الجرائم التى ارتكبت فى هذا المكان؟ ومن باب تجميل العبارة تسمى زنزانات العقاب. فهم يأتون بالسجين إلى هنا، ويتم حبسه فى إحدى الزنزانات ثم

يتركونه يصرخ حتى تنفجر رئتاه - دون أن يهتم به أحد. ويتم غلق الباب على حافة ناتئة ترتفع عن الارض حوالى ست بوصات - وعليك أن تخطو فوقها عند الدخول. العلاج بالماء البارد يشمل سد الفتحة فى هذه الحافة وملء الزنزانة بالمياه، ثم تتم تعرية السجين بالكامل ويزج به فى الزنزانة. فى موسم الأعاصير الذى عشته مرتين حتى بدون الاستفادة من حمام السباحة البارد، أعرف أن قضاء ليلة واحدة فى مثل هذه الزنزانة، سوف يترك شروخًا فى أشد العزائم صلابة. وهذه فقط واحدة من العقوبات المتنوعة. فهناك أيضًا جلسات العصا. التى يشترك فيها خمسة أو ستة رجال ساديون، من أفراد الحراسة المتمرسين فى شئون الحياة الخاصة بطريقة مؤكدة، هكذا كانت المتعة طاغية على وجوه أولئك الذين شاهدتهم فى أيامى الأولى فى سجن لاجوس - هؤلاء الحراس يهجمون على السجين ويضربونه فى نقاط منتقاة - فى المفاصل والمرافق والكواحل والرأس وعظم الأكتاف، وذلك فى استمرارية سريعة. وقد حضر الضابط المسئول عن سجن كيرى كيرى ذات مرة، لكى يعتذر لى عن الصراخ الذى عذبنى لأكثر من ساعة. والغرض من هذا التعذيب: هو إجبار السجين على الاعتراف عن المكان الذىَ أخفى فيه بعض أنوا ع السجائر الممنوعة التى هُربت إليه فى داخل السجن. والهدف الحقيقى بالطبع، وبكل بساطة هو كسر إرادة السجين، والتمتع بمشاهدة الضحية المعروف بصلابة إرادته، وهو ينكسر أمام أعينهم. هذه الجلسات استمرت يوميا لمدة سبعة أيام ولكن لم ينكسر السجين.

هذه المشاهد كانت العرف السائد فى هذا القبو، فقبل زيادة أعداد السجناء السياسيين، تحولت "زنازين العقاب" إلى حاويات تضم كبار الشخصيات. وكذلك (ساحة المطهر) المجاورة، وهى الموقع الجديد لكل الانتهاكات الإنسانية، فى حين تحول القبو إلى رحلة قصيرة لاستعادة الإنسان نفسه. لقد شاهدت أشر الأقنعة تتحطم على باب القبو، وهو لا يزال يتحشرج ويصدر أصوات شخيره نتيجة الإنهاك الأخير فى المطهر، ثم الانحناء والقيام بتقليد بيلاطس النبطى، بغسل يديه بالماء من جردل الحريق وبتحوله إلى شيطان المزرعة اللطيف. فهذا بالطبع، عمل غير مشروع. فمنذ أن توليت منصب الإله الحاكم فى هذا البستان، فقد أغلقت أبواب الفردوس أمام الجميع ماعدا الملائكة الحراس، الذين جاء دورهم فى المطهر. وعندما تعطى إشارة عن اقتراب المشرف العام، فإن الشيطان ذا القرنين الذى جاء بذيله المتشعب وحوافره الشديدة الوطأة، يهب من الجانب الآخر للحائط مهتاجاً محمر الوجه، بعد أن أعد المسرح لجلسات الجلد، فهذا مكسر عقد المفاصل، وشادد أبزيمات الأحزمة الملتوية، والضاغط على أصابع القدمين، ومكسر العظام، والمصارع، هذا الإرهاب بالزنازين الخلفية، لا يزال يمثل قناعا آخر، القناع الجانح والمنتهك للقانون، والتملص الهزلى مصبوغ على وجهه بقوة.

لكن المشهد يبدو فى الغالب شاعرياً، لمحة قصيرة عن الأرواح التى تم إنقاذها والتى تطوى أوراق الكرنب حول حقل سماوى. تطهر الجميع من العنف، والوحشية، وهدأ الغضب على حافة الصراع بين أرواح عنيدة متباعدة يجب أن تنكسر، كى يتم إنقاذها بنفس الطريقة.

طرقة على الباب ثم يدخلون واحداً أو اثنين أو حتى ثلاثة فى مرة واحدة، لكى يبينوا سرعة تقدم الأمور. فالكرمشات على الشورتات الكاكية ذات الأحجام الواسعة التى يلبسونها، تبرز كأجنحة حينما ينحنون لتقليب التربة، وتقليم الأوراق الميتة وتطويق بعض فروع الطماطم الممتدة، ويعلنون عن نمو براعم الفول السودانى، ويطردون السحالى التى تعلم بأسنانها على أوراق الخس فتقتلها أحياناً. يشذبون وينقلون أكياسا ضخمة من أوراق العنب الأخضر، والأوراق ذات العصارة ليطبخوها مساء فى بيوتهم.

لكن الجوافة تحتل المكانة العليا. فهى الفاكهة المحرمة التى يتربص الجميع لاقتناصها، إنها رمانة الجحيم التى لا يؤدى مذاقها إلى تقييدهم بالسلاسل، بل إلى إخراجهم من خدمة الحياة إلى سجن فى العالم السفلى.

لم أستطع أن أفهم ذلك على نحو آخر. فلابد أن يكون هناك نوع افضل من هذه الجوافة فى الخارج، ألذ طعما وأقل شحنة بالعداوة التى تربت بسبب الجوافة. فقد استمعت أحياناً إلى حالات التذمر الغاضبة التى تطورت، عندما وصل الرائد المسئول عن نوبة الفجر، ورأى شخصا آخر قد سبقه للوصول إلى الفاكهة الرائعة، التى شاهدها ورعاها وانتظرها لوقت طويل. ذات ليلة حلت كارثة بالشجرة وكان تأثير تلك النكبة أشد من أى كارثة طبيعية حلت بالبشر على الإطلاق. لقد أتوا واحداً تلو الآخر ووقفوا صامتين عند الشجرة المُنتهكة.

وحول الشجرة طرحت ثمرات الجوافة التالفة، مقضومة ومعضوضة وملقاة. وحش الظلام، ليس إلا فردا غير مدرب من أفراد دورية ليلية، رأى شيئا بدا له مجرد شجرة جوافة. فراح يجرب الفاكهة الواحدة تلو الأخرى، ليس بيديه ولكن بأسنانه وهى الدليل النهائى. ذاق ثمرات الجوافة الواحدة تلو الأخرى بحثا عن ثمرة ناضجة ولكن دون جدوى فقد قطفها وقضمها جميعا باستهتار وحشى، ثم بصق عصارتها غير الناضجة فوق التربة القاحلة. انفتحت البوابة مرات ومرات بهدوء، جاءوا واحدا تلو الآخر ليظلوا ساهرين عند موت القطاف، لا ينطقون أى كلام فيما عدا التمتمة، "أى نوع من الوحوش يمكنه أن يفعل هذا". فقد راقبهم بلوتو **Pluto** من خلال الشق الموجود فى الباب وأحس بالشفقة. فكانت الجوافة شجرة الحياة الخاصة بهم، وقد خصص كالى **Kali**، وقتا لزيارة تلك الشجرة أثناء نوم الحراس.

ضاعف ذلك من صعوبة عمل المراقب الكبير بدرجة لا يمكن تحملها، عندما جاءته تلك الضربة الأخيرة. فلم يكن هناك تحذير سابق، لم يكن هناك استعداد نفسى لتلك الضربة. فأنا صاحب القضية لم أكن بهذه البراءة.

أما هم فقد حصلوا على الجوافة والطماطم التى يريدونها، وكذلك الفول السودانى والدخان. لابد أن يكون فى كل ذلك نصيب. لقد حصلت على سماد عضوى وحصلت أيضًا على الشمس.

كانت طبقات السماد العضوى تمثل الحياة، لأنها تنتج الأدوات. تنتج المعادن والخرز والقوارير من مخلفات الصيدلية، وكذلك الأسلاك والخيوط والفخار والسوسة والعقد بالأغصان. وجاءوا أيضًا بخنافس الروث ذات القرون التى كان طنينها المثير للقشعريرة، يعنى ليلة أخرى من المخاطر – لكى تتمشى وتتغلب على صوت لا ينقطع، صوت الحيوان الذى وقع فى فخ، ويبدو كأنه يخرج من داخل كيس متعفن فى انهيار بطىء. تعقبته فى وقت النهار. مستخدمًا إياه فى ابتكار آلى بسيط من بقايا السماد وجعلته يحرك المطحنة للحصول على قوة دافعة. كان ذلك نجاحًا جزئيًا. فطبقات السماد خلقت فرصا جديدة للتشغيل. وتدريجيًا ازدادت حساسية أصابعى، وامتلأ عقلى بتصميمات هوائية غير محدودة.

الأداة الأولى هى السكين. إنها الأداة البدائية، وقالب التكوينات والأشكال. ذلك القدر مقبول. لكننى شاهدت ذلك حال حدوثه. استيقظت ذات يوم لأرصد تطور العصر الحديدى، والتحرر الذى نتج عنه فى سكان الكهوف. فخضروات العصر البلستوسينى سقطت، ومن شرنقتها خرجت أنا فنان العصر النيلوثى. فتلك السكين الأولى، التى صنعت من قطعة صدئة مقطوعة من شريط معدنى كانت هى الانطلاقة. وقد قمت بسنها على الأرضية الخرسانية بحرص شديد. ووضعت لها يدا من شريحة إحدى الألياف النباتية عديمة الفائدة، والتى تمسك الشبكة. هذا التصرف فى حد ذاته كشف، كلا، بل ذكرنى بليونة لحاء الشجرة، فهى المادة الرئيسية لنساجى السلال، وتباعًا – نجد سلسلة ردود الفعل لا تنتهى.

بدأت العمل على الموبايلات، وهى ابتكارفردى بل أعظم الابتكارات تهدئة للروع فى هذا المكان المظلم. من بداية تصنيعها تلقائيا شرعت فى تصميمها أولاً. فالطرف الثقيل هو البكرة الفارغة من لفة ورق التواليت وتم تغلفتها وملؤها من الداخل بالحصى والأحجار. غلفتها بورق السجائر لكى تلمع فى ضوء الشمس. فتلك الحصى والأحجار تعمل بسهولة على عدة نقاط وفى النهاية تتوازن. فهم يرقصون ويقفزون فى الهواء فلم أتعب أبدا من مشاهدة حركتها الرقيقة.

وماذا بعد الأشكال البسيطة المنحوتة؟ الجستالت الفنى الكامل! أبيات من الشعر خفيفة قائمة بذاتها تطير فى مهب الريح. أبيات شعر فردية غنائية، بالإضافة إلى أبيات هجائية تطعن فيمن عذبونى (بالإسبانية، الأشعارالأخيرة كانت تكتب دائما بلغة إسبانية ركيكة) سميتها منحوتات شعرية وأشعاراً فى الهواء. ومنحوتات فى أبيات شعرية، إلخ. صنعت أكاليل من الخشب والورق، وكتبت أبيات الشعر وشاهدتها وهى تطير.

فى البداية احتفظت بالسحالى. وبالصدفة اكتشفت عشا مليئا ببيض فى مرحلة الفقس. الصغار يندفعون من خلال التربة للوصول إلى الهواء. فبنيت هيكلا لشبكة اتصالات بين الأعشاش وأقمت أنفاقا من اسطوانات ورق التواليت والأكياس البلاستيكية، التى كان يأتى فيها الخبز، وحاولت تدريبهم. أطعمتهم نملاً وذباباً. لقد انقضت هذه المرحلة الآن. فمستعمرات النمل أصبحت قاحلة بعد أن قمت باستغلال طبيعتها

القاسية لإعداد مسرح للمبارزة حتى الموت - نملة حمراء وأخرى سوداء أو فريق من كل مجموعة، يتم وضعهم سويًا في زجاجة واحدة حيث يذبحون بعضهم بعضا حتى آخر نملة. سميتهم شعب بيافرا وشعب نيجيريا.

أصبحت الموبايلات تستحوذ على الذهن تمامًا، وأصبحت التصميمات أكثر تعقيداً وأكثر جرأة. من قصبة مجوفة لنبات عباد الشمس قطعت اسطوانتين. وشققت شرخا طوليا في كل واحدة. ثم لففت ورقة تواليت طويلة حول قطعة من عصا ملساء. هذا المسمار المصنوع من الورق المصقول يدخل في إحدى الاسطوانات. وبعناية نخرج أحد اطراف تلك اللفة من الشق الطولي، ثم إلى داخل الشق بالقصبة الأخرى حيث توجد عصا أخرى مستديرة، جاهزة ومكسوة بغراء مؤقت.

التقطت العصا حافة الورقة ولفتها حولها. فقد انتهت لفافة الصلاة الصينية. وكانت متصلة ومنضبطة بطول ليفة لحاء شجرة، لتعمل كثقل متوازن مع التعقيد الباقي من الموبايل الجديد. غطيت الورقة بأبيات من الشعر، وقلبت اليد لأعرض أبياتا جديدة كل يوم تتناسب مع المزاج. . أبيات أخرى تكونت وعامت على أذرع اخرى. أحيانًا، تقلب الرياح اللفة غير المسنودة. ويبقى الوزن كما هو لأن كلا من اللفافتين تم وزنهما على نفس الوحدة القياسية. أول مرة راقبت هذا الحدث، أن تنفك اللفائف بفعل الرياح واستمرار التوازن الكامل، لم يكن أمامي بديل آخر،

وعلىّ أن أعطى الثقة لمن يستحقها. نظرت إلى نفسى وقلت، يا إنسان الكهف، أنت لم تبدع فقط النقال المتكامل، بل اخترعت مفهوما جديدا هو - العبقرية!

فجأة انفجر أول موبيل فى أحد الحراس. فى نفس الوقت كان هذا الجسم المصنع، بالتأكيد ليس بالأنظمة المغذية للهواتف. أيضًا جسم يحمل علامات الصنعة الجيدة وإحدى المواد الغريبة. تحسستها لأرى رد الفعل. فانتقلوا من حالة عدم المصداقية إلى حالة الإعجاب. وبدون استثناء قرروا أن يتركوه لحاله فى هدوء. جاء رئيس الحرس، كان مفعما بالإعجاب واخيراً جاء المراقب الكبير فى نوبة تفتيش وغمزه بطرف عينه. وأخذ الموبايل عقوبة رسمية.

لم تكن المصيبة بعيدة، لكن الأيام الأولى، حتى أسابيع اليقظة الميكانيكية العظيمة، أتيح لها أن تستمر فى الطيران المبدع الكامل. عندما وقعت الكارثة كان الناتج الفرعى فى متناول اليد. بدأ بعد أن ازداد طموحه، حتى وصل إلى حد الاستيلاء على راحتى العقلية، فأخذت أخطط لوضع صورة مصغرة لتوربين هوائى. ففى هذه المملكة يتوجب على الكل أن يعمل ويخدم. اخترت ركن الكوخ الذى تدخل منه الرياح بقوة. سحر الطبيعة غير المعهودة. كان لدى فعلاً رؤية، لتوليد القليل من الكهرباء، بتواضع شديد، توليد بضعة فولتات. أو على الأقل تشغيل آلة بالطاقة. كان الهدف الرئيسى هو الحصول على الطاقة. فكرت كثيراً فى توليد الكهرباء من الرياح أكثر من تدوير الموبايلات. رأسى كان مليئا بالتوربينات،

تصميمات كان يمكنها أن تشرف أى متحف من متاحف النماذج الأولية التى لم تتحقق بعد. وقفت أراقب سيولة الحركة الراقصة للموبايلات – أتساءل احيانًا إذا سمحت لنفسى بقبول هذا التنويم المغناطيسى لمرة واحدة، لكنت قضيت اليوم كله محدقًا فيها. كانت الرياح متلائمة بهدوء فى ذلك اليوم. كنت أفكر فى التوربينات، ولكنى، أشاهد الحركات المضادة للأذرع المنحوتة على عدة محاور: إننى أتساءل كم عدد التركيبات المحتملة التى يمكن أن تحرك تلك الأذرع.

هكذا ولد علم الجبر. وتم نسيان التوربين. لم يبق شىء سوى أن نرجع إلى أصول الرياضيات. من خلال الرسومات البيانية عن طريق التجربة والخطأ، لتقضى أيامًا فى اكتشاف ما هو أبسط المبادىء الحسابية على وجه الأرض. لقد عذرت نفسى.. ففى المدرسة، كانت الأرقام بالنسبة لى محرمات، والتى سعدت بانفصالى عنها بعد ورطة فى امتحانات الإجازة المدرسية. لكن ليس أكثر. فقد اكتشفت مؤخرًا عالم الأرقام. عندما حدث الاختراق الأول، بدأت بسرعة متزايدة فى إعادة اكتشاف المعادلات الرياضية واحدة تلو الأخرى. اكتشفت جزءا بواسطة البحث والجزء الآخر عن طريق تنقيب أثرى ضخم لمقبرة مظلمة خاصة بمعلمين عانوا من مشقة العمل الطويل، وقد درست المعادلات التى تم إنجازها فكرة بعد أخرى، اختبرتها وأعدت اختبارها بأبسط نظم الإحصاء. كان لدى الوقت. فأنا أستيقظ فى كل صباح على مشكلة، وبعد دقيقة واحدة، كان الحارس يطرق الباب لإعطائى الإشارة الخاصة بوقت الإغلاق.

لقد حطمت الزمن بمجرد أن كتبت كل المعادلات المحتملة المكونة من ستة أرقام. وأثناء المعالجات، اكتشفت الطريقة الوحيدة لضمان إنجاز تلك العملية لكى أتأكد، فى لمح البصر، أنه لا توجد مضاعفة ولا حذف. لقد كانت النتيجة بوضوح عبارة عن خطة للوصول إلى مبادىء رياضية محسوبة رقميا لعلم الجمال، حتى أننى رسمت مربعات على أوراق التواليت، وواصلت تكرار تلك الصيغ فى مربعات ملونة. (أخضر من أوراق النباتات، أرجوانى من التوت، أسود من الحبر الخاص بى، حبر مسمى بسوى، وورق التواليت الأبيض) فالكوانتوم الدورية للنتائج تركت انطباعا. فضممت طرف ورقة تواليت بأخرى وسألت، ماالذى حصلت عليه الآن؟ كان هناك تشابه قوى بالرموز التى يعطيها الكمبيوتر. والآن، كيف بالله عليك تؤدى الحاسبات وظيفتها فوق كوكب الأرض؟

كان عقلى أشبه بكومة السماد العضوى. يعج بالحياة، محشواً بالقصاصات صعبة الهضم، يكافح من أجل أن يتماشى مع خصوبة ساكنيه. كانت فوضى وواحة عندما خربت الساحة، وارتدت إلى حالتها الأولى كصحراء.

كان عندى الأرض، وهى السماد العضوى. كان عندى الشمس أيضًا فى متناول يدى، وكذلك زهور عباد الشمس ذوات الحجم الزائد التى زرعها الرجال ذوو الأقنعة. فالبعض منها تجاوز ارتفاعه سبعة أقدام، منظار ضخم مغلق دائمًا على الشمس. وفرة اللقاح هى التى صنعت الانطباع الأكبر. فالرياح تقطف مسحوق أوراق عباد الشمس الذى يرقد

على الأوراق العريضة ويملأ أخاديد سيقانها. كانت زهرة عباد الشمس بالنسبة لى أنا بنفس الطريقة التى تنتمى فيها النباتات الأخرى للحراس. كان هذا اعترافا ضمنيا بأحقيتى، لأنى أنا الوحيد الذى كنت أستعملها. (فهم لم يدركوا أن بعض الأجناس تأكل بذور زهرة عباد الشمس). لقد زرعوها من أجل اللون، كعادة. أما أنا فكنت أرى سيقان النباتات مثل آلات الناى؛ والسكين تنتظر النضوج.

وعلى ذكر الناى، فهذه الآلات لم تحقق نجاحا. حصلت على النوتة الموسيقية لكنى فشلت فى عزف موسيقى من الأنابيب المثيرة للإغراء. فتصدعت الفتحات أو تشققت عند فتحة الفم. اخترعت فتحة فم من كل شىء. فقد شقت فتحة الفم القصبة. إن رأسى تموج بتلك النغمات العذبة التى سوف تملأْ الليالى، عندما يصل الناى إلى مستوى الكمال. فقد ثبت أن الكمال فكرة مراوغة: فقد أودعت أعواد عباد الشمس فى صناعة لفائف الصلوات الصينية، تشدو بمرثية على الموسيقى التى ظلت للأبد مغلقة على الشمس. كان العنوان الواضح هو:

Flute Manque

يا ضلع ورقة عباد الشمس

لم تحقق وعدك بتكوين

هيئتك الغنائية بعد

النغمات المحفوظة فى خيوط ساقك

ما زالت تخيفنى
ساعات أحلام الإله بأن
تمضى فى
بيداء صامتة
فكرت فى الترنم
بقيام أصلك العريق
وثباته
وأن أرسم قوة الخلق والإبداع
النارية وهى تتجه إلى الأرض
فوق بساط ريح الغابة
فى تعويذة من خيوط
لكننى أفضل أن نتسامى
دون غناء
إننى أنصت إلى أغان
ربما كانت يومًا ما
عندما أخذت نسمات الكون
الدهرية تحرك التربة
ذات مرة حيث كنت أنت واقفًا

لم يظهر الطلع ذو المسحوق المتماسك. كل يوم وكل محصول متزايد تحمله الريح يحيله إلى شىء أشبه بورقات صغيرة من الذهب ملفوفة الحافة، إلى أن أستسلم للإلحاح الذى يدفعنى للقيام بجمعه، قبل أن يطير فى الهواء. عندى أنبوبة زجاجية كانت تحفظ فرشة أسنانى فى وقت مضى. لقد وصلت بين الأوراق العريضة الخشنة، وبدأت العمل الحسى البطىء فى جمع الطلع فيها. استمر الأمر إلى ماهو أبعد. فقد تحول أول عمل لى فى الصباح لجمع الطلع الذى سقط أثناء الليل، نافضا السداة إلى داخل الأنبوبة قبل أن تبعثرها الريح. وكان آخر عمل لى بالليل، هو التقاط الشوائب بحب من الطلع وفى بطء يتصاعد الطلع إلى الغاية المرجوة - قضيب صلب من الذهب.

جزء من تكنيك السجن فى إخضاع النزلاء يتم بصدمة مفاجئة لإثارة إرباك المساجين. لا شىء يتم بطريقة متحضرة من إنسان متحضر إلى آخره. إذا كان ولابد من إجراء بحث فهو يتم فى جو عاصف. دون إعطاء أى تفسير لأى شىء. فالنزيل لابد أن يظل فى حالة عدم توازن، يترك لكى يهدم لبرهة ويتأمل أهمية الانفجار الأخير. حينئذ وحينئذ فقط يظهر المواطنون فى مجموعة ليقوموا بدور المحققين.

هكذا الحراس والمساجين مسلحون بالفئوس والجرافات وخراطيم المياه والمعاول وأدوات خلع النبات والمناجل، بدأوا يحصدون شجر الزيزفون وعباد الشمس، وظهرت الطماطم والفول السودانى والخس والقنبيط. أما شجرة الجوافة فقط فلم تقطع. المعاول استمرت فى عملها وهى تحفر عميقاً حتى آخر بوصة فى الجذور ولسبب ما مع ذلك، تأخرت الكتيبة

الأخرى ولبضع دقائق. رأيت ما كان يحدث، وعرفت أن هبوب إعصار تورنادو فى خلايا جسمى سوف يكون مسألة ثوان. دون إدراك لفعلى الذى من أجله كنست كل أوراق الشىء الأخير، الذى كنت أكتب فيه. أفرزت أسنانا قليلة فى علامات أصالة سبق اختيارها بعد تصفيتها من سلسلة الأحبار "الناضجة" ووفرت زجاجة فقط.......... ثم خرجت لمشاهدة عملية التدمير.

لقد اقتحموا الساحة بعد دقائق قليلة. فى هذا الوقت لم تتم أى محاولة لفحص أى شىء، موجود فى الموقع. أتوابسلال وبالات، وكنسوا كل شىء بما فيها ملابسى الاحتياطية فى حاوياتهم. أخذوا المخدة، والمرتبة، الموبايلات غير المكتملة. (تم التخلى عنها من أجل بحث معتوه فى الزمان والمكان) تم وضعها بعناية فى سلة، وأنا مضطر أن أعترف أنه تم كنس كل الأدوات. كل الأدوات الثمينة التى تم تطويرها على مدى الزمن. لم أبذل أى جهد لإنقاذ البار الذهبى وهذا أمر غريب، ربما لأنها كانت فى صفيحة الفناجين مع الشوكة والمعلقة. انتهى هذا كله. قاد يوليفيموس الكتيبة وعند رحيلها، أعطى تعليماته إلى الحصادين. كل شىء. كل شىء، لابد من إزالته.

فيما بعد وصل المراقب الكبير بنفسه، لم تكد عيناه الحادة تقع على أنبوبة حبوب اللقاح، حتى أمر بازالتها، فتش الزنزانة بنفسه بدقة شديدة واستعاد قطعة أو قطعتين من الإهمال، ثم خرج دون أن ينطق بكلمة.

لم يبق فى الفناء أى شىء له صفة النمو، أزالوا أى فتفوتة من الورق. حركت الكرسى خارجا دون أن أهتم بانتظار دورية المراقبة، أكبر عملية تجفيف لعقل السجين، جاءت فراشة تبحث عن الخضرة التى اعتادت أن تراها هناك. انطلق الطائر ورحل دون أن يرى مكانا لتختبئ فيه دودة القز. النمل فقط كان مشغولا وخرجت جموعه فجأة من آلاف الفجوات حاملة محصولاً من الحبوب الساقطة. فى النهاية لم يكن هناك شىء يمشى على الأرض.

الفصل الثانى والثلاثون

لماذا أصوم؟ لا يعنينى الآن لماذا أصوم؟ لقد أرسيت ذلك ضمن أسس استمرار الصراع. لكن لماذا اضطررت، فى وقت معين، وفجأة، أن أقرر - أنه يجب على أن أعيش بعض الوقت بغير طعام؟ ربما ينبغى على أن أرسخ ذلك فى عقلى، قبل أن أقع فى فخ الحاجة إلى الانغماس الذاتى.

نعم، الانغماس الذاتى. انغماس ذاتى حسى. من المهم أن نفصل مساحة قوة الإرادة عن الانغماس المخدر، الذى ينتج من الأثير ذى الألوان القزحية. لأننى أشك فى أن المشاعر الحسية الحقيقية، هى التى تأخذنى بسهولة إلى الصيام؟.

لقد قرأت عن التجمد حتى الموت، لكننى لم أجرب أبدا حتى الاقتراب من الإحساس بالتجمد. إننى أفهم أنه بعد فترة يتوقف الجسم عن الشعور بالألم، ويغوص فى نوم هادىء. راحة. أظن أن الصوم يجب أن يكون كذلك. إنه يبدأ بتلك الذروة الحرجة، والحقيقة أنها رحلة قصيرة جداً وتحدث خلال الأيام الثلاثة الأولى. فإما أن يستسلم الجسم عند

هذه النقطة، أو أنه يدين فكرة الطعام ذاتها. أفضل أن أثيرهذه الذروة فى وقت مبكر بقدر الإمكان. عندما يتخذ قرار الصيام، أركز على الوجبة التالية فى عقلى. أترك بدنى يشتهيها، وأتركهم يحضرون الطعام لى. إنى جائع. أفتح الأطباق وأشمها، أركز على المذاق، على المضغ، ثم البلع فيسيل لعابى. أركز على إشباع جسدى، النوم العميق الذى يحصل عليه الجسد القانع فى أعقاب ذلك، لو ملأت جوعى بهذه الكميات الوافرة. اعتراض شرس يثور فى قاع المعدة أتركه يتصاعد. وقفت جانبا مسلما بقوة اعتراضه، واخذت أستمتع بالصراع العنيف، منتظراً إشارة البدء لكى أضرب المطرقة. حانت اللحظة ووضعت الغطاء على الطعام بحركة بطيئة متعمدة وقلت: هذا الذوق لا يمكن أن يموت. لقد عرفته وسوف أعرفه ثانية. الذوق يعنى حاسة الاختيار، لقد أنكروا حقى فى الاختيار، وهكذا أصبح الذوق غير موجود. المتعة هى أيضا شىء اختيارى. إنها تحقق واختيار. إن حياتى كسيحة معوقة، تنحط بعملية التحقق، بوضع القيود على مجالات التحقق. أن تجد متعة فى مساحة مضمونة من التحقق هو خيانة للذات، أن آكل بدون متعة هو خيانة لطبيعتى. من الآن فصاعدا لن أخون طبيعتى.

بعد يوم أو يومين خرجت شياطين معدتى لتلعب بى مرة ثانية. ونظرت إلى ألعابهم القديمة بنوع من الاهتمام البارد. إن الطعام لن يغرينى لكننى أتساءل أحيانا ماذا عساى أن أفعل، لو كانت أقراص الفيتامينات بين يدى. إننى أخشى انهيار جدار المعدة لأن الأنزيمات الجائعة تضمر

وتموت، بفعل الإصابات المستمرة التى يتعرض لها الجسم بسبب الإفراط. أعرف أن الحكمة تفرض على أن أشرب كوبا من عصير البرتقال يوميا، لكننى لست قادراً على قبول الحل الوسط. عصير البرتقال هو أقرب شىء إلى الطعام، ومن ناحية أخرى فإن الفيتامينات لا تبدو مدمرة لقوة الإرادة. ولحسن الحظ أننى لم أتعرض لهذا الاختبار. لذلك وافقت على شرب كوب من الماء كل يوم، أرشفها على فترات متقطعة. أؤكد أننى لن أتجاوز كوبا واحدا فى اليوم.

وبالطبع، سيحقق الجسم نقصا فى الوزن، وأطير أنا هنا وهناك مع أخف هبات النسيم، وأخف أفكار الأغانى أو الاستعارات. فالجسم مثل البوصلة، وأنا أرى الجلد يتقشر طبقة بعد طبقة، طبقة بعد طبقة. وهذا هو الخطر، إنها الحالة التى يبدأ عندها الاستجابة للشهوات. لأنه، بحلول اليوم الرابع، لن تكون الإرادة قد تدخلت. إننى أجوع من أجل المكاشفة، فى اللحظة التى ينبغى علىّ فيها أن أختار بين الموت والاستسلام، حتى كوب الماء أصبحت أكرهه، وأبدأ فى التحايل. فى كل يوم ينقص حجم الكوب نتيجة كسر: وفى ذات مرة، قضيت يوما كاملا دون أن أشرب ماء. قلت فى الصباح إننى سوف أشرب فى الظهيرة، وفى وقت الظهيرة بدأت أتحايل، وأسوف، حتى قررت أننى سوف أشرب ملء كوب ماء عندما تبدأ الشمس فى الغروب. استلقيت على الفراش حتى حلول الظلام، ثم قلت لم أر الشمس تغرب.

ماذا أفعل طوال اليوم؟ إننى أشاهد هوام خفيفة تتطاير فى الهواء، عندما تغمض عينى تمتلئ قبة الظلام بكل ألوان الكون خلف الجفون. وفى حالات الصيام الشديدة تتعود العين المفتوحة على نفس المشهد بدرجة أخف وأوسع. إذ يندفع الهواء إلى أعلى فى دوامات حلزونية ذات نقط ملونة، كل ذرة تراب تبدو فى شعاع الشمس كوكبا مشتعلا فى المجموعة الشمسية، حركتها مخططة بطريقة ثابتة، مشبعة بمعان هائلة. وعندما تصمت الأصوات التى تستولى على الحواس، ينجرف العقل بهدوء إلى حالة من السمو النفسى. نافضا كل ما يحيط به من البيئة والواقع، فيتجزأ ببطء حتى يصير ذرة مع باقى ذرات التراب فى الأثير.

لكن غروب الشمس يبدو غير محتمل، فبعد قليل تصمت الأصوات، وتزداد حدة الألوان، ويتحول غروب الشمس إلى شىء جامد، وحشى، دموى له أنياب، كأنما الشيطان الجوال فى هذا اليوم ينشب أسنانه فى بطن واحدة من أكثر المحظيات شهوانية. فتنبعث منها رائحة كريهة. ليست هكذا السحب العاصفة ذات الحواف النحاسية، والأعماق الذهبية الخفيفة، التى تشير إلى أخاديد فيما وراءالممرات التى تسير فيها الآلهة. حيث يذبل ضوء النجوم ويتلاشى؛ ولا يتبقى سوى الصمت الذى يدفعهم إلى الأمام.

إننى أستمتع برؤية جسدى يتضاءل. إننى أخبو ولكنى لا أحول دون الوصول إلى حالة الشبع الإنسانى، الذى يتأتى من الألم والخوف، من الاهتمام وانعدام المصداقية اللذين يطلان من عيون السجانين الذين

يحومون حولى تنفيذا للأوامر، من أجل التقاط أى هفوة من علامات الضعف تصدر عنى لتبليغها. هناك شىء بداخلى أعترف أنه أشبه بضحكات إنسانية عميقة، نتواضع عندما يتوقف أحد الحراس ويقول "من فضلك، هذا ليس ممكنا ويجب أن يتوقف". يدخل المشرف الكبير ويقول "جئت لكى أرجوك، أطلب منك أن تفكر فى عائلتك، فى زوجتك، فى أولادك". إنى أحتج - ولكنى فى حالة جيدة وقوية. أنت لا تستطيع أن ترى نفسك، أما أنا فقادر. كلنا نعرف. أنت لا تعرف كيف تبدو للآخرين. أنت مجرد هيكل عظمى حى.

إنه أمر غريب، ولكن التأثير الذى يتركه هذا كله، يجعلنى أكره حتى كوب الماء. ففى كل مرة يظهر فيها المشرف العام أكون ألقيت بقية الماء. اهتمامه بالأمر يضيف من الإحساس النامى بالتفوق الإنسانى. لا أريد شرابا ولا طعاما ولن أحتاج إلى هواء.

الهلوسات ونوبات الإغماء القصيرة التى أرى خلالها الجدران والسماء والأرض تتحرك فجأة، أتقبلها وأتحكم فيها. وكذلك فإننى أعرف أنه ليس وهما، عندما أكتشف ذات ليلة حركة شىء أرضى بين النجوم. لكى أبحث فيما وراء النجوم فى بركة الصمت تلك. فأنا أطبق يدى فجأة على هذه الذرة السائلة المستقرة والواثقة من نفسها فى هذا المدار الذى سبق تجهيزه. أهناك هلوسة أخرى؟ الرحلة كانت قصيرة منذ أن استطعت أن أتتبع حركتها خلال نافذتى عبرشبكة القضبان الحديدية. لكنى بالتأكيد أنتظر ثانية، اليوم التالى واليوم الذى بعده. وأتذكر هويته.

إنه جسم سمائى ولكنه قمر صناعى إنسانى. يا لهول اللحظة – لحظة اليقين – تظل باقية لا تفنى. أنا مسجون الآن وراء القضبان، وممنوع من الاتصال المباشر، هناك توكيد إنسانى قد بلغنى خلال الكون. شعلة بروميثية تتوهج بين الأجساد الميتة، لا تنطفىء أبدا فى أكاليل من النجوم. ربات ساقطات، ديكورات مشدودة فى فضاء قاحل. وقع اسمك، أفحص وأسأل. إنى أقبلك، جسارة إنسانية لا تتخاذل. على مدى اتساع عينى القلقة وعقلى، أنا أطلبك وأمتصك. إننى أبعث لك، إحدى مسام جسمى، القلب الإليكترونى لإرادتى، تُجول... تجول...

اليوم العاشر للصيام. حزمة من التراب على شعاع الشمس مكوك بطئ يتجول فى الكون ليلاً.

ليلة صافية والقمر يصب ضوءه فى زنزانتى. ظننت أنه كفن، لقد رجعت مراراً وتكرار إلى هذه الليلة التى أشعر فيها بالضعف والكسل الشديد، إلى ساعات الرقاد الهادىء، على قبول مطلق لفكرة تقول: إنه شىء غير مؤلم. ضعف الجسد والتنفس يشير إلى توقف. تلاشى الخوف الذى ينتج عن حافز التعلق بالحياة، الذى قد يجعلنى أتراجع فى هذه اللحظة. لا أحمل فكرة واضحة عن الموت، فقط فكرة عن النهاية المحتملة لأى فعل. شعرت بالضعف فى مفاصل عظمى وفي داخل العظام نفسها. لسان جاف خشن يتحرك سائبا فى فمى. شعرت براحة كبيرة فى داخلى وسلام العالم والكون الواهن فى الداخلى. سلام يتجاوز فى الحقيقة كل القدرة على الفهم. فكتبت:

مسحت جسدى بالزيت.

يتقدس الفكر بزيت الوحدة.

فى العزلة الرطبة.

إننى أدعوكم هيا، هبوا جميعا.

فى إثر الضوء. دعوا الظلام.

ينحسر.

مسحت صوتى.

وتركته يرق فيما بعد.

أو ينحل على طريق العزلة.

فى فضائك. أصوات جديدة.

سوف تردد الأصداء.

عندما يظهر الشر مرة ثانية.

لقد مسحت قلبى بالزيت.

فى داخل شعلته.

وضعت رماد كراهيتك المبذولة.

كى أدع الشر يموت.

فى اليوم الحادى عشر لم يأت أحد. ظننت أن الحارس عندما كان يختلس النظر إلى زنزانتى كان يبدو عليه الإعياء بل والخوف.

لقد أخطأت السبب. لقد حدث. وكان يحدث حينذاك. لقد فهمت الآن، لماذا قام المشرف العام بتخريب فردوسهم. فهمت عندما اقتحموا زنزانتى فى اليوم التالى، اليوم الثانى عشر وأخذوا يستجوبوننى ويهددوننى. وقفت متسمراً بين الباب والجدار لكى أستند عليهما. ساعيا لإخفاء ضعفى. كانت المسافة بعيدة، والارتفاع كبيرا الذى يمكننى أن ألقى النظر وأفهم. الأصوات والكلمات والإشارات كانت واضحة ولكنها بعيدة. حضور وجوه غريبة والمشرف الكبير بينهم. كان يشغلنى بطريقة حادة ولكنهم لم يمسونى بسوء. رأيته وأشفقت على حيرته وارتباكه. توقفوا مرارا ينتظرون، وقفات يأس متزايد. لاحظتهم متعلقين بصمتى، لكننى لم أستطع سوى أن أفكر. ولكن ما هذا الأمر؟ ماذا تريدون منى؟ لماذا يحق لكم أن تطلبوا منى؟

لا أحتاج شيئًا. لا أشعر بشىء. لا أرغب فى شىء.

هل هذه هى الممالك الجديدة التى يسعى إليها ذلك الناسك الحكيم، ممالك العدم. أو أنه تكلم وهو ممتلىء فى كينونته نابذا كل مظاهر العظمة الخارجية.

الفصل الثالث والثلاثون

في البدء كان هناك خلاء، لا شيء، فكيف للعقل أن يستوعب ذلك، وكان هناك أيضًا الفقر والخراب، لا شيء يمكن استيعابه ببساطة مما قد كان. ولكن، كما أن الصفر هو الأساس فإن اللاشيء هو الأمر المؤكد، وهو الأصل. مثل قطرة غيرقابلة للقياس فيما هو قبل التفكير، وقبل الوجود، وقبل الجوهر، ولكن الذى يتعين على العقل عندئذ أن يدركه، هو أن يفرغ من داخله الإطار الزمنى للحياة بمراجعه المتراكمة، لينطلق من أرضية مادية إلى الهاوية الأزلية، التى تكمن فيها، للأسف الطاقات الخلاقة التى "تمقت أى فراغ" بأكبر مما تستطيعه الطبيعة نفسها، ولابد لدورة الحياة أن تبدأ من جديد. ومع ذلك فمازال هناك ما هو أسوأ ينتظر القيام به، ذلك أن بلوتو حاول أن يكتشف سراديب حتى فى داخل العالم السفلى الميت، تغلغل إلى الأغوار الأعمق للفراغ، وهى على أحسن الفروض محاولة "مسمرية"، ذلك لأن الوظيفة العادية للعقل قد جرى تعطيلها كما أصبح اليوم ساكنًا فى حالة من الجمود الخفيف، وعلى أسوأ الفروض فإن الخواء أو الخلاء يستقر داخل حلقة هى الأظلم بين

حلقات الطاقة الخلاقة، ثم يدور حول محوره مخلفًا آثاره على رقعة من نسيج رقيق مجبول من رماد الأبدية.

ما الذى نشأ وكان موجوداً دائمًا أهو الحياة؟ أى التى قال عنها الله "لتكن حياة" لماذا؟ لقد كانت الحياة موجودة دائمًا داخل عقله المتقلب على شكل لم يتشكل بعد، وداخل حركة لم تتحرك، فى زمن وفضاء لم ينشأ بعد فى الوجود. ومع ذلك، لقد كانت كلها متفرقة ومجتمعة وملفوفة ومصبوبة داخل هلام، لا شكل له من حيث الأصل والنبض والنفس ومن حيث أصل المادة التى لا هى ذكر ولا أنثى، ومن حيث أصل الجوهر وإلى الآن لا أسعى إلى أى معاناة فقد غاص (الله) إلى العمق وأصدر أمره بأن توجد (خليقة)! ملموسة ومرئية وظاهرة بوضوح الشمس.... .

وماذا إذن، فما هى الحاجة إلى نسخة ثانية هزيلة من قبيل المظاهر الخارجية لفكرة مجردة! ولماذا يجرى تحطيم الجوهر المعقد للحقيقة وهى التى تستعصى على أى شك فيها؟ وهى الحقيقة التى لا توجد لها نسخة أخرى، ولا صورة أخرى، ولا تمثال مصبوبا فى أى قالب، ولا حتى مجرد استعراض لهذه المجردة النقية من عقل غريب؟ فلم تكن هناك أى عقول أخرى ولا من يزيف. فما هى إذن الضرورة التى تفرض الانتقال إلى المادى، إلى عدم اليقين؟ إلى النرجسية؟ إلى إعادة التأكيد؟ ذلك أن الكتاب المقدس تحدث عن وحشة العزلة. إنه الخوف من أن يكون التفكير مجرد لا شىء، والخوف من شىء ليس فى الوسع التحقق منه إلا من خلال التفكير عندما يتجلى.

وعندما حدث فى بادئ الأمر أن جاءت الحمامات، قبض بلوتو على مصاريع أجنحتها الأرابسك رافعًا إياها عاليًا فى الهواء، وبعد فترة طويلة من غياب خالقيها، أحرقها بوهج رصاصاته، ولكن عندما استبد بالحمائم الخوف من احتمال تغير المواسم وهجرتها دون عودة، تحرك بلوتو على الفور لكى يحول دون اعتماد العقل على مثل هذه الجماليات العارضة. هناك صخرة رابضة على الأرض صارت ناعمة وبيضاوية الشكل، وفيها صدع واضح كما لو كان بأيدى بشر، وهى أشبه ما تكون بمكوك، ولكن بصورة باهتة.. وبقصور ذاتى قام (الله) بمزجها بنسيج من المصائر والمواسم نفذت إلى القلب، وطردت الخمول اللانهائى بإبداع لا نهائى، أخرج من تلك الصخرة جوهرًا صافيًا مضيئًا، وفى آخر المطاف فإن ما للحمائم من أنشوطات أقواس تداعت، وكان أسرعها إلى المشاهدة هو ما تمثل فى فعل الزمن، فقد تداعت التصميمات الهشة وفقدت إيقاعها الأصلى، وارتدت إلى الأرض فى زخات من الشرارات، وهكذا استحالت سراديب الأرض إلى ما هو أظلم مما كانت عليه.

ودون أن تحاول اختراع شىء، أو الاعتقاد بأن ذلك هو الأفضل، فإن لحظات التوقف جعلت ظلام السرداب أقل درجة، فعملية الخلق هى اعتراف بالعزلة، حيث يتحول العقل إلى نول لتنسيج العنكبوت مع بقاء المكوك الذى صقله الزمن فى مكانه من الأزل.

لا يعوزنى شىء. لا أسعى إلى شىء. لا أرغب فى شىء.

ولا حتى فى العزلة، فالفوضى التى تعرف بأنها العالم: قد خلقت لكى تخدع جوهر العزلة الوحيد. هكذا يشهد الكتاب المقدس مكذبا أن العزلة فضيلة.

إن العنكبوت السمين الوسنان، وإن بقعة الدهان المنفرة التى تلطخ الجدران بمصائد الذباب وحقائب البيض، هذه جميعًا تتفرط فجأة فى أشكال هندسية رائقة حسب الطلب، وهى تؤدى إلى تراكم الأتربة والقاذورات، وسرعان ما تمتلئ بمستحضرات طرد الحشرات القذرة، ولا بد للعقل من أن يتشبه بالملكوت ونول النسيج، ولكنه يكون فى حالة من السكون القاتل، لأن الشخص الحى فى بيت الموت هو الخالق الوحيد ومؤكدا أن الذى يحرض ويحرك ويعبر عن ذاته هو العقل على وجه التحديد. ذلك هو العقل، فالفجر والظهيرة والليل والأقمار هى من صنع الإنسان. ولئلا تتشكك فيه أرواح العالم السفلى وتكشف عنه النقاب الذى يرتديه من أكفان الموتى، وتخمد حماس عقله إزاء ضربات القصور الذاتى غير المسموعة للقلب، فإن المكوك يكون فى حالة سكون تمامًا كما يتراءى فى سواد يدى امرأة عجوز. وهنا تنزاح الأغطية الثقيلة إلى أسفل، حتى والمكوك يغزل أكفان الميت العجوز ويزيح أقمطة عن عالم جديد يقظ، فى حين أن أيدى العجوز المودعة للأرض تغوص شيئًا فشيئًا فى حجرها، فلماذا إذن تقوم بالغزل وتجمع الأتربة والقاذورات مادام الشكل النقى غير الترابى يستقر فى العقل؟

لا يعوزنى شىء لا أسعى لشىء، ولا أرغب فى شىء.

غير أن الراهب لم يتكلم عبثًا، وتوجهت كلماته إلى روح حية...

لا شىء، لا شىء، لا شىء أى لا شىء إلى جانب ما يحيط بى، بجانب هذا الإنجاز القليل بتحقيق الفرصة الخاصة بإعادة تجديد الذات، أى ببساطة لا شىء لا شىء لا شىء، فإن لم يرد على سائله، وإن لم يتكلم، وإن اكتفى بالانصراف، ومضى يطلب ملجأ أعمق فى وعيه المتلألئ "أو المتخفى"، فإن هذا التصرف لتأكيد الذات هو" شىء لا حاجة إليه.. فيا أيتها الحادثة العزيزة هذا هو الرد على سؤالك. لأن ذلك قد حدث فعلاً. لأنك فى حاجة إلى أعوازك، وإلى فضولك البشرى، وإلى صوتك وإلى شكوكك وإلى أريحيتك المدعاة، وإلى جانب السماء والأرض والحبوب والحياة والعيش - فإن الخيار المطروح هو الإرادة الحرة فلا تحتاج إلى شىء ولا تسعى إلى شىء، ولا ترغب فى شىء لدى معرفة بالرهبان النساك، فلا كان الراهب مالاريبا يوجد حقًا فى لا شىء، فلقد أقدم على المراوغة، وقام بالتوبيخ (وغفر أو انتقم) من الأصدقاء والتلاميذ والأقرباء والملاحدة ولا حتى يوحنا المعمدان.

فقد كانت روحه تتمشى بين السحب المثقلة بالمطر، وعبر ظلام المياه الداكنة، وعبر المياه وحيداً قلقا، وهنا ظهرت ذبابة من نوع اليعسوب وحشرة مائية متعددة الأرجل، وانبعث شعاع من مادة جوهرية وجرت محاولة لحل الألغاز، بشأن التغييرات الفجائية التى بدأت ببطء، وهو غازات القصور الذاتى التى انطلقت صوب أول أميبا، تسترعى الانتباه، وتهمز وتستجدى العنصر المحفز الخفيف الراسخ. أنا أخلق أنا أعيد الخلق فى أنشودة مع ما يغلق أو يفتح حولى: الفجر أو الغسق، أو الظلمة، أو الضوء أو القضبان المسلحة أو الأبواب الحديدية.

ارتفعت من الباب أصوات تململ، وهو الباب الكائن فى جدار الجلد بالسياط. ورأى أن الأمر يتعلق بانعدام التوافق، ولكن عيونهم كانت تتابع روحه القلقة من خلال السحاب، فقاموا بإحناء رؤوسهم مرة أخرى، ثم هزوها وهم يحدقون نحو أرض الموعد حذار من أن تزرع؟ فهل ينتظر العراف مرة أخرى إلى وقت الحصاد، ثم يصدر أمره إلى الفاسقين لكى يقوموا بالتدمير؟ هل تعتقد أن الله قد عاقبه بما يكفى على هذا العمل الخبيث؟ لقد نظروا إلى البقعة الجرداء التى كانت مزرعة للجوافة فى وقت من الأوقات فانطلقت تنهيدة من وسطهم.

أواه، أنت يا قليل الإيمان. إنهم كانوا مجرد ظلال وليسوا رجالاً أسوياء. إن تصريحاتهم تتحدث بصدق حول التيارات السفلية للأمل، وتستر الفجوة، ولكن هناك ضلعًا جديداً من الإنسانية يمتد إلى أعلى من قفر ترابهم، ومع ذلك فإن انعدام التوافق الزمنى خاطبهم قائلاً: إنهم تشكلوا قبل أن تتشكل عقولهم فالعقل هو الزمن، وعلى هذا البريق الساطع تستقر الآن مشكلة الأبدية فى آخر الأمر، فالعقل هو المعادل للزمن والفضاء، فتلفح به يا بلوتو، تلفح به فى غطاء سميك من القطن لا يمكن النفاذ من خلاله.

إن على جبينى لطعة رطبة هى المطر.

الفصل الرابع والثلاثون

وأخيراً فإن السماء قد أسدت لنا يدا بمعنى الكلمة وأنا أبتسم.

فهل من المفروض فىّ الآن أن أؤمن بالعناية الإلهية؟ حدث هذا نهارا شمسه ساطعة، إذ كنت جالسا فى الخارج أحدق فى الذباب حين طار شىء أسود خفيف، واستقر على مقربة قليلة من قدمى. فتطلعت إلى أعلى حيث هناك غرابان يكادان يختفيان فى الأفق، وكنت قد سمعت نعيبهما فوق رأسى قبل ذلك ببضع دقائق. لم أحفل حتى أن أنظر إلى أعلى لأرى هذه المخلوقات، فدرجتها فى عالم الأجنة هى أدنى درجة من الجوارح. ولم يفتنى أن أشعر بالاندهاش والتأثر، وأدركت أن للطيور ذوات الريش القوى إمكانيات، قبل دقيقة واحدة من عمرها على الأرض لقد تركتها ترقد طوال فترة ما بعد الظهر، معتقدا أنه يجب على فعلا أن أؤمن بالعناية الإلهية. وأنا أعيش فى ساحة شاسعة من السجن، وعالمى لا يذهب إلى ما وراء ذلك، ولم يكن ثمة تفكير فى هذا العالم الخارجى الذى يمثل بالنسبة لحرية الطير مجالا بلا حدود. ولكن حتى فى هذا السجن، كان لدى اختيار عميق جميل، وهو أن الريش السائب قد تعين

عليه أن يسقط فوقى داخل أصغر حيز بجوار قدم شخص مؤكداً أن لديه حاجة ماسة.

هنا بدأت. وعندما استوعبت أخيراً هذه الهبة، حككت ظفر إصبعى بصخرة، وفى الليل تحولت ريشة الطير إلى سن قلم. فاكتشفت مخزون المداد الذى فاتنى رصده، وتوقفت، إن هذه المعجزة صغيرة أضفتها إلى آلاف غيرها من الادعاءات بشأن الله والعناية الإلهية. إن هذه خبرة مجردة حصلتها وهى تدوم طوال الليل البهيم، فليس هناك ما يعجل بالروح ولا بما يرفع منها، فالحجج قديمة ولا يوجد أعظم من سقوط ريشة فرخ، تشتد الحاجة إليها باعتبارها قلما، وأخيراً فإن غراباً طيباً متسامحاً نافذ الصبر، قد أطاح بركام العقل البالى. وهذه هى المهمة الأولى لريشة الطير عند استخدامها كقلم، فهى تحدث صريرا مثل نعيب الغراب، وهى مع ذلك تكتب ما يلى:

النار من حجر الكحل فى الشمس.

عرف الأسد الأسود المنحنى.

من حظائر للصلوات غير منطوقة.

سقطت.

منحته الوحيدة من السماء.

مطرا من فحم نارى – لأنه.

قد سخرت منه عين شاعرية.

وطار.

بطريقته الخشنة، ولكن بصورة جديدة.

يردد نغما بكرا من فمك المقدس.

وإذ تدق الطبول عند الصدع المرتفع فى الجدران.

فإن ذلك هو قربان التضحية.

(ريشة من جناح غراب).

الفصل الخامس والثلاثون

جميع الأرواح تتآلف - جميع الأرواح تجتمع على شكل أشباح رمادية. أما فى الليل. فإن جميع الأرواح تكون فى وحدة يوما بعد يوم، مجتمعة فى سرداب لا يدخله هواء، وفى ظلمة تشبه ظلمة الكاتدرائية. والشموع تنشر سحبا لزجة لا لهبا يتراقص. لا توجد صورة ملونة لأى قديس فى النوافذ المطعمة بالرصاص. وهناك أبسطة للرحمة، وربوات من السحب، وأقدام ثقيلة للحزانى، وأكفان رمادية، وقشعريرة الأرواح أثناء أداء الشعائر المريمية فى القبور.

أصوات خافتة واسطوانات قديمة متهالكة، تعزف فى غرف الحزانى من آلة جراموفون كثيرة الأزيز الصادر من أجهزتها الصدئة، فتتسلل منه أصوات ميتة، وهناك أقدام بلا أعصاب ذات أغشية للامتصاص، تتحرك فى حركات مجهدة، بينما تصدر عن قدم عصبية ضربات متقطعة فى كهوف موحلة. وهناك قطع من الإسفنج المبلل لامتصاص أشعة الضوء.

أما السماء فهى سمكة بلا زعانف وبلا عيون، ميتة ومنتفخة ومطروحة على المستنقع. وكتلة متورمة رمادية اللون تعانى من القصور

الذاتي مهمتها إخفاء سماء الحياء. وهناك جسم متضخم الجثة متهدل، ليست له رائحة، ولا فيه نتانة، وهو بيضوى الشكل عامر بظلال لا نهائية لذاته، وهناك تيار مائى تحت البحر رمادى اللون خامل، وهناك كتلة من الموات خاملة بدورها، وهى تنتج ستاراً خاماً سائلاً بمجرد تعرضه لضغط خفيف من طرف التفكير العسير، ثم يستدير إلى الخلف إلى مكانه وهو فى حالة تأمل، وليس ثمة ما يخترق الكتلة العديمة الشكل، ولا يوجد ما يمزق جلدها المصنوع من الوسن الأبدى. وإن اجتماع الإرادات لهو اجتماع قصير الأجل يمثل ضياعا للجدوى. إنه يوم البرص، يوم أعماق مقرحة ليس لها اسم، يوم أهوال هجينة.

يمر الزمن من خلال مزيج من الجو الفاسد وغمرات المياه، وينساب من خلال عالم من وبر الحيوان، بل من خلال صدمات ونيران، طهرته من الصوت المتداعى، وطهرته بصورة مملة من معالم الذاكرة، فلا خوف من سقوط، ولا انزعاج من لهب لا نهائى يتحرك ليدفىء الأصابع المخدرة والأسنان والآذان والعيون وأحاسيس اللسان، رغبة فى الوصول للراحة فى وضوح الصوت. وما هذا بضرب من ضروب التصنيف الثرى الشديد الوعى بالمقاييس الفردية، بل إنه الماء الراكد والدفة المفقودة وهى تخوض وسط أبخرة نتنة مهتاجة، وهذا كفيل بالقضاء على روابط هزيلة بفعل لا شىء. وإن الزمن إذ ينطلق من الإنكار الفائق لجميع الاتجاهات فهو يتحول إلى دائرة زلقة من نسخ رديئة تتفتت على شكائم قضبان السكة

الحديد فى طريق عارض يغوص فى حفرة محاولا البقاء شيئًا فشيئًا، حيث يكون الضجيج خافتا، وحيث يكون هناك خواء صامت كثير الألوان.

وهناك مغارات مظلمة، فى حين يتوزع وميض خافت من خلال الجدران المرتفعة على البحر أمام المستنقعات. وهناك أشكال لا حصر لها تمر بمنأى من فتحة مغارة نائية، وهناك سحلية ترقد على الحائط لا حول لها ولا قوة. وهناك خندق حول الفراش الذى أحدثت فيه بقة ثقبا وندبة. وهناك منحدر من غابة تقع عبر ممرات تعرضت للنخر فى منحدرات تل صغير كئيب. وهناك سحلية تنطق عيناها بأمارات التسلية والخرس، وهناك ناقوس رطب يدق داخل وخارج أطراف الوعى، وهناك نوبات من فتور آلهة لا توقظ شيئا، ولا حتى الأصداء.

والأسطح مغطاة برصاص لامع، يبدو أن هناك زجاجا ذا لمعان خادع، تسقط منه نقاط رمادية رصاصية بعد توقف المطر. وهناك إسفنجة من الخارصين (الزنك) المجعد تمتص الرطوبة من الهواء، وهى قد حلت محل الفضاء المحتجب والسماء المنفوخة. وهى تجلس القرفصاء متجمدة تمامًا، مثل حضور يفتقر إلى القوة. مثل عالمى فى هذا اليوم وهو بلا كيان أو تعريف فى فضاء لا وجود له.

الفصل السادس والثلاثون

تبدأ جولات الافتراس بالأمطار. دفقة قصيرة عنيفة ذات مساء ثم قرقعة البرد. (قصف قطع البرد) هذه نهاية إعصار هارماتان. لقد استمر الإعصار لمدة ساعة، واندفعت الريح تكتسح المكان فى طريقها إلى الجنوب. ونزلت الأرض خلفها مبتلة بعمق، وتموجات حلوة فى الهواء؛ لقد انتهت فترة البيات الشتوى، وخرجت الخنافس، والنمل الطائر، والذباب والهاموش، وسرب عنيف من ذوات الأجنحة الهشة يهاجم المصباح الوحيد فوق العامود، إنها دورة شغب عنيف أعمى بعد نوم ساكن طويل. أشبه بجلود مائية فى واحة بعثت منها الحياة من جديد. قنوات الحياة جميعا بدأت تنتفخ زنبات الحشرات، ومخالب الوحوش. المخالب الجافة تتطلب شدا، زنبات الحشرات تنتفخ استعداداً، وذيول السلاحف تأخذ منظراً حسنا. الحياة تتسلح استعداداً لجولة طويلة مع الوحوش المفترسة.

يدخل سيد الغابة، إنه مفرط الضخامة، طيف ملكى. هذا القرش المخاتل بين الأسماك الصغيرة،. من المؤسف أن الأمر صحيح، فليس له سوى عين واحدة" لقد سمعته من قبل، ورأيت لمحات من كيانه الغامض،

ولكن رأيته كخيال فى الليل، غبش وحشى مرتعد من كرونوس، ملك الارتداد الزمنى فى العالم السفلى. كنت بالنسبة له شيئًا ميتًا كالحذاء الذى يحسه فى أغلب الأحيان، كركلة أمبروزو الغاضبة عندما يستدير بأنفه نحو اليسار. لقد تعلم ترتيب الدربخة (ترتيب يخضع فيه الطائر لنقر الطائر الذى هو أقوى منه) من المشرف العام على ورق الشجر. تعلم أمبروزو أن يهز رأسه ببطء، ثم يمد ساقا أمامه بعد الأخرى فى فتحة المياه، متنبها لكى يسمع صوتا أو يشم رائحة عدائية، حينئذ لاح بريق على طول الجدار فى داخل الظلمة البعيدة، مخلفا قطعا من الفراء المسلوخ على الشبكة الحديدية، مع نزول المطر يعود الملك ليو إلى مملكته جسوراً وفاسداً، وهو الملك الأعور فى عالم الحشرات، إننى أرى تدهور منظره كقط سنورى.

قط متوحش أو أليف، فهو يتحرك فى أبهة لا مثيل لها فى عالم الحيوان، تغير ملكى للمحاور العضلية فوق الكتف، وتدفق متواصل للنبض المرن، حتى فى اللحظة التى يتجمد فيها. فى الظلمة يبدو أى قط أشبه بوجود فراء يتذبذب، بشكل مخيف، بعد أن تحمر عيناه الزمردتين المنومتين مغناطيسيا فى الظلمة.

النمر، النمر، يتألق محترقا.... .

أوه بليك، بليك المسكين، كان يجب عليك أن ترى الملك فى هذه الغابة من الجدران حيث نتعلق جميعا بكل حيلة من أجل الحياة، بهيكله، بهيكله الخفيف والمضبوط المتناسق، يخطو ليو خطوات وقورة من طرف

أنفه حتى ذيله، حتى ذيله المتذبذب الباحث عن شىء، لكنه يبدو فقط فى بروفيل من الجانب الأيسر، لأن الجانب الأيمن قرصان غوغائى شرير له رقعة عين معتمة، تجعله هزأة بأسلافهم من فصيلة القراصنة.

مشى يتبختر. ينكمش. يقفز. القربة - إنها خنفساء أو فرس النبى، لكن ليس هناك أسوأ من صوت مأدبته الملكية، حيث يقرقش طعامه باستمتاع شره وأنا - أقسم لك - أن صوت اصطدام شفتيه بعد أن أتى على آخر جناح يصلنى من بعيد. يأسف هذا الأعور بعد قضمه المقزز لقطع اللحم ويداعب معدته عقليا! هذا يمكن أن يكون مجرد تخمين لكنى أقسم أنه حقيقة، اننى أرفع رأسى للسقف لكى أمحو هذا المشهد.

فوق العارضة الخشبية للسقف، يتمدد وحش مفترس آخر فى انتظار الفريسة، إنه برص الحائط السام، مصابيح عينيه ذات لمبات خرزية مركزة فى ثبات ساحر، على الضحية الغائبة الوعى. أضواء أمامية عالية من المصباح تلقى به إلى الوراء، إلى أسلافه من الحيوانات المنقرضة، عينا البجار القديم اللامعة الضخمة. تأتيه الذبذبات الواحدة بعد الأخرى دون مقاومة. تدخل فى مدار هذه العيون المغناطيسية، فينفتح فكاه ويمتصهم داخله.

تبدأ قرينته زحفها البطىء نحو فرس النبى، العيون عبارة عن أضواء أمامية فى دبابة مدرعة ترقد الآن ساكنة على جانب من العارضة

الخشبية، ولكن هذا الجانب فى الزاوية اليمنى من فرس النبى الذى يتحرك وهو فاقد العقل. إن مشكلتها الآن هى هذه الزاوية، كيف يمكنها أن تلف حولها بسرعة كافية، تمكنها من ضرب فرس النبى قبل أن يتنبأ بوجودها، وتحافظ على قبضتها على العامود الخشبى. وتحتها نمر، نمر، يحترق بدرجة أضعف، يواصل مشية الخنافس الملكية؛ وفجأة يحط على جانبه الجميل برص الحائط وفرس النبى. يفزع، ليو يقفز إلى الخلف طائرا ولا يحس برص الحائط بالراحة على مستوى الأرضية، لكنه يعود فى الحال يقفز فوق الحائط تاركا خلفه باراشوط أخضر سيئ الإضاءة من فرس النبى الذى تم القبض عليه، يتأكد ليو من مسافة آمنة، برغم هذا يمشى فى حركات نحو هذه الفريسة المشلولة ويمشى يتبختر، ويقرقش، يقرقش ثم يمصمص شفتيه.

يعمل جامعو اللقاطات بلا انقطاع. بق، نمل طائر، صراصير، خنافس ميتة وأخرى فى حالة احتضار، أغفلها القرصان تجرها جيوش النمل لا تكل ولا تتعب إلى كوات تحت الأرض. يمشون فوق ضفاف عالية من الرمل الناعم، يقودهم جنود ذوو رؤوس كبيرة. وهناك كومة من نفايات الأجنحة ترقد خارج الطرقات المؤدية إلى جحورهم، ترتفع قليلا مع حركة النسيم كأشباح تراقب ممرات العالم السفلى. تتضاءل رفرفة الأجنحة حول المصابيح المضاءة. غارقة فى جردل الحريق، يمتصها أبراص الجدران، ازدردها القرصان ميتة بعد دورانها فى تدريبات غير معقولة.

إن قوة الطيران مصحوبة بضجيج، أثارتها نداءات المطر وهى تتضاءل حتى آخر حشرة وحيدة تزحف على المصباح. وأخيرا يتم حمل آخر جثة على أكتاف غير مرئية نحو مخازن لانراها، جناح واحد سقط على مدخل الكومة من أجل مشروعات بناء فيما بعد.

شيء واحد، هاموشة مخالفة ابتعدت بعيداً عن احتفال الضوء. هناك وجود لكائن سمين، رابض على الحائط، لقد ظل فى هذه البقعة، دون أن يهتم بالضجيج الذى يجرى من حوله. عينا البرص مقنعة أخيراً، يمتد نتوء معدته السفلى فوق العارضة الخشبية فى تخمة ظاهرة. لقد انتهت جولة المطر الأول الليلية.

الفصل السابع والثلاثون

النهار يأتى لنا برجل ساخر لا نهاية لنكته، هو ذكر السلحفاة. رأس كبير الحجم مصنوع من عجينة الأوراق فى لون برتقالى صناعى واضح. يغطيه ثوب شديد الزرقة حتى الذيل، بطرفه لون برتقالى باهت. وهو غير محترم فى الصيد، يفتقد حتى عظمة القرصان الساقطة. إنه يجرى فى عماه وراء ذبابة لكى يحيط بها من كل ناحية. ثم يشتبك فى عملية مغازلة لأنثى مغناجة. إنها تعيره وتقوده إلى الامام بذيلها المرفوع وفتحتها التى تخرج البخار، تعرض مؤخرتها فى مزيج من التوقع والحذر. إنه ينوى العودة إليها مرة ثانية لكن فى نفس اللحظة مرت من خلفه فراشة على بعد ميال فوق رأسه. يهز رأسه جانبا ثم إلى الجانب الآخر، يدحرج عينا بعد أخرى على أمل ظاهر فى الحصول على لقمة سائغة لم تكن أبدا بعيدة عن متناول يده.

إنهم يمارسون الجماع بصورة لا تنقطع، حتى أصبح القبو وكرا شهوانيا لممارسة الجنس، سوف يصبح حرما للسلحفاة، أيضا لكن أمبروزو، عندما تصيبه روح الملل، يضربهم بالحجارة والعصى.

أحيانا يذبح ثلاثا أو أربعا فى ظهيرة واحدة، إننى أسأله. لا. إنه لا يكره السلاحف. إنه يقوم بتكويم الأجسام ويشير فى فخر إلى حصيلة اليوم.

ذو الرأس البرتقالية يقوم بتقديم محاكاته الساخرة للبرص. إنه يقطع شجرة الليمون منبطحًا على الفرع، أسلوب البرص يدمر الكمين القصير بالاندفاع إلى الفرع التالى، ليبقى فى توازن مع الفراشة التى استمرت تحوم بعيدا حتى لا يصل إليها أحد، فهو يخفى رأسه تحت بعض الأوراق، يعى جيداً كل حيل التخفى. نسى بطريقة طبيعية جلده الأزرق المغطى بالأصداف، والبرتقالة البشعة فى ذيله. لقد اختفت الفراشة منذ وقت طويل. وظل ذو الرأس البرتقالى منتظراً، رغم أنه فى حالة تخفٍ كامل لا يظهر، مستمراً فى الانتظار.

أخيراً نزل إلى أسفل ليجد العزاء فى عيدان الخس الجديدة التى يقرضها بنوع من الاستمتاع العصبى. وحينئذ يخطىء، فيظن أن البرتقالة التى فى وسط الخضرة من بعيد زهرة؟. تنزل الفراشة على بعد بوصة فقط، يتحقق من خطئه، فيجمع قواه استعداداً للتراجع. لقد فات الأوان. هناك هوائى على طرف الجناح. يمتدح ذو الرأس البرتقالى هذه المنحة الربانية بصوت مسموع، وهى بالتاكيد ليست من ثمار مهارته أو مكره، فهو يندفع بعصبية فى جميع الاتجاهات. يلتقط قطعة من جناح ساقط، ثم يعود إلى الخس.

هناك أسباب فى الفن الشعبى، لماذا تهز السلحفاة رأسها. أو فرس النبى. دون شك مهما كان المرض الذى ترثه السلحفاة من جدودها، فإننى أرجو أن يخرج منها يوما ما عند مقابلة سلحفاة عظيمة. المشهد الآن عبارة عن تجمع قبلى لكبار السن المنحرفين، يتمشون أو ينشرون قشورهم الصدفية فى الشمس يحكون الجزء السفلى الحساس من معدتهم فى الحافة الخشنة من الحائط. يهزون رؤوس القرع المهروس فتتوازن فى سكرها، كما لو كان يطفو فى مشهد فخم يسلبه مكانه بين كبار المفترسين. وعندما يقوم بضبطهما، فهو ليس إلا طفل يلعب الاستغماية.

مع ذلك ففوق قمم الجدار، نجد ذا الرأس البرتقالية عبارة عن وحش فى تحولات شكلية ضخمة. تحول وانتقل عائداً إلى المملكة الخفية بين الأشواك الحارة لشظايا الزجاج فى كل نغمات الأكوامارين، العنبر، والأخضر، وحش برمائى يسحب رأسه الحديدية المسطحة إلى الخلف، فيصل بسهولة إلى أعلى قمم الأشجار. عندما يرفع ساقيه الأماميتين ليقوم بعملية مسح للسموات والمستنقعات. هذه الرؤوس المخروطية تمتزج مع أرض الوحش المكعبة، منظر طبيعى ذو مدرجات خضراء فى تنويعات الصبار المستقيمة الطرف، عمليات نماء أو تنمية لها ألوان زاهية صافية، تقذف النقاط المسننة من أجل تكوين خط سمائى للتحذير. وتد مفاجئ من البرتقال والصلب الأزرق، يصنع مجارى ذات زوايا تميل

إلى ما بين أضلاع المنشورالمخرومة بكثافة من ناطحة السحاب هذه تأتى موسيقى القبو، وهى عبارة عن دندنة شرقية تخرج من أنابيب مجوفة كلما اصطدمت صدفات السلحفاة بلوحة المفاتيح الزجاجية بسرعة عالية. عندما تقع مبارزة بين الوحوش – جزء يضرب، وجزء يهرب ويطارد، وتظل الموسيقى مستمرة طويلاً، موسيقى حقيقية لأجواء تتحرك عبر فيلترات شمسية، تقرر النغمات الثرية الجميلة لتحقيق التناغم كلما اصطدمت الصدفات بالمفاتيح المتزامنة فى صراع بدائى.

لقد هبطت الشمس تحت مستوى الجدار، وأخذت تنزل خارج دائرة الرؤية. أخذت أشعتها الصامتة تتناغم الآن مع الكونشرتو، وهى سيمفونية ساعة الشفق عند السحالى العملاقة، إنه فجر العصرالأول الجليدى.

إننى جالس فوق عالم ميت. سماء نحاسية حمراء بأعماقها الرمادية الزرقاء، تعكس المستنقعات الأزلية البعيدة المختفية. لقد بدأ سكان العصر الجليدى نموهم الخفى، قطع الثلج الضخمة تنبت من جانب الوادى، جيش بارد من الأقماع المخروطية يتدافع دائما إلى الخارج فى مزايدة لا ترحم من أجل الحياة، التى تتوازن نحو حالة سكون نهائى. عنبر. أخضر، أكواماريان، ومنشورات الطيف صفراء باهتة، إنهم يحملون الشمس التى تحتضر، يضعونها حتى تدمى عبر آلاف المنشورات العاكسة.

صـيـاد، يدخل أمـبـروزو الذى يمثل المفـارقـة الزمنيـة، يزحف على الحائط لقد اندفعت السحالى إلى الأمـان فى زخات الجليد، حيث يعرفون أنه لا يستطيع أن يتعقبهم، إنهم لا يفهمونه ولكنهم يخافون الإنسان. يرتفع نحيب رقيق من طيـرانهم وبشكل غـريب، سلسلة من النغمـات والصفير من أنابيب أورج رائقة صافية. يتصدى الإنسـان لفحصـها، وهى تقفز إلى أعلى وتضـرب بعكاز ناعم، كثـيراً من قطع الجليد التى انفصلت وسقطت فى أعماق الوادى، محدثة طنطنة حزينة. أمبروزو الآن متوحش إنه يجرى إلى أعلى وأسفل الجدران، يدفعها إلى الأمام وإلى الخلف على طول الفقريات الجليدية. يقوم زميل آخر من الصيادين بقيادتهم إلى الخلف حين يهربون إلى الجانب الآخر، بحثا عن ملجأ. تتابع سريع للنغمات، حشرجة طويلة، هرولة عصبية للأصداف نحو الشمس. يخطىء أمبروزو إحدى الفجوات فى الزجاج، فيطير حجر الصوان، عاليا نحو السماء فينفجر صوت نشاز مميت فى نبضات لها لون جديد، تفكك لونى يزغلل العيـون ويصم الآذان، يهطل إلى أسفل فى شذرات رطبة لآخر دقات الشمس.

ألعـازر يقوم من الأموات، يدخل القبو الداخلى وينتظر دحرجة الحجر إلى مكانه بالليل.

الفصل الثامن والثلاثون

لابد أن المباريات التى لعبتها بالرياضيات قد ذهبت بعيداً. لقد انتقلت إلى عمليات عينية كبيرة، وانغمست فى بعض المبادىء التى تتعدى المعقول إلى مناطق غير صحية. أما ذكرياتى عن هذه المرحلة فهى غائمة ومخيفة قليلاً.

من مجرد الانبهار بالزمن كمعيار، كوحش يحمل عبئا من الرحم والقبر. أخذ الوقت ينسج أنواعا من الفنتازيا حول أرقام ورموز تمريناتى الجبرية. لقد بدأت، على ما أظن، بفكرة أن الزمن يجب أن يكون مرتبطا عضويا برفيقه فى الأبدية وهو المكان: إن هذا يتطلب فقط اكتشاف المبدأ الرياضى الصحيح. أن يكون هذا فى مجال الإيجاز الإنسانى، فهو أمر ليس محل اختلاف، لقد كان فى الحقيقة مجرد سؤال عن الزمن قبل الاكتشاف، وكان الزمن سلعة كنت موهوبا فيها. لا أستطيع للأسف أن أتذكر معادلة أينشتين الخاصة بنظرية النسبية، لكننى واسيت نفسى بأنها لم تتناول سوى جانب ضيق من جوانب الزمن. من وجهة نظر استنفاد الزمن، فتلك كانت مسألة مثالية، لكونها لا يوجد لها حل، لأن العقل الذى أصابته عدوى الانحياز نحو التركيز الخاص المستمر،

فإن فكرة ربط الزمان بالمكان رياضيا، فى نطاق فكرة الأبدية (اللانهائية) كانت فنتازيا شديدة الخطورة.

لقد كنت دائما على حافة إنجاز هذا الاكتشاف. ساعات من النوم كانت تضيع، يتم فيها استهلاك الزمن بطريقة صحيحة جدا. ومازلت حتى الآن غير متأكد كيف وصلت إلى النهاية، فالشخبطة العصبية للوسواس بالليل، وزيادة الحسابات المهملة بالنهار، والطيران المعجزى للزمن، هو محو للواقع، للمحيط الواقعى الملموس والبيئة كلها من حوله، عدم التسامح فى تناول الطعام وفقدان الوعى الخاص بشخصى أنا. هذا الخداع التصورى حفر حفرا عميقة وواسعة داخل عقلى المخصب بالسماد البلدى (بزبل الطيور والحشرات) تعطى براعمه سيقانا مسمومة تتفجر بين وقت وآخر، وتنشر دخانا حارقا فى مسام عقلى.

لقد انتهت على أى حال، وفى يوم من الأيام، بعد وقت طويل أخذت أبحث فى بعض المخابئ الخاصة بى، عن بعض أبيات الشعر المفقودة فاكتشفت مساحات كبيرة من ورق التواليت، وعلب السجائر وسطح آخر ثمين مغطى بمعادلات لم أستطع فهمها، رموز لم أتمكن من نسبتها إلى أى قيمة كمية، دون أن أتذكر فى أى وقت وكيف على وجه الدقة جاءت إلىّ وكتبتها، فى أى مرحلة من مراحل التسكع، على الأقل متى أو كيف خبأتها. وبفعل الخوف والفزع مزقت كثيراً من القطع الخطيرة وبدأت أفرض رقابة واعية على أعمالى، وأفكارى، ونبضاتى، فاحصا الحراس أيضا لأكتشف أى علاقة أو تغيير فى طريقة مراقبتهم لى.

الفصل التاسع والثلاثون

•

أربعة مخلوقات داخلية، ميكروبات لكنها تملك موهبة الأسئلة. عن ماذا تبحث؟ أو إلى أى شىء تسعى؟ عقلى عبارة عن لفافة من القطن والصوف الواعى، يمتص كل شىء، ولا يخلق شيئًا. وفى حالة الموت التى تسكن القبو أجلس بلا حركة فى الشمس وأنتظر.

لقد اختفى الباحثون، لقد جاءوا يسألون، يتجسسون ويستقصون، بإصرار. أنت تريد الطائر الذى طار.

أنا لا يعوزنى شىء. لا أبحث عن شىء. لا أرغب فى شىء.

صيحات شديدة. تلطف ومخادعة. هذه الميكروبات المثابرة. وقصاصات هامة من الورق ترفرف فى أيديهم.

لقد تضاءلوا حتى جاء أخيرًا المشرف الكبير. هل تظنون أنكم تلعبون بنزاهة؟ إنكم تقومون بحماية أحد الأشخاص ولكن هل فكرتم فيمن تدمرونهم فى هذه العملية. إن لديكم مراسلا. نحن نعرف أنه واحد من.... .

الملائكة الحراس يحملون عصيا مشتعلة؟ حتى بوابات الجحيم يمكن الوصول إليها. لقد طار الطائر فهل سيستريح الآن؟ هل يمكن أن تضعوا ملحا على ذيله؟

لقد كنت عطوفا معك. لقد انحنيت عليك لكى أجعل هذا المكان أكثر حيوية؟ لقد أشفقت عليك فى محنتك وقدمت لك مزايا... مزايا! أخيراً تجاوز الحدود. غضبى مقدس، ولكننى أنظر إليه باهتمام. وأتذكره. الشخص الوحيد الجدير، ليس الضابط الكبير، التى يبتسم ابتسامة خالية من كل معنى، إننى أنصت:

"لقد كافأت ثقتى بالخيانة. أنت تخبرنى الآن إننى أخطأت لأننى كنت أتعامل بإنسانية. أنت تعرف الحالة التى وجدتك عليها هنا. شعرت أنك يجب ألا تخضع لهذه الظروف التى لا تناسب أى كائن بشرى. لقد خففتها حيثما استطعت. لم أفعل شيئا سوى الاستجوابات. يمكننى أن أريك الملف، إنه ملئ بالاستفسارات. لا أعرف أى جواسيس هنا، أو من الذى نشر الشائعات حول حرية التصرف التى أعطيتها لك منذ توليت وظيفتى هنا. لقد جاءت لنا جماعة من الباحثين من المركز الرئيسى، جاءوا بقصص، إننى كنت أسمح لك بالتجول بين النزلاء الآخرين، حتى إنك كنت تتولى فصولا وتقوم بتدريس فلسفات هدامة. لقد طلبت منهم أن يتجولوا بحرية فى العنابر ويسألوا جميع الحراس. دعوتهم للذهاب مباشرة، دون أن يرافقهم أحد إلى حيثما كنت توجد، ليحكموا بأنفسهم. لقد رفضوا، لقد اضطهدونى بسبب معاملتى لك. حذرونى فى آخر خطاب،

بألا أسمح لمشاعرى الطيبة بأن تتغلب على إحساسى بالواجب. تمنيت أن أحضر لك هذا الخطاب، لكننى لم أسمح له بأن يتدخل فى مفهومى لما يجب أن تكون عليه اللياقة. فأنت إنسان بل أنت إنسان – ذكى. يجب أن تعامل كإنسان. حسنا إذن، إننى أتوسل اليك كإنسان ذكى، هل من الإنصاف لى أن تكون حمايتى لإنسان خان وظيفته عمداً، أن تحطم حياتى العملية وأن تضعنى فى مأزق؟ تقر أنك محارب من أجل العدالة. وأنا أسالك؟ هل ذلك عدل؟"

سوفسطائى! اللعنة على الموظفين السوفسطائيين. عليك اللعنة! هذا الجحيم هو ميزة؟

الجديد: قام مانح القوانين بامتحان مطالب العدالة. ينبغى على أن أضع مجموعة جديدة من التوصيات، ولدى الوقت. فالذى يظن أن الوقت طاغية يجب عليه أن يتعلم الصبر – مثلى.

لكنه عاد سريعًا جداً. هذا ما لا يستطيع بلوتو أن يفهمه. بدا شديد القلق، يرفرف كدجاجة. ما هى تلك المشكلة الضخمة التى ضمها فى الكتالوج وهو يلهث؟ لقد ازداد نموه الإنسانى أكثر فى كل زيارة، وقد بدأ ذلك يترك انطباعًا. لأن المشرف الكبير كان شخصية طاهرة لا تشوبها شائبة فى خارج كما فى داخل عقله الشديد الملاحظة. إن زراير سترته مطعمة بالنحاس، علاماته تلمع، حزامه، كاب الرأس يبدو ملونا بالمانيكير عن طريق زوج من الخدم، وإن مسكه العصا متعة رجل تقى القلب يحب القرآن.

والآن قد عاد بدون الكاب والأزرار التى لم تغلق، وارتخت البدلة عليه. وبدا أن بنطلونه يحتاج إلى حزام أو حمالة. ليس فى يده عصا، وحذاؤه المدبب يغطيه التراب يتحرك بخطوات ثقيلة من باب إلى باب، وهذا مؤكد، يبدو من مكتب من؟ وأخيرا، كان غير حليق الذقن، الحلاقة على وجهه كانت منذ يومين على الأقل، وفجأة ظهر ارتخاء زيه الرسمى – إن المراقب الكبيرقد فقد كثيراً من وزنه!

لقد جئت لأسألك إن كنت قد غيرت رأيك. هل ستقدم المعلومات التى طلبتها منك؟.

لقد نزل بلوتو إلى الأرض، لكى يتأمل حال الإنسان. إنسان يصرخ طلبا للنجاة، لكن يسألونه فى المقابل إدانة إنسان آخر. فغر فاه واستغرب، ليعيش للمرة الثانية صدمة ورعب المحنة الإنسانية التى أعيشها. حتى فى هذا المكان الجهنمى. محروم من الهوية، من الاختيار، عاجز ومقيد بالسلاسل، وممنوع من ممارسة النشاط الإنسانى، ليطلب منى أن أختار بين مصيرين. من يجرؤ على فرض هذا الدين الأخلاقى؟ ثانية فى دورة للبحث عن أمان إنسانى من الوحوش المفترسة. الخيانة بديل عن تحمل التضحية. الأقل من أجل الأكبر. الذى لا صوت له من أجل الوظيفة. ليس هناك تقدير أو حكم، لا توجد إدانة حيث الخوف مفرغ وحقيقى. فجأة بدا لى أن هذه المشكلة صغيرة، صغيرة إلى حد الازدراء وتحتاج فقط إلى خيال دنيوى.. لماذا . لأنه مازال الناس القدامى هم الذين يضايقوننا، نفس الطغيان.

قال أنا لا أفهمك. لكن من الأفضل أن أخبرك أن هؤلاء الناس مقتنعون الآن أننى كنت أهرب الأوراق من أجلك. فى الحقيقة هم يبحثون باستماتة عن الأصول، لأنهم يريدون أن يراجعوها، إذا كانت الورقة قد جاءت من مكتبى. عرضت عليهم كل الأوراق التى أخذناها منك، وزجاجة حبر الصويا أو كيفما نسميها. لكنهم ما زالوا يظنون أننى كنت أحتج على كل أعمال التهريب. إنهم لا يستطيعون أن يعرفوا كيف يمكنك اقتحام الترتيبات الأمنية. إننى أخبرك، هناك لحظات أوشك أن أقتنع فيها بأنهم على حق، لأننى لا أعرف كيف فعلت أنت ذلك، إنهم يفتشون الحراس قبل وبعد مجيئهم للعمل. من الذى ساعدهم يا مستر سوينكا. فقط أخبرنى من هو وأعدك أنه لن يمسه أذى.

صوت غريب سحقته حينئذ – ماذا كان ذلك؟ صوت يتلاشى من بعيد، حافز نحو إعادة تعريف الإنسانية.

مستر سوينكا؟ نعم، لقد نسيت. إننى مازلت سوينكا من الجنس الإنسانى.

"حسنا أمهلنى بعض الوقت لأفكر فى الأمر".

رفع يديه إلى أعلى" لكن ما الذى لديك لتفكر فيه؟ هؤلاء الناس مازالوا ورائى....".

"أرجوك! رغم كل شىء فقد وقفنا عند هذا الأمر بضعة أيام.

وأنا أطلب فقط ساعتين....".

"كم من الوقت إذن؟ كم من الوقت؟"

"ساعتان"

"حسنا. الساعة الآن الحادية عشرة. سوف أكون هنا الساعة الواحدة. وسوف أحضر معى رجال الأمن حتى يسمعوا الحكاية بآذانهم. لا أريد أن أسمعها بنفسى ثم أكتب تقريرا. لأنهم قادرون على أن يتهمونى بأننى أخطط معك. سوف أخبرهم فقط أنك طلبت منى الحضور الساعة الواحدة لكى تعترف بكل شىء".

"أنا لم أقل شيئا عن الاعتراف".

"مستر سوينكا. دعنى أقول شيئًا. إننى آمل".

أرجو مخلصًا إننى عندما يتم حجزى فى الزنزانة التالية لزنزانتك. نعم سوف أطلب ذلك بصفة خاصة. لأننى أريدك أن ترانى كل يوم، وأن تجبر على التفكير فيما فعلت بى. سوف أطلب من أولئك الرجال أن يرافقونى إلى هنا فى الحال. فقط أرجو أن يتغلب إحساسك بالعدالة.

عند البوابة، حيث يتجمع الضجيج - فى مثل حالات الأزمات حيث لا يجرؤ أى حارس غير العاملين أن يدخل فى القبو، اتصلت المفارقات الزمنية من خلال صلصلة الباب، ولخصت الموقف على أنه انتقام إلهى من المراقب العام لتدميره المحصول، ناسيا أو ربما لم يستطع أن يتصور أن هدم الأساسيات كان منسوبا لأول علامة خرق لجدران السجن. سحقت النغمة الإنسانية الصغيرة للتوقع، الإثارة التى تحدث لسقوط رجل آخر.

لقد حدث. والأكثر من ذلك، هو أننى أحسست، وليس لدى أدنى شك بتأثير رسائلى، عالم الأحياء. لقد حان الوقت لوضع نهاية لفترة صيامى. لقد انتهى القتال، النضال من أجل حب إنسانى. لقد ناديت على الحارس بعيداً عن الثرثرة عند البوابة وأرسلت كلمه للطباخ.

كلمة بسيطة بصورة عبثية: مجرد أن الإنسانية الحنونة اخترقت حالة عزلتى الطويلة، طفيليات اللامبالاة التى انتشرت وغطت جلد المشاعر إلى درجة تشويه الوعى ولو للحظة. لقد ذهب رجل القانون لينام وخرج الثعلب، اندهشت كيف أمكن لكلاب الظلمة هذه أن تخلق وتتابع مهنة لا داعى لوجودها. لقد قام ثعلب السجن وشم الهواء، وهجر وكره الشتوى.

لقد جاءوا سريعًا دفعة واحدة، ضابطان من الأمن، والمراقب العام ورئيس الحرس، وعسكرى ومعه قلة من الحراس الصغار جاءوا للشهادة. كان وجه ضابط الأمن مشرقا.

"حسنا، مستر سوينكا، إننى مسرور أنك قررت أن تتعاون. أؤكد لك أن الرجل سيأخذ إنذارًا فقط". قاطعته وأعلنت الآتى: أحد رجال دورية ليلية هرب المذكرة لى.

خرجت منه تنهيدة مسموعة، نعم حرفيا، رنت وسط الجمع.

"هل يمكن أن تخبرنا باسمه؟"

"لا أعرفه".

"متى؟ هل تذكر".

"لا"

"على وجه التقريب، من ثلاثة أسابيع؟ أربعة؟ خمسة؟"

"إن الانسان يفقد الإحساس بالزمن هنا. فبعد قضاء فترة لا يكاد المرء يميز بين أسبوع أوشهر".

ياالهم من سذجّ! هل ظنوا إننى سوف أمسك متلبسا بهذا الشخص؟

"هل يمكن أن تصفه لنا؟"

"صعب.. كان ذلك بعد موعد الإغلاق، لم أستطع أن أراه رؤية كاملة".

"كيف تعارفتم؟"

بالكلام. اعتاد أن يسألنى هل أنا بخير وهكذا. وحوالى اليوم الثالث أدهشنى أنه أثبت أنه كان مقيدا فى هذه الناحية. كان صوته رقيقا".

"هل كان شابًا أم هرمًا؟"

"من الصعب أن أقول ذلك، من النوع المتوسط، على ما أرى".

"هل عليك أن تصف وجهه؟ لابد أنك رأيت وجهه فوق هذا البرواز".

"لا يوجد ضوء كاف فى الممر كما تعرف. وكان دائمًا يرتدى غطاء الرأس، وهذا يلقى ظلا على وجهه. إذا نظرت إلى مصباح النور...".

"لكن من المؤكد أنك عرفته معرفة جيدة جداً. فانت لا تستطيع أن تثق فى خطابات من رجل تقابلت معه. لابد أنك تكلمت كثيراً معه. لابد إنه شد انتباهك كإنسان يمكن الاعتماد عليه، حقيقة، يا مستر سوينكا، إنك لاتتوقع أن نصدق أنك تعطى رسائل لشخص غريب تماماً".

"لماذا لا، ليس فيما كتبته شىء خطير. مجرد رغبة إنسانية فى الاتصال بالناس فى العالم الخارجى. لقد خاطرت، فربما شخص مزروع للإيقاع بى.

"لكنك رأيت جزءًا من وجهه. إطار غامض على الأقل أوه، رأيته".

من أى قبيلة هو؟"

"تكلمنا لغة إنجليزية مكسرة؟

"لكن بالتأكيد أنت....".

"لست قبليا. قبيلة الشخص لا تهمنى".

عقد الجستابو والسجن جلسة تشاور قصيرة.

الاقتراح التالى يمكن توقع مجيئه من شخص أحمق مخدر.

"حسنا. افرض أننا نظمنا استعراضا للتعرف، هل يمكنك أن تتعرف عليه؟"

"بسـهولة..". لقد قضيت اللحظة أمضغ، استمتع بها خارج كل الحـدود. فـأنا لم أجـد فـرصـة منذ وقت طويل لأسـجل نصـرًا ضـد الجيستابو. لذلك تركت الإثارة تخمد ثم أضفت" إذا استطعتم أن ترتبوا لى أولا زيارة لطبيب العيـون. لقـد طـلبت عـلاجا لعينى على مدى عام والآن.

والآن أنا لا أستطيع أن أتعرف على والدى".

"مستر سوينكا.....!"

"اسمعنى الآن، أنت لا تريدنى أن أضع يدى على رجل برئ؟

أليس كذلك؟. اسـأل المراقب. إنه يشـاركنى الرأى فيـمـا يتـصل بالعـدالة.

الفصل الأربعــون

كيف يمكننى أن أصف ورقه كتابة بيضاء صافية؟ فضاء من الورق، لم يمسه أو يَشُبه شىء بغير كرمشة أو طى؟ ماذا أسمى ما يعادله من الإحساس الذى يمكن استيعابه كاملاً؟ ينبوع؟ راحة حين يضيع الأمل ويلتصق اللسان بجذوره؟ كالنبيذ؟ لا ليس التبيذ. لا يمكن مقارنة النبيذ حتى بعد سنوات الحرمان، يشم رائحة صفحة بيضاء من الورق الكوارتو وتحسسها.

شأنها شأن الابن الأصغر الذى يحبه الأب حبا جما، يحب أن يراه فى كتابات جميلة وحلقات فضية صغيرة، لشقيقة صغيرة ارتدت أفضل حللها، استعداداً لتناول العشاء الربانى - رقيقة القوام غير منيعة، فى قداسة السيدة العذراء أم المسيح ومحبوبة جدا. لم تكن صفحة واحدة فقط كانت مئات. وهناك جلست، مضطرا على ترقيمهم واحدة بعد الأخرى ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤،. .... ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، . .... ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩ ... شىء مؤذ. لقد كتبت بأصغر حرف فى ركن الورقة. كان شيئاً يتسم بالغباء. هذه الفكرة الخاصة بوضع الأرقام كانت تؤكد

أننى لم أستخدم هذا الورق فى رسائل غير قانونية. كان هناك ضابط يقف فوق رأسى وأنا أقوم بهذه الفعلة الإجرامية الفلسفية. من صفحة ٢١٩ رجعت الصفحة ١٢٠، زلة قد تبدو طبيعية جدا لو اكتشفتها لكنها لم تكتشف. فى النهاية حصلنا على رقم ٢٧٥. لقد طلبت منه أن ينقل هذا الرقم للمراقب الكبير، لكن الرقم المكتوب على الباكو هو رقم ٥٠٠، قلت، إننى لم أرغب فى ذكر ذلك حتى قمنا بالمراجعة، لكن ألا تلاحظ أن الرزمة كانت مقطوعة؟. لم يكد ينصرف حتى أخذت فى فرز القطع التى رقمت مرتين، لم أكن فى عجلة من أمرى. فالرقم كان مقبولاً.

لكننى لم أصف بعد جمال ورقة الكوارتو الفضية. كشاطئ مترامى الأطراف بعد أيام من تحطم السفينة التى لم ينج منها سوى شخص واحد؟ ربما، لكن حنين هذا الناجى من الغرق، لابد أن يستمر وقتا طويلا حتى يخلق الشكوك فى عقل هذا البائس المنتمى للإنسانية. كان عليه أن يرتد إلى أصوله الأميبية للإنسان، ليعطى نفسه أحد التعريفات المختلفة التى تطرأ على الكائنات البحرية التى يقذفها المحيط إلى الشاطئ، مجرد أكتوبلازم يحتاج إلى إعادة تأكيد أثره على الرمال. نعم، نعم، أظن أننا نقترب من استعارة وافية، لكن رائحة هذه الرزمة الورقية النقية لا ترتبط بأى تجربة ناضجة، إنها تنتمى فقط للطفولة – رائحة الخبز البكر فى المخبز، حلاوة كومة من العشب بعد المطر، أوراق الليمون، والجدة تفتح علبة النشوق الخاصة بها. كأن الشعور هو أول تذوق لشفاه مراهقة.

كـان هناك ورق فـقط. ، كـانت هـناك أقـلام ملونة وملف، صندوق ملفـات من فـضلك! بدل الصندوق صندوقـان. هناك ورق كـربون! كـربون يعمـل نسخا من الصفحات، انتظـر لحظـة، إذا جاء الكـربون يمكننى - لا أجرؤ على تصور ذلك - هل يعد ذلك تخلفا كثيراً؟.

لقـد أنهى ذلك عـملى. آلة كـاتبـة! وفى الحـال أعطونى الإذن لكنهـا تريد أى عمل أريده.

آلة كـاتبة. لقـد نسـيت عدد المرات التى قلت فـيـهـا أريد آلة كـاتبـة، والكتب. والجرائد، كتب رائحة النعناع المنعشة، كان يبدو أنها جاءت من فـرن حـول الركن. كتب ! لقد رأيت هـذه الأشـيـاء - كـتب! لكن السـجين ليس إنسـانا. لأن فعل كونك سـجنا ليس فى حد ذاته عملية تحـول، لكنه تحـول فـورى. إنه لم يعد إنسـانا، إنه يقـتـرب، على مـا أظن من اخـتـراع جديد، الرادار البشرى، إن له عيونا لا تنتمى له، له سطح جسـد يصـير كتلة من العيون. بينمـا كان المشرف الكبير يشغل نفسه، يتذكر قـائمـة الكتب والجرائد التى سوف أحملها إلى زنزانتى، كنت أحـول الجـريدتين، أو الثـلاث أو الأربع إلى جـريدة واحـدة. لقـد تذكـرنـا الاسم لكن ثلاث صحف وثلاثة كتب إلى الكومة. كان يوليفيموس يقوم بالمساعدة، ومن ثم لم تكن الـعـمليـة صـعـبـة، فى الواقع الذين كـانوا ينشـغلون فـيـه بأمـر ملابسى، حصلت على عدة أقلام لم تقع تحت نظرهم.

لقد جاءت زوجتى من المركز الرئيسى لفرع "E" لقسم لم يحدد مدة معينة لزيارتها ولم يذكر عدد الزيارات.

لقــد فـرض عليـهـا أن تقضى الليل فى كـادونا، لتـراقـب صـحتى وكل الشكاوى الأخرى المعلنة. لم أكن أريد رؤيتـها مرة ثانية، السلام فى السـجن يتطلب العزلة التى لا تحـتمل - اخـتـراقات من عـالم الأحـيـاء. طلبت منهـا أن تذهب ولا تعـود مـرة أخـرى - لكنى طلبت زوجـا من الشبـاشب - وكـان عليـهـا أن تحـضـر هذه الأشـيـاء فى اليـوم التـالى، وتتركها مع المراقب العام.

ثم افترقنا.

بعد خروجها من السجن بساعة واحدة. جاءت كتيبة من العسكر وكنست كل شىء، أعطته لى. كل شىء! لقد توقعت ذلك. لم أسـتطع أن أجد تفسيراً لذلك. ذلك ما كان يمكن أن نجده فى عقول هذا النوع من شياطين التـعذيب، بعد البقاء طويلاً مـعـهم. يخططون بخسـة وحقارة، لكونـهم مـحطمين نفـسـيا ولو جزئيًا يأكلهم الشـر فى داخلهم، هذا مـا تستطيع أن تتـوقـعه منهم. رغم قـوة الإغـراء فـإننى لم أفتـح الراديو. لقد قام الحارس بالدورية ومشى مئات المرات، معطيا لمحات غير ذكية حول برنامجه المفضل، ما عسى أن يكون فى تلك اللحظة. بهذه المحطة. لقد تجاهلت ذلك الأحمق. فـأصـعب الأمور هو أن تتـجاهـل رغبـاتى، أن تمنعنى من ضبط نفسى مع بعض نغمات الموسيقى، التى يتعطش كيانى لها منذ فترة طويلة بعاطفة جديدة. لم أكن لمست الراديو عندما جاءوا. لقد سمعت وقع أقدام على البعد وفـهمت ماذا تعنى. لقد حصلت على سر حول بعض المواد المسجلة بداخل الصمـت. لقد مزقـتـهـا. وعرفت أيضـا

أن هذا لن يكـون تفتـيشًا دقيـقًا، إنهم قـادمـون لإزالة كل هــذه المواد التى سمح بها مـؤخراً. الحمار لا يسـاوره شـك، لقـد حـفظتـهم صـدفـة تحت المـرتبة.

لقد سمحت لنفسى بخطبـة طويلة رفضت فيـها الغش، وطلبت أن أرى المراقب الكبيـر. لقد ظهر المراقب الكبير على حقيقتـه. نظر أحدهـم إليه، أما أنا فقد أشفقت على دوره فى تنفيذ التعليمات.

ذلك المصــدر الغــامض لكل التـعليمــات المؤذية! لكننى لا أسـتطيع أن أتجاوز الحاسـة السـادسـة التى اكتشـفـت هذه الإنذارات فى مكتبـه. لقد ســألتـه، هــل كـانت لديك تلك التـعليـمات حين كــانت زوجـتى هنا؟. حين كنت معها فى هذا المكتب؟

اعترف هو بذلك.

سألتـه، هل كان ذلك ضمن التعليمات، أن تـستغفلنى؟ خريطة المواد هذه، قائمة أسماء المواد، كتب، ورق، جرائد، هل كان هذا جزءا من تعليمات المركـز الرئيـسى؟ أكان من الواجب عليك أن تحـيى آمـالى ثـم تحطمـهـا وتعيدنى إلى الحياة النباتية؟

هل كان هذا الاستعراض مرسوما بدقة للعالم الخارجى فقط؟

أخذ يحتج....

لقد عرضـت أنت مسـرحيـة هزلية! أردت أن تترك زوجـتى مـقـتنعـة بأننى الآن أتلقى مـعاملة إنسـانيـة على يديك. لقد قدمت عرضـا اسـتـمـر

حوالى ساعتين. لقد تأكدت إنها رأتنى أعود إلى الزنزانة محملاً بالكتب والورق. بل ومعى راديو. ثم جاء المغفلون من أتباعك هنا، وكنسوا كل شيء. أريد أن أعرف يا معلام A إذا كان هذا جزءا من تعليماتك.

فأجائنى المراقب الكبير وصدمنى. تلك الحيلة كانت كلها من بنات أفكاره. لقد تسلم فى البداية مذكرة من فرع E ومن مكتبه فى لاجوس الرئيسى، أن زوجتى قادمة لزيارتى وسوف تأتى لى بهذه الأشياء، لكن خطابا أخر جاءه من مكتبه الرئيسى فى صبيحة يوم الزيارة، يبلغه أنه لم يتم أى تغيير فى وضعى.

أخذته الحيرة فماذا يفعل - لقد قرر أن يفعل شيئا نيابة عن رؤسائه - موظف مدنى ملتزم بالواجب. معلام A أصبح شديد الحساسية بسبب الشهرة السيئة الأخيرة التى أعطيت لمكتبه بسبب مسألتى. هذا الولاء لمصلحته فرض عليه، بكل الوسائل، ترك زوجتى تذهب وهى شاعرة بوضعى الجديد فى الحجز. أوامر من المركز الرئيسى كانت تطلب منه ألا يسمح بالمقابلة. لكن لحسن الحظ هنا، أنه كان لديه نوعان متناقضان من التعليمات. أننى كنت محتجزا يحق للبوليس أن يصل إلىّ فى أى وقت. وزوجتى وصلت فى صحبة أحد رجال الأمن. ولم يكن لدى معلام A أى اختيار غير أن يخرجنى للزيارة. مع ذلك، فقد اتخذ لنفسه قرارا أن يسترد كل الأشياء التى أحضرتها زوجتى بمجرد أن تدير ظهرها.

لقد وصلت ملاحظتى خلسة إلى يد زوجتى عند خروجها من التاكسى أمام بوابات السجن، حاملة الشبشب، هذه المرة أطال زبانية التعذيب يدهم. فطارت عائدة إلى لاجوس وبحثت عن رئيس فرع E، كان هذا سر لا يعرفه. ما شأن السجن فى كل هذا؟ لقد أكد لزوجتى أنه لم يعارض فى أن أكون مستريحا بقدر ما يمكن. لقد أقسم أنه كان يتخيل أننى أنال نفس المعاملة كأى نزيل آخر. أخيراً عبر عن دهشته إننى محجوز فى حبس انفرادى طيلة هذا الوقت.

إننى أصدقه، ومازلت أصدقه. هناك أشياء كثيرة لا يعرفها يوسيفو (Yesufu) حتى فى داخل مصلحته، أقلها جميعا الجستابو السياسى، الذى يديره عيسى أديجو. أما الذى فعله يوسيفو هو أن يضع السجون فى مكانها. وفى تبيان ذلك فإن العمل الجوهرى هو أن تفرق بين الساديين والبيروقراطيين، الذين يسكنون المركز الرئيسى فى تلك المصلحة، وهم فى الحقيقة عملاء لأكثر أنواع الأنشطة الحكومية إجراما. وضباط السجن المثقلون بالأعمال والكثير منهم أشخاص متزنون وإنسانيون وأكفاء.

من المهم جدا أن نتعرف على المصابين طبيعيًا بمرض السادية، الذين أصدروا معظم التعليمات التى تتصل بمعاملتى فى السجن، الذين أصدروا التعليمات التى أبطلت تعليمات فرع "E". فى أغسطس ١٩٦٩، الذين كانوا يعملون فى نفس اللجنة القائمة بتدمير العقول، مثل كيم ساليم، عيسى أديجو، وجيو أوساجى. لقد كان تأثيرهم على شديداً فى الحبس، هذا الثلاثى الشرير لديه الكثير الذى يقوله ويعمله.



الفصل الحادى والأربعون

قال يوليفيموس: "استعد، سنذهب للمستشفى".

كانت قافلة الحرس تتكون من ثمانى سيارات: خمس خاصة برجال الأمن، وثلاث للسجن، إحداها خاصة بالمراقب العام. لم أعرف عدد حراس السجن وفيلق رجال البوليس ذوى الملابس العادية. عندما اقتربت السيارة الأولى من موقف السيارات أمام العيادة - فى وقت متأخر بعد الظهيرة، يخف فيه الزحام بصفة خاصة - انفتحت الأبواب الأربعة دفعة واحدة، وخرجت منه جماعة أخذ أفرادها يتسللون عبر الدرجات، والطوابق وممرات المبنى ثم اختفوا فى الفتحات. أما أنا فقد كنت فرحا بهذا الاحتفال: فقد مضى وقت طويل منذ أن تم استقبالى برقصات منتظمة هادئة، وإن كانت من أساليب بوليسية. وقد تم هذا بهدوء وحزم، وانخفض عدد البصاصين فى حجرة الكشف الطبى إلى مستوى يمكن احتماله.

لقد أسهم حراس السجن المساكين مع المراقب العام فى إخراج هذا العرض، الخاص بتعرية المومياء للمرة الأولى، هؤلاء المساكين من

حراس القصور وجدوا أنفسهم مكشوفين، خارج المكان، خارج المناورة، بواسطة دراويش المفتى الذى خسر المجادلة خارج البوابات؛ حين أصر على أن هذه الكثرة من رجال الأمن لم تكن غير ضرورية فقط، بل محرجة أيضا. فسيارته اللاندروفر الكسيحة ليست ندا لسيارات البيجو الفارهة التى يركبها أفراد كتيبة الأمن. بل إن صالونه الخاص تراجع فى المكانة، ولم تعد تفوح منه رائحة السلطة الخاصة بالمباحث السرية.

ما زالت هناك خمسة أيام وزيارتان مقررتان، فيما بعد ضمن سلسلة الفحوصات المحددة لى حسب الأوامر، وظهر عن طريق الرجل الكبير نفسه، أن تشكيلة السلطة قد انكمشت إلا من سيارة لاندروفر تابعة للسجن وسيارة شرطة واحدة. لقد أعلنت احتجاجى على ضياع المكانة، وهددت بألا أتعاون معهم، حتى يتم رفع مكانتى كرجل خطير إلى مستواها السابق. ووعدنى الضابط بأنه سوف يبلغ هذا الأمر للمراكزالرئيسية المختصة.

فى وقت الزيارة الخامسة، والأخيرة، وصلت عملية انحدار مكانتى إلى أدنى درجة. لم تأت أية مركبة من جهة الأمن، وأرسلوا شخصاً واحداً فقط. جاء سائراً على الأقدام. كان الدورعلى طبيب الأسنان، ودخلنا صالون المراقب الكبير فى صحبة رجل المباحث البسيط المتبرم. شكوت للمراقب العام أن رجال الأمن أصبحوا يثقون بى ثقة كاملة. لكن عملية إذلالى لم تكن قد اكتملت بعد. وحين جلست على كرسى الطبيب، وخفت الضوء فجأة. توقعت أن يقفز رجل البوليس للعمل، فيسحب بندقيته

ويأمرنى بالصمت، أو يقفز على توقعا لأى حركة مفاجئة. لكنه بدلا من ذلك خرج بهدوء من حجرة الجراحة، لأنه لم يجد ضوءا كافيا يمكنه من قراءة الجريدة التى معه. بل إنه أغلق الباب خلفه! إنه أمر محزن أن تحس بأنك لم تعد رجلاً خطيراً.

ظل المراقب العام مغموماً بسبب تأخير أمر العناية بصحتى. كان مرهف الحس يشعر بوخز الضمير، خوفا على صورة الإدارة التى يرأسها، فراح يندب حظه "هذا ما كان يجب علينا أن نفعله منذ البداية، ثم ماكنا تعرضنا للإساءة من الصحف الأجنبية وحتى من أبناء بلدنا".

رسم القلب، ضغط الدم، تحليل بول، ردود انفعالات... هطلت هذه الفحوصات كلها علىّ فى الزيارة الثانية، وكان هذا الطوفان عبارة عن يقظة غريبة غير حقيقية. لقد نسيت أن الرياح والفيضانات كظواهر تستوطن الفضاءات المفتوحة.

هذه مياه ينابيع نظيفة، مشحونة بالقوة فى عوالم لا نهائية، ليست فقط سموما باردة، نازلة من فوهة حلقة حديدية فى السماء. لقد أغلقت عقلى حتى الآن، فلا يسمح لمتطفل هذا الفضاء الواسع بالدخول إليه، ووصفته بأنه غريب وخطير، ومعاد للمستقبل الذى يتراءى بعد هذه النزهة القصيرة فى حرية مصطنعة. لقد أنكرت معرفتى حتى لوجود النساء فى الشوارع ونحن نسير فيها، أنكرت أن جسدى قد أحدث صدعا فى جدران السجن. مستسلما فى النهاية لضغط الجمهور فى

هذه الناحية، فالناس المفضوحون بالعار قد يسعون للانتقام بطرق مختلفة من الشخص حتى يستسلم. لذلك فإن خروجى مازال فألا غامضا. لقد رفضت أن أستمتع بتنفس هواء أقل احتباسا.

فى الوقت الذى اندفعت فيه الأمطار داخل حواجز العزلة. هبت عاصفة منعشة، فاخترقت كل الدفاعات الجسمانية والعقلية، سحقت الكبسولة لتطلق رائحة الحرية الحلوة. لقد استسلمت لها، حولتها إلى قوة ألف محارب شديدى العزائم يندفعون إلى الخارج واحدا بعد الآخر، غارقين حتى الجلد، تلسعنا الريح والمطر، عندما هربنا فى الممرات المكشوفة للمستشفى. فجأة أصبت بالدهشة من ظهور هذه الحركات الحرة العنيفة بل والمنضبطة، من عناصر الطبيعة ومن جانبنا، وتناقضها مع تلك المسيرة الأولى، مسيرة الموت إلى إحدى المقابر الصناعية. وفى وجه يوليفيموس الأصفرالذى يسبقنا هناك بعيدا فى المقدمة. يقبض على ثوبه بيده فى معركة خاسرة مع الريح. لقد جربت اعتقاداً حاداً ومؤكدا كأنه إلهام متشائم بدورة العام، هذه المرة فقط، فى رؤية ايجابية. تتعلق هذه بالحرية وليس بالحصول عليها. كانت تأكيداً مثيراً لحرية الروح، ومعرفتى أنه بسبب هذا الحب، خسر خصومى نتيجة الصراع. ذلك أنه لا يهم فى النهاية كم من الوقت ناوروا لكى يحبسونى خلف الجدران، ولكنهم لن يفلتوا نهائياً، من مصير المهزومين. على يد كل الذين تحالفوا والتزموا بمبدأ الحياة الحرة الخالية من القيود.

تذييـــل

خلال زيارة يعقوب جوون الأولى لابادان بعد الحرب، ذهب فى جولة تفتيشية لمدرسة الزراعة التى كان يديرها آنذاك واحـد من أصدقائى، هو مستر بولا إيجى. وفى نهاية الزيارة صحب صديقى جوون حتى سيارته، حيث جرى هذا الحديث طبقًا لما قاله بولا:

جوون: كيف حال صديقك؟

إيجى: من؟

جوون: وول، كيف حاله؟

إيجى: على خير حال.

جوون: فى حالة جيدة تمامًا؟ مستقر الوضع؟

إيجى: تماما، على حد علمى.

جــوون: حــسنا. أريدك الآن أن توصــل له هــذه الرســالة منى. أريدك أن تعيد عليه كلماتى بالضبط، فهل ستفعل ذلك؟

إيجى: بالطبع، سوف أفعل.

جوون: قـل له: اللى فات مـات. تمــام؟ استـخـدم كلمـاتى بدقـة. اللى فات مات.

ملاحــــق

ملحق (أ)

- من فم الحصان:

خلال حفل حزبى عقد فى السنة الأولى لوجودى فى كادونا، انتحى أحد الأصدقاء القريبين برئيس البوليس أواوو، فى ركن من المكان وسأله عن أخبارى. "سمعنا أنه مريض فى حالة خطيرة". فى ذلك الوقت انتشرت شائعات عن موتى. وطبقا لكلام هذا الصديق، فإن إجابة أواوو كانت كالتالى: "أنت تعلم أننى سمعت الشائعة بنفسى، وذهبت إلى جوون. قلت له، انظر، إذا حدث شىء لهذا الشاب أثناء وجوده فى السجن لا أحد يضمن ما سوف يحدث فى الإقليم الغربى. حينئذ أخذنى جوون جانبا وأطلعنى على تقرير طبى، عرضه أمامى وقال، اقرأ هذا؛ إنه تقرير من طبيبه الخاص. فقرأت التقرير. إن هذا الشاب كان يعانى من مرض الزهرى المزمن".

لقـد حضـر الكـاتب والشـاعر ج. ب. كـلارك مـؤتمر نادى P.E.N فى مدينة أبيـدجان، حين كنت مـسـجونا فى كادونا، وكـانت الحكومـة قد زودته بمعلومـات، فشن حملة دعاية ضـد سوينكا، بدءا من شـرق أفريقيا حتى الولايات المتحدة رجوعا إلى أفريقيا السوداء. وفى كل محطة توقف فيـها مـستر كلارك، كـان يلقى مـحاضـرة عن الحـرب الأهلية فى نيجيريا، كان نصـفـها مـخـصـصـا لمسـألة سوينكا. كانت أطروحـته المفضلة، كمـا أكدها بإصـرار مـعـارفى كبـار السن، وكذلك من أطلق سـراحـهم الذين استمعوا لهذه المحاضرات أن "سوينكا رجل المسرح الخالد مصمم على أن يلعب دور النجم فى كل مـسـرحـيـة من تأليـفـه". كـان ذلك هـو المكون الرئيسى للمحاضرة. وكان له، مع ذلك، أصدقاء موثوق بهم يشركهم معه فى جلسات الشراب الخاصة التى يتناول فيها الويسكى.

كان بين المستمعين لما قاله مستر كلارك فى "اعترافاته السرية" واحد من أهل الأدب، كان زميلا لى بالمدرسـة، وهو الآن رئيس قسم فى جامعة إبادان، بروفسـور "A" تصـادف مروره بأبيـدجان فى وقت انعقاد مؤتمر الـ"P.E.N" وحضر أحد البرامج التعليمية العالمية، لكنه عبر عن شكوكه حول اعـترافـاتى المفـترضـة، وعن بيانات رسـمـية أخـرى حـول نشـاطاتى. فواجـهوه فى الحـال بما يعتبره مـستر كلارك الرد النهائى الذى لايقبل الجدل على مثل هذه الشكوك.

"حـسـنـا، ومـا أهمـيـة ذلك فى أى نـاحـيـة؟ إن عـلاجـه بالأدويـة يكلف الحكومة مالاً كـثـيـراً. صـديقك يعـانى من مرض الزهرى المزمن، هل تعلم ذلك؟"

عند الإفراج عني تساءلت، إذا كان دكتور أدلديفوه قد تم ترويعه حتى يكتب هذا التقرير. إن منظر ذلك الطبيب القادم حديثًا من موسكو الذى تضاءل حجمه فى سبيل الحصول على الخلاص بتغيير اسمه مازال يخيفنى، لذلك قررت أخيرا أن أعالجه. لقد قضيت أياما عدة أراجع فيها كلماتى، ثم، بعد ستة شهور من حصولى على الحرية والتعافى بالاسترخاء، فى جو العلاقات القديمة انتظرت حتى ارتوينا بالبراندى وناشدته "حاول وصدقنى يا كوكو إذا قلت إننى سوف أفهم حتى خيانة الزوجة لزوجها فى أثناء فترة الجستابو وإرهاب الجيش. لم يكن مطلوبا منك أن تخاطر بحياتك من أجلى، وأنا لن أسامح نفسى أبدا لو أوقعتك فى تلك الضائقة. لكننى أريد أن أكتشف أصول مستند معين وأريد إجابة صادقة. هل تم إكراهك على أن تكتب تقريرا تقر فيه بأننى مصاب بمرض لاعلاج له؟"

أنكر ذلك بقوة.

"التقرير موجود ويحمل توقيعك. لقد رأيته".

هذه بالطبع أكذوبة، فأنا لم أره.

قال. "هذا توقيع مزور. سوف أقسم على ذلك فى أى مكان. لقد كتبت بيانا بالطبع. كتبت فيه أننى طبيب عائلتك، إنك جئت تشكو من الألم. قلت إننى لم أجد حتى الفرصة لتوقيع الكشف عليك، قبل أن يقوم البوليس بمداهمة العيادة. لا شىء أكثر من هذا. فماذا يقول فى التقرير؟"

"زهرى مزمن. ذلك ما افترضوا أنك أعلنته عن حالتى المرضية".

صفر كوكو. "لابد أنهم أتوا بطبيب مؤهل ليفعل ذلك. إنه واحد من الأمراض التى تجعل من الطبيعى أن تتدهور فجأة، من الناحية العقلية والجسدية، وتموت. كان ذلك اختيارا بارعا للمرض".

فى غضون سبعة وعشرين شهراً قضيتها فى السجن تعاطيت هذه الأدوية من مصلحة السجون:

Thalazole

Aspro and Aspirin

Sleeping Pills (in Lagos only)

Limint.

إذا كان التقرير الطبى هو الشىء الوحيد من أعمال عيسى أديجو القذرة، إلا أنه قد تم تمريره على أعضاء النظام الهرمى، وكان هناك – من الواضح – ذوو الرتب العالية الذين إذا سألناهم إن كانوا يصدقون حقا هذا التقرير، فإنهم كانوا مقتنعين تماماً بأن ينتظروا الانهيار النهائى، لذلك تم حجب الأطباء عنى بخبث، فلم يزرنى أحد منهم فى محبسى الانفرادى فى كادونا.

الغش والخداع هما عدة وعتاد فن البقاء فى السلطة؛ النفاق المدروس والمداهنة المسيحية، هى عوامل مساعدة لأسلوب السلطة القائم على صورة الخنوع.

كانت لدى الحيلة، هذا هو يعقوب جوون. لقد نجحت جيداً فقط مع رجال قليلى الكفاءة، ولابد من الاعتراف مع رجال أذكياء من طبقة عقلية كريمة. لا حاجة بنا لذكر المجموعة الثالثة والكبرى، والزوار الأجانب وسادة النظام الكولينيالى السابق، الذين أسعدهم أن يقوموا برعاية شخص غرير، فشل فى أن يعرف مناورات أساتذة لعبة الدمى الدهاة خلف ظهره، ومكره الوطنى. من الناحية الرسمية فإن الكل قد فرحوا بأن يتلقوا اعترافات رجال عظام، أعلن أنهم رجال جديرون بلحظة حميمية مع ديكتاتور من العسكر. امتلأت رتبهم بأساتذة جامعيين، ودبلومات أجنبية وكهنة، ورجال أعمال من فصيلة أسماك القرش بل وأصغر أسماك المجتمع وأكثرها هامشية.

بالنسبة لهم فإن اهتمام جوون كله، هو أن يفرض سلطته على كل الأمور، بما فيها أمورى أنا.. لقد جعل كل واحد من مستمعيه يشعر بأنه الوحيد الذى يخصه بسر من أسرار الدولة، تحفزه حاجة عادية لمن لايحس بالأمان، ويجب مساندته بالقبول والاستحسان من جانب جميع طبقات الناس فى الخارج والداخل، لهذا قام جوون بأخذ الضحية المختارة جانبا، وأقسم "يشهد الله لولا تدخلى شخصيًا، لتم قتل هذا الرجل برصاص كبار ضباطى، أقسم بشرفى. كان ذلك محبة منى، لو تعرف...".

يندهش الجمهور الجاهل بالخضوع، والحميمية فى اللحظة الخاصة والإعلان العاطفى. يفترق عن مالكى السر المتميز.. يستنتج الصحفى

الأجنبى فيقول. أعترف أنه ليس شخصًا لامعًا، ولكن لابد لك أن تعترف بأمانة الرجل".

مثل هؤلاء الناس يصعب عليهم أن يرتكبوا الخطأ. الأمانة يمكن عرضها، على اعتقاد صادق فى أن الزيف لابد له من نهاية. علاوة على ذلك فإن الناس، فى عهد جوون - نيجيريين وأجانب - يواجهون عينة أصيلة من التحول، سلالة نادرة تربت فى جو الحرب الشديد التعصب. لقد جاء جوون إلى السلطة على رأس حركة انفصالية. فقد أعلن فى أحد بياناته الأولى عبارة - استقبلها أهل بيافرا بفرح وتمسكوا بها - هى "إن قاعدة الوحدة النيجيرية ليست موجودة هناك". كم مرة تم استغلال هذا الإعلان الأصلى عن الكفر بواسطة الانفصاليين الآخرين بعد ذلك، من أهل بيافرا. والحقيقة إنه لا يمكن للحكومة محو هذه المرحلة فى تطور جوون، مهما بذلوا من جهود فى عمليات تقطيع الفترات التاريخية وتزويقها. والحقيقة أن الحالة العقلية التى اعتبرت استقلال الشمال حقيقة مسلما بهاأغاظته وجعلته يسمح - على الأقل - بكل أحداث التطرف ضد سكان الجزء الشرقى.

إن تحول جوون - بفضل أساتذته الأمريكان والإنجليز - أرغمه على أن يبرهن لنفسه ولمرشديه أنه أشد القوميين النيجيريين تعصبا اليوم. ربما يكون كذلك. لكن، فى داخل العملية، فإن المحافظة على هذه الصورة المزيفة تتطلب بالضرورة القضاء على كل أولئك الذين كانوا

يمثلون الجزء غير المتصالح فى معمدانية النار النيجيرية، التى جرت من يوم إلى آخر فى غضون السنوات بين ١٩٦٥-١٩٦٩. فقط المثقفون المحترفون، الميالون كثيراً للتودد والملاطفة، والمستعدون أن ينظروا إلى التاريخ نظرة انتقائية، مقابل الحصول على سلطة بالنيابة، وأن الوهج المحيط بالسلطة يمكنهم من الحصول على إحساس بالأمان داخل هذا المدار الذى يفرز الانبثاقات الزائفة. إنهم أشخاص أغنى تجاربهم فى الحياة، هى قدرتهم على أن يعلنوا لمجموعة الحاسدين من أشباههم الفارغين من الناحية الأكاديمية:

"تعرفون أننى كنت مع رئيس الدولة الأسبوع الماضى فقط، وتعرفون، أنه قال لى فعلاً - بأقصى درجات السرية، طبعا...".

ملحق (ب)

- المنتفعون الحقيقيون بالحرب:

١- فقرة من خطاب ترحيب قدم لرئيس الدولة والقائد الأعلى للقوات المسلحة النيجيرية، ماجور جنرال يعقوب جوون قدمه رؤساء، ومستشارون من أهل مدينة أيكوم فى مناسبة زيارة فخامته الأولى لمدينة أيكوم بتاريخ ٢٠ فبراير ١٩٧١،

صاحب الفخامة، تحية الولاء!

نحن رؤساء، ومستشارى وشعب قسم أيكوم، نشعر بعظيم الشرف لزيارة رئيس الدولة والقائد الأعلى للقوات المسلحة، الماجور جنرال يعقوب جوون لنا اليوم. هذه مناسبة فريدة، لأنها المرة الأولى التى نستقبل فيها رئيس دولة فى هذا الجزء من القطر. نحن سعداء بالتعرف شخصيا على الرجل الذى أنقذنا من أيدى "اللوردات" الأشرار السابقين، أبناء الجزء الشرقى من نيجيريا، وقد تجمعنا اليوم هنا لنقدم احترامنا لكم.

سعادتنا لاحدود لها، وحبنا فى التعبير عن امتناننا لفخامتكم لا نهاية له، لأنكم جعلتم هذه الزيارة ممكنة، برغم مصاعب الطريق الذى عبرتموه مع أعضاء الفريق الذى يصحبكم. هذه هى المناسبة التى تطلعنا إليها طويلا ونحن مجتمعون هنا اليوم لنعبر عن بالغ شكرنا وتقديرنا لفخامتكم.

٢- تحرش الجنود بالمدنيين:

إن أهل أيكوم معروفون بحبهم للسلام، والتزامهم بالقانون. نحن فخورون بهذا لأنه لم تحدث أى حالات شغب، أو خروج على القانون فى أيكوم منذ أيام الاستعمار حتى الحكم المدنى الأخير. عندما اندلعت الحرب الأهلية فى ١٩٦٧، وقفنا وقفة رجل واحد وحاربنا جنبا إلى جنب مع جيش التحرير. وإدراكا منا لما بذله الجنود من تضحيات من أجلنا، فإننا لم نحمل أى سوء نية تجاههم. لكن اليد العليا لبعض هؤلاء الجنود أذهلتنا، وتركت الكثير منا تتقطع أنفاسهم، لنقتبس بعض الأمثلة؛ ربما نذكر مستردينيس أوكبار أكواديم من أوكانجا، الذى أطلق عليه الرصاص فى ١٩٦٨ بمنزله بدون أى سبب، ومستر أجوم أجفور الذى قتل فى أنكوم ١٩٦٩، لأنه رفض أن يسمح لهم باغتصاب ابنته التلميذة الصغيرة، ومستر آجى إنتو الذى تم طعنه حتى الموت. وأخيرا طالب بالسنة الثالثة الثانوية بمدرسة أيكوم، مستر أجبورنوهور، تم ضربه حتى الموت عندما حوصرت المدرسة بواسطة مجموعة من الجنود المسلحين. وحجتهم الوحيدة، هى أن المدرسة رفضت أن تسمح لهم باستعمال فناء المدرسة

لتربية قطعان الماشية. باستثناء هذا، فإن التلاميذ والمعلمين بل وزوجاتهم تعرضوا لأسوأ أنواع المعاملة، وتم تدمير كثير من الكتب والممتلكات ذات القيمة الكبيرة. فى كل حالات القتل هذه لم يتم إحضار الجانى ليعاقب باعتباره مجرما قام بعمليات تنكيل، حتى يشعرعامة الناس بأن القانون يحمى حريتهم من المعاملة غير الإنسانية، مثلما يحدث فى بقية أجزاء القطر الأخرى. ثم هناك الحالات اليومية التى يتم فيها ضرب الرجال والنساء وأحيانا الأطفال وجرحهم دون تمييز، وحجزهم فى زنازين الجيش بعد حلق شعورهم بصورة قبيحة بدون قضية عادلة.

(انظر إلى صور وتعليقات بعض الضحايا).

٣- نحن نتوسل إلى فخامتكم أن تستخدم سلطاتك لضمان حريتنا فى الحركة وفى العيش دون خوف، لكى نتمكن من المساهمة بنصيبنا فى بناء الأمة. لقد أضحت الحياة غير محتملة بالنسبة لنا، نتيجة للمعاملة التى نتعرض لها يوميا من الجنود في كل الولاية الشرقية الجنوبية، أيكوم هى المدينة الوحيدة التى لم ترفع منها نقاط التفتيش القائمة على الطرق منذ نهاية الحرب الأهلية. هناك ثلاث نقاط تفتيش داخل المدينة اثنتان عند الحدود مع الكاميرون، وإن أكبرالفظائع التى يتعرض لها المدنيون تأتى من هناك. فالجنود يسلبون البضائع، مثل عرق البلح والمواد الغذائية من المشاة وراكبى الدراجات، عند مرورهم عبر نقاط التفتيش. بعضهم يرفض أن يدفع ثمن مشترواته من الطعام أو المشروبات ويضربون الباعة ضرباً مبرحًا حين يصممون على أخذ الثمن.

لقد فرضوا على المدنيين أن يحملوا دراجاتهم فوق رؤسهم ويجرون بها لمدة خمس عشرة دقيقة أو أكثر عند هذه النقاط. فماأفظع هذا!.

٤- مختصرات من تقرير عن أفعال ترويع وتجن على الناس بالحيلة فى قسم أيكوم بالجزء الشرقى أثناء زيارة حاكم الولاية للقسم.

مؤرخ ١١مارس ١٩٧١، وتم إرساله إلى يعقوب جوون بثكنات دودان، فى لاجوس.

٥- ابتدأ صاحب الفخامة بسؤال مستر أوجار إذا كان قد اشترك فى كتابة خطاب الترحيب، بالنظر للطلاقة التى قرأ بها الخطاب. أنكر مستر أوجار اشتراكه فى كتابة الخطاب فسمح له بالانصراف. عندئذ استدار فخامته إلى الرؤساء، الذين سفه موقفهم لكونهم "رؤساء حمقى وأميين لأنكم سمحتم لأنفسكم بقبول التضليل الذى قامت به مجموعة من الأوباش". أنكر الرؤساء أنهم ضللوا أبدا أو خدعوا، وأعلنوا أن خطاب الترحيب كان انعكاسا صادقا لمشاعرهم ورغباتهم، وهو سبب توقيعهم على الخطاب.

٦- التفت فخامته إلى أعضاء اللجنة التى كتبت مسودة الخطاب وبعد وابل من الأسئلة أمر الجنود بجلد مسترإيابا، ٤٢ عامًا، السكرتير العام لاتحاد المزارعين بقسم أيكوم، وفيليب نتوى، ٣٦ عامًا، رجل أعمال قطاع خاص، هذان الرجلان تمت تعرية أجسادهما فى الحال، ووضعا أمام فخامته، وفى حضوربطانة فخامته، والرؤساء المحليين ورجال الصحافة،

وتم إعطاء خمسين ضربة بالعصا لكل منهما، وسجن الاثنان فيما بعد بناء على أوامر فخامته. أشار المحافظ إلى عضو آخر كتب مسودة الخطاب، هو مستر رفائيل تاتى، الذى تصادف عدم وجوده هناك، ووجب البحث عنه، وإلقاء القبض عليه، ومعاقبته وحبسه كالآخرين. (لقد تمكن بالصدفة من الهرب إلى لاجوس بحثا عن الأمان). لقد أعطى تعليماته بمنع مستر تاتى من إرسال نسخة من خطاب الترحيب إلى عصبة أوجوجا الاجتماعية فى لاجوس، التى قال عنها إنها سوف تصنع منه كتابا.

٧- تم نقل مستر إيابا ونتوى عن طريق البوليس إلى مستشفى أيكوم المشترك، حيث تم علاجهما من جروح حادة حدثت أثناء جلدهما.

حكومة بالجلد:

٨- صاحب الفخامة، من المحزن لنا أن نخبركم، أن مواطنيكم الشرفاء الملتزمين بالقانون يجلدون هكذا علنا، كما لوكانوا محتالين، وهو عمل ليس فقط مخجلا ومُحِطا بقدر الإنسان، بل يتصادم مع المبادىء التى تدافعون عنها. إن حادثة الجلد التى ذكرت هنا، والأفعال الأخرى المشابهة، فى سبيلها لأن تصبح وبأسرع ما يمكن، نمطا للحكم فى الولاية الجنوبية الشرقية. نحن نتذكر فى وقت ما مضى أن المستر هوجان، وهو موظف فيدرالى كان يعمل فى كلابار، تم جلده بالمثل وقشط شعره قبل أن يهرب إلى لاجوس.

تليجراف تم إرساله إلى إيزوين وجوون من جانب الموقعين أنفسهم إلى كولين إيزوين، دار الولاية، كلابار.

١- إلى الكولونيل إيزوين، دار الولاية، كلابار.

نجحت جولتكم الأولى فى أوكجولا بتفعيل رغبات الناس، بتوبيخ رؤساء الهيئات الثقافية الذين يعذبون الشبان الأبرياء، إنهم لا يصلحون حكاما لأن قهرهم للشعب لا يخدم أبناء مجتمع أوكجولا، الذين يحتجون بقوة لعدم ممارسة الديموقراطية الشعبية، لقد أطلق هؤلاء سراح المحبوسين تشبها بالولايات الأخرى. إكبونج

٢- إلى يعقوب جوون، ثكنات دودان، لاجوس

أنقذ أرواح الرؤساء الشباب بأوكوجا، جولة إيزوين الأولى لأوكوجا الأسبوع الماضى، شهدت عمليات ترويع وتحرشات تعذيب واعتقال جماعات من شباب أيكوم والرؤساء. زيارتكم المقترحة لمجتمع أكوجا لاجوس أقلقت نفوسنا، تعال لمساعدتنا لوقف الاعتداء على الديموقراطية. إكبونج

٣- إلى يعقوب جوون، ثكنات دودان، لاجوس

أنقذ أرواح مجتمع أوكوجا المضطرب النفس الحاكم إيزوين أخضع شعب أيكوم خلال زيارته الأولى فى ٢٥ فبراير - لقد تحرش إيزوين بالرؤساء بوحشية وجلد موظفى السكرتارية، فى حضورمفتشين وصحافة،

عقابا على خطاب الترحيب الذى قدمه لفخامتكم مواطنون مخلصون. الموظفون الذين تم جلدهم واحتجازهم بطريقة مهينة يتوسلون إلى فخامتكم أن تحتج فمواطنوكم لم يرتكبوا جريمة أكثر من أنهم طالبوا بحقوقهم.

إكبونج

من كلابار، فقرات من خطابها ١٣-٦-٧١ E.B.

لقد تم تدمير مصالحى المالية فى الولاية الجنوبية الشرقية. بإيجاز ربما أصبح بغير أصدقاء. فالناس يهربون منى، إرضاء للرئيس صاحب السلطان. لقد تجرأ الحاكم إلى حد أن قال إننى شيوعية جئت إلى الولاية لعمل انقلاب لنظام الحكم. ومع ذلك فإنه يتوسل إلى رومانيا لكى تساعد الولاية.

بالإضافة إلى ذلك فإننى قلقة بشأن أولادى. إذ لايوجد لديهم نقود فى البيت ليس لديهم إلا قليل من الطعام. على أى حال كان هذا نعمة لأننى أجبرت على العودة ثانية إلى كلابار.

لقد ذهبوا لسؤال والدى عن أماكن وجودى.

بصرف النظر عن أن الحاكم جعل حياتى تعيسة فى الولاية، فإنه وجد الشجاعة أن يذهب هناك، ويطلب قطعة من الأرض من أهلى. لقد كتبت لكى أتفاوض معه لكى يترك الأرض.. فذهب إلى إكيت لتهديد أهلى، بأنه لولا شفقته بأهلى الكبار السن، لأخذنى ووضعنى فى الحجز.

لقدفكرت وشعرت بأن هذا أكثر مما يمكننى احتماله ولذلك أرسلت استغاثة إلى كيم ساليم.

أنا لا أعرف ما هى نتيجة التحقيق، ولكننى متأكدة أن الخوف من الاعتقال أو التهديد بالجلد كما هى العادة هنا سوف يكون أقل. فالناس يتم جلدهم ويجرسون أو يطردون من الولاية، رغم أن الواحد منهم يمكنه أن يكون شرقيًا جنوبيًا إذا رغب الحاكم أو إذا تجرأ شخص وتكلم عما يحدث فى الولاية.

أنا الآن جديدة فى الولاية، والناس يفرون منى كأننى مصابة بالجذام. الأعمال الغريبة التى كنت أقوم بها لكسب عيشى وعيش أولادى ومصاريف دراستهم لم تعد تدر ربحًا بعد الآن.

إننى أتساءل لماذا يغلق رئيس صالح هكذا أذنيه، عن صرخات الناس فى الولاية الشرقية الجنوبية. هناك مخبرون فى كل مكان فماهى الحاجة إلى وجودهم، أنا لا أعرف. الوزراء فى جمهوريتنا الأولى البشعة لم يكونوا على هذا المستوى من الفساد، الذى يمارسه أعضاء الحكومة فى الولاية الشرقية الجنوبية، إذا نظرنا لقصر فترة بقائنا. كل الأماكن تفوح منها رائحة الفساد.

الناس مثل أوكوى أريكا اضطر للهرب بعيدًا عن كل شىء يهم الولاية خوفا من حملات التشهير. إنه أسوأ مكان عرفته. إن شعارهم الغش من

أجل الغش. لم يكن الحال هكذا أبدا، فى الولاية الشرقية الجنوبية حتى فى خلال المرحلة التى سميت بعهد القهر فى نظام الإيبو.

+ الحروف الصغيرة من عندى وهى ملاحظة كانت تردد فى كل نواحى الأمة، كذلك معضلة جوون الشخصية.

الرجل مات (مقتطفات من بيانات شخصية)

كان من المقرر أن نقوم بتغطية حفلة أقامها الرئيس أونى. رفضنا أن ننفذ هذا التكليف، بناء على معلومات أولية من مكتب الحاكم بمنع الصحف والتليفزيون من تغطية أى حفلة يحضرها هو. ثم جاء موظف فى إذاعتنا وأكد لنا أن الحاكم رفع المنع عن هذه الحفلة بالذات.

لذلك ذهبنا.

جلسنا فى الحفلة بعيداً عن أى شخص آخر، حتى طلب منا الرئيس أوليوصولا أن نبدأ فى التصوير. كانت الحفلة فى حجرة جلوس فسيحة. فى وقت القبض علينا كنا نعمل بعيداً عن الحاكم - رغم أن زوجة الحاكم كانت ترقص مع رجل أونى. فجأة خرجت المرأة من حلبة الرقص وشكت من عيال التليفزيون الذين يوجهون لها الإهانات. فى الوقت نفسه غضب الرئيس أونى من هذه المعاملة، وتم تركه واقفا هكذا فى حلبة الرقص. وكان الشىء التالى الذى علمنا به هو صياح" أين أبناء التليفزيون. وقفنا فقال لنا: "اخرجوا من هنا - فوراً".

جمعنا معداتنا ونزلنا على السلم. وبمجرد نزولنا اكتشفنا أن الحاكم موجود هناك فى انتظارنا.

أيا كان الكلام الذى سمعه من زوجته فنحن لم نعرف أبدا، لكنه كان غاضبا مهتاجا وهو يتحرك فوق البقعة الخضرة من حولنا ويقول كم كناوقحين إلخ، إلخ.. ثم أمرنا بالذهاب إلى منزله. أخذونا إلى منزله تحت تهديد السلاح، حتى جاء بعد ربع ساعة تقريبا.

وعندما جاء قال: "خذ هؤلاء وأعطهم علقة ساخنة ثم أعدهم إلى هنا فى الصباح. إذا حاول أحد منهم أن يقوم بأى حيلة اضربه بالنار. لحسن الحظ أن الضابط المسئول كان من رجال الله، وبدلا من أن يأخذنا إلى الثكنات العسكرية، ذهب بنا إلى مركز بوليس إياجانكو. لقد طلب منا أن نخلع ملابسنا وأخذ أبناء البولى المتحركون فى القفز علينا بأحذيتهم الثقيلة. وفى نفس الوقت أرغمنا على أن ننام على أرضية الأسفلت.

بعد الضرب ألقوا بنا فى زنزانة مزدحمة بقساة المجرمين...... فى التاسعة من صباح اليوم التالى أعادونا إلى الحاكم وكان أول شىء قاله: "هل استمتعتم بالعقاب؟" واحد منا فقط سائق أجابه، حينئذ أمرنا الحاكم بأن نعود إلى مكتبنا حيث سيوافينا المدير العام بالمزيد عن قراره.

وفى المكتب أمرت الإدارة بوقفنا عن العمل، دون سماع روايتنا للقصة".

إن حكايات الضحايا الآخرين تماثل هذه القصة فى التفاصيل. التقرير الآتى كتبه أحد أعضاء فريق البحث الذى يعمل معى عن شخص مات:

إن أسرة هذا الرجل لم تعرف عنه شيئًا سوى أنه قد ضرب، وأرسل إلى إنجلترا، وأنه الآن فى عداد الموتى. لقد تمكنت عن طريق زملائه وأصدقائه من الحصول على هذا التقرير المختصر لما حدث له:

كان واحداً من فريق التليفزيون الذى تم ضربه بناء على أوامر الحاكم. أثناء الضرب كسر مفصل كعب قدمه. رفضت إدارة التليفزيون أن تقوم بعلاجه على أساس أنهم ليسوا مسئولين عما "حدث" له.

أخذوه إلى مستشفى أديو لعلاجه. عندما فشل المستشفى فى تحقيق علاج كامل للكسر، حوله إلى المستشفى الجامعى. ومن مستشفى الجامعة نقل إلى مستشفى تابع للبعثة التبشيرية فى أوجبوموشو، بعد جولته فى المستشفيات فى الغرب أرسل إلى انجلترا. وكان من المفروض أن تتقرر ميزانية علاجه من وزارة التعليم أو وزارة التنمية الاقتصادية. لم نحصل على معرفة محددة على أى من الوزارتين.

فى إنجلترا بدأت قصة استئصال قدمه. أولا تحت الركبة، ثم فوق الركبة، ثم الساق كله – من حد رأس الورك تم قطعه. أصيب الجرح بتلوث شديد (غرغرينة) وسرعان ما عجزت الرئتان. لم يستطع الإنجليز مساعدته، لذلك تم إرجاعه إلى الوطن – باعتباره حالة ميئوسا منها. وبعد عودته إلى الوطن بستة أسابيع فقط توفى إلى رحمة الله.

نادى الطلبة الدولى - كورتفيلد هوس، لندن

مستر وول سوينكا

٤ ديسمبر ١٩٧٢

الجارديان

١٩٢ جرايز إن رود

لندن

عزيزى مستر سوينكا

لقد كنت فى غاية الشوق لقراءة جريدة الجارديان فى الأسبوع الماضى، لأقرأ عن شخصك وعن كتابك الجديد "الرجل مات"، وأسعدنى بصفة خاصة أن أراك تذكر سيجان سوميمو فى مقالك، لأن الكثير منا هنا كانوا يعرفون سيجان معرفة جيدة عندما كان هنا فى إنجلترا.

إننى أتساءل إن كنت تعرف ما الذى حدث لسيجان بعد أن ترك نيجيريا. إنها قصة طويلة محزنة عن المرض المستمر وتدهور حالته. لقد جاء سيجان ليعيش هنا منذ ثلاث سنوات بعد أن بتر الجزء الأسفل من ساقه فى مستشفى روبامتون. لقد تعلم أن يمشى باستخدام الساق الصناعية واستطاع فى شجاعة أن يواصل دراسته فى الكلية. وكان من المحزن أن نرى معاناته تشتد ويسقط فى النهاية صريع المرض بدرجة

أعجزت الأطباء عن فعل أى شىء لإنقاذه، وحينئذ تمت الترتيبات لكى يعود للحاق بأسرته فى نيجيريا. أعتقد أننى كنت واحداً من أواخر الناس الذين رأوه فى إنجلترا.

لقد واصلت الاتصال بأسرته، وكنت أسمع أخباره بين وقت وآخر من أبيه وعمته، ولكن لم يمر وقت طويل على عودته حتى أدركته المنية وتوفى إلى رحمة الله.

ربما كنت تعرف أنت قصته الكاملة هنا فى إنجلترا. وليس فيما أقوله الآن شيئاً جديداً بالنسبة لك. لكن أيا كانت حالته، فإنه يسرنى أن أرحب بك هنا، وأن نلتقى إذا شئت أن تأتى لزيارتنا فى (لى آبى) Lee Abbey.

لك أجمل تمنياتى الطيبة، خصوصاً وأنت تتخذ قرارك إذا كنت سوف تعود إلى نيجيريا أم لا.

المخلص:

كريستوفر هيوارد

ملحق (س)

- مؤجل

ولكن هذا إعلان تحذيرى، هذه المرة كتاب مصور عنوانه

"نيجيريا - عقد من الأزمات فى صور"، هذا يذكرنا بحقيقة واضحة جدا ولكنها نسيت بسهولة، وسوف يمضى وقت طويل جداً ربما عمر جيل من الأجيال قبل أن تموت العواطف تماماً، بالنسبة للحرب الأهلية النيجيرية، رغم أن الكتاب صادر ١٩٧٢، فى السنة الثالثة على المصالحة، وبه مقدمات كتبها أعضاء قياديون فى النظام الحالى، منهم مدنيون وعسكريون، إلا أنه يحتوى على صور تحتها تعليقات مثل "جثة جندى متمرد ترك وحيد بعد أن نهشت منه الجوارح وشبعت". إن مزاج المؤلف والمساهمين الآخرين فى الكتاب من الممكن فهمه تماما، لكنه أيضا إحياء لذكرى قد تساعدنا على الاحتفاظ برؤية ناضجة، بل إن عاطفتنا الدافئة نحو الحقيقة الموضوعية لابد أن تكون رعاية مستمرة.

وبسبب هذه الذاكرة، حذفت الجزء الأخير من هذا الكتاب الذى يحتوى على تفاصيل تمت مراجعتها وتحقيقها، حول أنشطة القوات

الفيدرالية فى الغرب الأوسط بعد النصر، مفضلين الانتظار حتى تظهر أى محاولة للإنكار، أو لتجميل الحقائق من مؤرخى المؤسسة المتحفزين. أفضل منذ الآن أن أقرر أن هناك جريمة ارتكبت عمداً، وهى جريمة سياسية يقع الذنب فيها على نظام يعقوب جوون. أرى أنه من المهم على أعلى مستوى، أن الجنديين المتهمين تم الإفراج عنهما بعد سقوط بنين، وتم إرسالهما إلى"الغرب الأوسط". لقد بدأت عمليات الإعدام المنظم بعد ذلك بوقت قصير. إننى مستعد أن أتفق معكم، على أنه ليس ثمة صلة، لكنى لا أستطيع أن أتجاهل جنون الانتحار المستولى على الحكومة، بسبب محاولتى إبلاغ بعض أصدقائى من المثقفين، عن حقيقة إطلاق سراح اثنين من القتلة العنصريين وتسليحهما وإطلاق العنان لهما للفتك بالمدنيين الأبرياء، بعد انتهاء القتال فعليا. إننى على استعداد لتقديم الكثير فى سبيل تتبع هذين المجرمين فى إقامة الهولوكوست (المذبحة) فى أعقاب انتصار الجيش الفيدرالى.

لقد قيل الكثير حول شهامة يعقوب جوون ونبل أخلاقه، نحو المهزومين، وعبروا عن دهشتهم الكبيرة من حقيقة انه لن يكون هناك محاكمات خيانة وعمليات إعدام تالية، بعد انتهاء الحرب. هل مثل هؤلاء الناس سذج إلى هذا الحد؟ ألا يعلمون أن أى محاكمات مفصلة لبيافرا – ما لم تعقد فى السر طبعا – سوف تنتج أخطر التحديات المضادة لمن يوجهون الاتهامات، تحديات سوف يكون لها أثر شديد لأنهم جميعا – بدءا من يوليه ٦٦ قد ثبتت حقيقتهم بسهولة وبقدر كبير. سوف تكون ردة كلاسيكية، تشمل ليس فقط كبار الرتب من العسكريين بل والسياسيين

وبعض الموظفين المدنيين. فالمتهمون قد يثبت فى النهاية أنهم مذنبون ويتم إعدامهم، لكن أبناء الأمة قد تعلموا تعليمًا فريداً، سوف يؤدى إلى وضع نهاية لكل هؤلاء الحكام الحاليين بقوة الاشمئزاز فقط. إن قادة بيافرا لم يحاكموا لنفس الأسباب التى أحاكم بها، رغم الاعترافات الواضحة ومطالبى المتكررة من السجن لم يحاولوا أبداً تلبيتها.

وهناك هذا السبب أيضا، وهو الضغط المعتاد التى تمارسه دول كثيرة وبالأخص أولئك الذين عانوا من تبكيت الضمير، بسبب سلوكهم خلال فترة الحرب.

صورتنا بالنسبة للخير أو الشر، هى صورة أمة مرائية. من ثم جاء اعتراف المراقبين مثلا بعد ارتووا هم بالدم أن المذبحة الجماعية:

الأسبوع الخامس والسبعون

المراقبون يرحبون. جولات

رخيصة منظمة – انظر

أيدينا نظيفة

لقد سقطت الأمطار مرتين والأرض منخفضة.

الضغوط التى تمارسها الدول الأجنبية يمكن امتصاصها بسهولة، بل وتحويلها إلى شىء جيد، وفى أغلب الأحوال تكون هذه الضغوط نتيجة للفهم المتبادل والابتزاز المهذب. بريطانيا هى مثل واضح لهذا.

لقد بحثت بعض هذه الأمثلة الصارخة لمبدأ طمس الحقيقة، كما تمليها السياسة الحقيقية. ما زالت بريطانيا هى معلم هذا الفن، مثل كلاسيكى كان يضم أحد الآباء المبجلين، وكان يعمل فى مستوطنة أوسيامو للجذام فى الغرب الأوسط، محاولته فى أن يعلن شهادته الشخصية حول مذبحة الإيبو المدنيين الآخرين حول المستوطنة، تم قمعها من جانب وزارة الخارجية البريطانية، بحجة أن "الإعلان سوف يجعل الأمور تزداد سوءا بالنسبة للإيبو". مثل هذا النوع من النفاق لا يحتاج إلى تعليق. ولا يجب لطائفة المذنبين (إضافات على الحقيقة؟)، أن تقلل من قدرهم، فى ذلك الفن الآخر للابتزاز المهذب الذى يؤدى إلى دعوة "اختبارية" للمراقبين المحايدين، وإلى عملية تتويج الشهامة ونبل الأخلاق. بعد انتهاء عمليات القتل. أيا كانت أخطاؤه الأخرى، فلابد أن يدون فى السجل أن بنجامين أويكونلى كان أول قائد ميدان يقوم بإعدام جندى فيدرالى، لأنه أطلق النار على مدنيين عزل. إن سيل الإعدامات المماثلة التى أعقبت تلك السابقة المثيرة للجدل ووصول المراقبين لا يستحق حتى الذكر.

قد يكون من السهل، لكنه من عدم الأمان أن عفو يعقوب جوون النبيل يشمله هو وكبار رجاله فى السلطة. لنقول معهم "ما فات فات"، أن ننسى ذلك حتى فى الوقت الذى تحرض فيه الأمة على تواصل الحرب، فى حدود المعنى الاصطلاحى "شعب واحد" واتباع سياسة خبيثة لتفتيت الأمة.

لو أنا، أو الشعب الذى أنا جزء منه، قبل هذا التعريف للقيادة القومية، إذن فقد حان الوقت لنفكر بعمق فى السؤال الخاص: ما الذى يشكل الأمة ومكانى فيها. بالنسبة للبراجماتيين الذى يحبون أن يكشفوا – بطريقة غير حقيقية، لكن دعك من هذا – أنه على الرغم من أن كل ما فعله جوون فإنه كسب الحرب، وهناك إجابة واحدة، وهى تحتوى على تحذير "هكذا فعل جنرال فرانكو".

المؤلف فى سطور :

وول سوينكا

ولد فى غرب نيجيريا، وتعلم فى جامعة إبادان، ثم رحل إلى إنجلترا حيث درس الإنجليزية فى جامعة ليدز، وحصل على الليسانس ١٩٥٨ ثم عاد إلى بلاده، فعمل باحثًا بجامعة إبادان، ثم محررًا بمجلة "أورفيوس الأسود". ألف عددًا كبيرًا من المسرحيات التى أخرج بعضها بنفسه. كما ألف العديد من الروايات والدراسات الأدبية والسياسية. وهو مناضل شرس من أجل الحرية والعدل والمساواة، وقائد للمعارضة ضد النظم الديكتاتورية، وبالأخص نظام يعقوب جوون الذى يفضح جرائمه فى هذا الكتاب. وسوينكا معروف على المستوى العالمى تنشر كتبه وتمثل مسرحياته فى أوروبا وأمريكا. من أشهر مسرحياته: الطريق. الأسد والجوهرة، حصاد كونجى. مجانين وإخصائيين.

وكان أول أفريقى يحصل على جائزة نوبل فى الآداب سنة ١٩٨٦.

المترجم فى سطور :

نسيم مجلى

- ولد فى ١٠ يوليه ١٩٣٤ بسمالوط - محافظة المنيا.
- حصل على ليسانس الآداب فى قسم اللغة الإنجليزية عام ١٩٦٠.
- حصل على دبلوم الدراسات العليا فى النقد الأدبى عام ١٩٧٠.
- عمل بتدريس اللغة الإنجليزية بالمدارس الثانوية وأكاديمية الفنون وجامعة القاهرة.

من مؤلفاته :

- المسرح وقضايا الحرية.
- ابن سينا القرن العشرين.
- أمير شعراء الرفض.
- لويس عوض ومعاركه الأدبية.
- صدام الأصالة والمعاصرة.
- حنين بن إسحق وعصر الترجمة العربية.

وله العديد من الترجمات منها:

- كافكا.
- محاكمة سقراط.
- العصر الذهبى للإسكندرية.
- كيف تقرأ؟ ولماذا؟
- بالإضافة إلى عدد كبير من المسرحيات الأفريقية والإنجليزية.

التصحيح اللغوى: خالد العنانى
الإشـراف الفنـى: حسـن كـامل





لقد أخذ هذ الكتاب أشكالاً كثيرة؛ وفكرتُ كثيرًا فيما يجب أن يحتويه. وما يجب تأجيله، ما الذى يجب أن نمحوه كليًا، وكان هذا كله خاضعًا لمشكلات الملاءمة؛ لقدرتى المستمرة على التأثير فى الأحداث داخل بلدى، وفى تحقيق التغييرات الثورية التى أصبحت مكرسًا لها أكثر من أى وقت مضى. وكذلك اعتبارات سلامتى الشخصية، وعدم الرغبة فى فك آخر القيود عن نظام يجبره إحساسه بالذنب على البقاء بالقوة فى سلطة فاقدة للمصداقية، كل ذلك أدى إلى تغيير الشكل، والعنوان، بل وفكرة هذا الكتاب أكثر من مرة. فى الأسبوع الماضى فقط شطرته إلى قسمين، ليبقى أحدهما مؤجلاً، كسيف ديموكليز، منتظرًا اللحظة الملائمة تمامًا للقصاص السياسى.

وفى هذا الصباح كان العنوان لايزال "إعدام بطىء دون محاكمة" وفى وقت من هذا الصباح وصلنى العنوان الآخر فى برقية تحمل الكلمات البسيطة التالية: الرجل مات.

فى البداية صدمتنى صياغة الكلمات. أعطتنى رنينًا غريبًا ثم مألوفًا؛ تكمن ألفتها فى أنها نهاية حكاية أخلاقية: يموت الإنسان داخل كل قلب يقف صاحبه صامتًا فى وجه الطغيان.

لوحة الغلاف للفنان جميل الطفران   تصميم الغلاف: نسرين كشك